دار الأمان
الرباط
ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ م م
Publishing & Distribution L.L.C.

ABDELAZIZ ERRACHIDI

عبد العزيز الراشدي

مطبَخ الحُبّ

عبد العزيز الراشدي

مطبَخ الحُبّ

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ م م
Publishing & Distribution L.L.C.

مطبَخ الحُبّ

رواية

عبد العزيز الراشدي

• روائي وكاتب من المغرب

– لا أريدكِ في سريري كما في الماضي، أريدك أيضاً في مطبخي.

ابتسمَتْ قليلاً لهذه العبارة المسرحية، رغم ما تحمله جملتي من سذاجة، ثم قطّبَتْ. ووجَدْتُ أن تلك العبارة السخيفة التي التقطتُها من فيلم أجنبي قد أعجبتها إلى حدّ ما وإن حاولتْ إخفاء ابتسامتها، لكنها مع ذلك دخلتْ معي في نقاش طويل عن الحلال والحرام، وأن الشيطان سيكون ثالثنا إذا زارتني. أُسقط في يدي، وكدتُ لا أعرفُ هذه الفتاة التي أمضيتُ معها الشهور في غرفة حقيرة بضواحي الرباط وسلا. وقتها كانت منفتحة على التجربة وها هي ذي الآن تدور دورة كاملة في الاتجاه المعاكس. لم أعرف ما أفعل إزاء فتاة تخرجت من الجامعة ومارست النضال لفترة وهتفتْ للتغيير، والتي أصبحت تؤمن بأن تقبيلي عند الشاطئ مقبول، لكن التواجد معي في المنزل لتناول الطعام حرام. كانت علاقتي معها في الماضي أسهل بكثير. عبور إلى الجسد دون ضرائب أو حبّ. كانت سهلة وطيّعة وتعرف ما تريد، وهي التي اقتحمتني. ولهذا كان فراقنا يومها مثل سكين غادر. فقد خرجتْ من حياتي بالسرعة والمفاجأة التي دخلت بها..

كنت أعرف أن رفض سهامْ المجيء لزيارتي مجرد مناورة، لأن الكثير من الفتيات، من بنات المدن الصغرى، ينظرن إلى السقوط الأول مثل راية بيضاء، لابد من الممانعة كثيراً قبل رفعها، خصوصاً إذا وضعتك ضمن قائمتهن ولم تكن مجرد عابر سبيل.

لوحة الغلاف: مولاي يوسف الكهفي
تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-9948-448-26-2
9 789948 446262

دار الأمان
الرباط

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ م م
Publishing & Distribution L.L.C.

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

مطبخ الحبّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولي
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9948-446-26-2

جميع الحقوق محفوظة

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
الهاتف : 76. 32. 72. 537 (212) - الفاكس : 55. 00. 20. 537 (212)
البريد الالكتروني : darelamane@menara.ma

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبو ظبي هاتف: 6345404 (2 - 971+) فاكس : 6345407 (2 - 971+)
دبي هاتف: 2651623 (4 - 971+) فاكس : 2653661 (4 - 971+)
بيروت هاتف: 786233 (1 - 961+) فاكس : 786230 (1 - 961+)

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء ثقافة للنشر و التوزيع.

التنضيد وفرز الألوان : **أبجد غرا فيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة : **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

(1)

كنّا ننامُ في الصالة عَارِيَّيْنِ. لم نشأ أن نَلج غرفة النوم، لأن رغبتنا لم تستطع الانتظار؛ فقد فاجَأَتْنا الشهوة ونحن نُتابع فيلما أمريكيا يحكي قصة حبّ عاجلة، بين غريبين، التقيا صدفة في محطة صغيرة، ببلدة بعيدة. ودون تفكير، وجدا نفسيهما يتبادلان القُبل بعد نقاش قصير عن الغربة؛ بعد أن اكتشفا أنهما يُكَمِّلاَن كلام بعضيهما، وأنّ لقاءهما مقدّر ومكتوب.. ولأن مثل هذه الصوّر تذكّرنا بما حصل بيننا خلال مرحلتين من عُمرنا؛ مع فارق في التفاصيل والمكان، ولأن الضوء خافت والموسيقى خفيفة، وجسديْنا دافئيْنِ بالتلاحم والنشوة، فقد وجدْنا الصالة مناسبة فأعرَضنا عن غرفة النوم. كانت الموسيقى الكلاسيكية التي أعقبتْ نهاية الفيلم هادئة وتُغري بالنوم والاسترخاء، وكنّا في غمرة الانشغال العميق الذي يدوّخُ الأمزجة ويُكسِبُ النفوس إحساساً عُلوِيّا تدرّبْنا عليه مراراً حتى انتهَيْنا إلى صفاء نادر أكسبَ قلوبنا نشوة وشجنا لا يوصفان.. ثم انتهى كل شيء، وانطفأْنا لبرهة قصيرة، وحلَّ محل الشهوة تعب لذيذ..

استلقيتُ هادئا مسترخيا، بينما اتّخذ جدْعها الأيسر من ركبتي متكأ، دون أن تُثقل عليّ بالجسد الممتلئ قليلا، بلا مبالغة. كان جسدها كاملا كمالاً حقيقيا اطمأَنَنْتُ له منذ البداية في البعيد وألفتُه مزيدا مع الزمن، و طالما أثارني، وجعلني أستعجل المرور، بامتلائه اليسير المطلوب، الذي لا يزيد ولا ينقص. شهوة النهدين والخط الأسمر الذي ترسُمه الظلمة الخفيفة بينهما أيضا يجعلانني أشتهيها دائما.لاشيء في جسدها يزيد عن الحاجة، خصوصا عندما تلبس الأزرق الأثير لديّ، تصبح بضّة قليلا ومناسبة لا تَرْحَمْ، كانت تقول لي كلّما ذكّرتُها بذلك:

- إنـك مغربـي، ولا تـزال سـمات الجمـال المغربيـة القديمـة تسكنك؛الامتلاء والبياض، تماما مثل جدّك...

متّكئـة، تنظـر مُباشـرة فـي عينيّ وهـي تتكلّم بهـدوء كمذيعي آخر الليل، وتبتسم بتواطؤ جميل ولا تختلف معي كثيرا حول الأمور. حين لا يُعجبها كلامي تُقطّب قليلا، دون ضرر، وتعقب ذلك بابتسامة لطيفة، وكأن العالـم لا يحتمـل الاختـلاف. أمـا أنا فكنتُ أداعب ظهرها بطرف أصابعـي بلطـف وبـطء لـم اعتده في نفسـي، كنتُ هادئـا تماما ومرتاحا وذهني صاف تتوارد الصور عليه - كعادتي حين أرتاح - لا أبذل مجهودا كبيرا في التفكير، ويستدعي ذهني ذكريات جميلة. ظلَلتُ أفكّر في هذه المنّة التي نزلت من السماء وأسعدَتْني وأعادت التوازن إلى روحي التي أنهَكَتْها المطارق، فأحيانا تُزعجنا الحياة بقسـوتها وتقصمُ ظهورنا حتى نـرى أن لا خـلاص، لكـن لحظـات كهـذه تتخلّلهـا العتمـة والاطمئنان تجعلُنا نفكّر أن الحياة تستحق العناء.

ثم إنني كنتُ أمرّر يديّ على شعرها وأداعب خدها مُسترخيا وأهمّ بالكلام، حين تحركت ريحٌ خفيفة لم تُزعجنا كثيرا بل عَمّقتْ إحساسنا بالراحـة. كان صـوت البـرد بالخـارج يمنحنـا دفء اللحظـة، ونظارتهـا ويُطَمئِنُنا بأنّ جميع الناس في بيوتهم متواطئون حول الدفء والاطمئنان. تحرّكت الريح في الخارج ولم نتحرّك، لكن باب غرفة الصالة الصغيرة اندفـع بقـوة فجـأة وارتطم بإطـاره. الصدمة كانت قويـة وأحدثت صوتا مدويا غطّى صداه المكان..ابتسمتُ ابتسامة خفيفة لمعرفتي بِحال منزلي الغريـب، والـذي أُرجعُه فـي لحظات كثيرة، بعد تفكير عميق، إلى قويً تصعد من الأسفل، حيث مكانها الطبيعي، لتسكن معي وتلازمني لوقت حيـن تضجـر مـن بخور الدار السـفلى ومن تَعَازيـم صاحب الدار الذي أكتري شـقته العليا، ورغم أني لا أميّزها إلا أنني أفهمها وأحسّـها.. أما

حبيبتي فجمّدها من الرعب اصطفاق الباب: لعل إحساسَها المبهم الدائم بوجود شخص يُراقبنا قد استيقظ من جديد؛ فقد كانت تخاف دائما من متلصّص قد يُسـجّل اسـتغراقها في النشـوة والعتمة فيقع المحظور.وما كان يُؤكـد لهـا وجـوده هـو أنها تحـرصُ على إغلاق الأبـواب والنوافذ حيـن تدخـلُ، وعلـى الرغم من ذلك، تنفتح فجأة، ويدخل البرد فيُوقظنا من الحلم اللذيذ. وانسجاما مع قناعاتها التي ترسّخت بفعل التجربة في هذا المنزل الغريب، كانت تلحّ عليّ أن أغيّر المكان لكنني كنتُ أرفض وأضحـك منهـا ومـن تفكيرها، لم أكن أنفي ولا أُثبت وجود آخر، كنت أحـاول أن أسْـخَر مـن أوهامها لأطمئنها لكنني أُتبع سـخريتي بابتسـامة ملغـزة حيرى تقع في المنتصف..ابتسـامة سـوف أدفـع ثمنها غاليا، بعد مرور الوقت، حين يتبدى لي أن ما كنت أعتقدُه مجرد افتراض صحيح تماما ويسكن معي، بل وبداخلي..

كنت أهمّ بالوقوف لإغلاق الباب الذي تحرّك بفعل الريح حين قالت:

- خلّيك مَرْتَاحْ. وقامت.

لـم تُغلـق البـاب، كأنّمـا نسـيتْ أو تجاهَلَـتْ، وانحـدرتْ باتجـاه المطبخ(لعلّها تريد إحضار مشروب).

وتأخّرتْ.

تأخّرتْ بما يكفي..

وأنـا بقيـتُ متّكئـا هادئا أفكّر في علاقتنـا وأُقلّب الصوّر في ذهني على كلّ أوجهها..

تذكرتُ حياتي معها وكيف فهمنا في النهاية أننا قدرُ بعضنا..

عاد إلى ذهني الكثير من الوقت الذي أمضيناه معا في الرباط حين كان التشرّد صديقا حميما. كيف التقيْنا أول مرة هارَبَيْنِ من حياة بائسة لم نخترها هناك...ثم كيف افترقنا لنلتقي مرة أخرى في هذه المدينة الصغيرة،

كما لو أنّ القدر رتّب لنا موعدا مع الحب..والحبّ دائما يُشفي..

في المرة الأولى للقائنا كنا هاربَين من عصا البطالة والبوليس ومن حياة مُفعمة بالعُنف والأسى والحسرة. مُعطّلان غضب الوطن عليهما فسدّ الأبواب والنوافذ..

وفي المرة الثانية، وبعد مرور سنوات، التقينا ونحن هادئان ممتلئان بالواقع وكانت قد فهمت الأشياء حقّ الفهم. ربّما بسبب المعرفة والتجربة.عرفَتْ على الأرجح وقتها بأنني قدرها وأنّها لن تستطيع ربح حياتها من دوني..

تذكّرتُ لقاءنا الثاني، بالصّدفة، في هذه المدينة، بعد فراق طويل. وتذكّرتُ انغماسنا في بحر الحب دون هوادة.

كان ذلك بعد أيام على قدومي هاربا من قدري، كأنّما جئت باحثا عنها. يومذاك رأيتُها واقفة بالصدفة، على درج الجامعة، كانت كما لو بانتظاري فخفق قلبي وعرفتُها رغم السنوات التي بدّلتها قليلا. لم تتغضّن ولم تكبُر بل ظلّت طفلة لا يبدو الشقاء على وجهها سوى حين تكتشفُ كِذْبها. كانت كعادتها تماما تنظرُ بشرود إلى لا مُحدّد..

كنتُ أحملُ ملفا كبيرا وأقف أمام باب الكلية لأجل أمور مُستعجلة تهمّ عملي. أردتُ أن ألتقي عميد الكلية فلم يتسنّ لي. رتّبتُ معه موعدا آخر وخرجتُ لكن الحبّ كان بانتظاري بعد جفاف طويل يبست فيه روحي..رأيتها واقفة في صفّ طويل وكانت ترغب-كما قالت- في تسجيل قريبتها..وَضعْتُ يدي على كتفها بحنان فأدارتْ وجهها وتفاجأَتْ بوجودي.لم تُخف فرحها وصاحتْ:

- عبد الحق؟

لم نتعانق كما يُفترض.سلّمتُ عليها بهدوء رغم أنّ داخلي كان عاصفا وسلّمتْ. تكلّمنا قليلا في عموميات الحياة وسألتْني عن سبب

زيارتي لهذه المدينة. لم أقل لها كلّ شيء وراوغتُ. سألتُها عن سبب تواجدها هنا، فقالت إنّ قرية أسرتها ليست بعيدة، وإنها جاءت إلى هذه المدينة بعد فراقنا في كزا وعملت في مكاتب كثيرة سكرتيرة قبل أن تنتهي إلى مكتب محامية.قالت إنّ القربَ من العائلة يمنحها الأمان ويجعلها مرتاحة. ذكرت كلمة الراحة مرات عديدة حتى شككتُ في المغزى.كدتُ أسألها عن صديقتها التي أغرَتْها بالهرب من مصيرنا المشترك، هل قادَتْها إلى فُندق؟ لكنني وجدتُ الوقتَ غير مناسب لهذا الحديث فصمتتُ. دعوتُها لشرب قهوة فوافقَتْ. تناولْنا في مقصف الكلية الذي يعجّ بالمحبّين والمحبّات شايا كثير السكر (لعلّ صاحب المقصف يضعُه خصيصا ليزيد من طاقة الشباب). أكلْنا خبزا يابسا، وضحكْنا كثيرا حتى والنكت التي نحكي بسيطة، وهذا ما قادني إلى اليقين بأن الضحك حالة، لا تستَوْجِبُ أسلوبا حين تكون الظروف مُهيّئة لها بل هي كيمياء تتمشى بين العروق. تمشّيْنا في شوارع المدينة اللطيفة، ثم وَجَدْنا نفسيْنا قرب البحر.حكيتُ لها القليل عن حياتي في أوروبا بعد فراقنا وعن هجرتي عبر قارب سري، حكيتُ لها عن نعيم أوروبا.كذبتُ وبالغتُ لأنتصر على تلك اللحظة الماثلة دائما أمامي حين تركتْني في محطة القطار بالدار البيضاء. تحاشيتُ الحديث عن التشرّد الذي عشته في أوروبا رغم أنها قاسَمَتْني بعضه في الدار البيضاء، لأنه قد يزعجها كما خمّنتُ، فالنساء يبحثن عن الأمان لا عن المشاكل. كان حديثي خليطا من الصراحة والكذب لأننا لا نستطيع أن نكذب بدقّة إلا إذا بَنينا كَذِبَنا على وقائع نصف حقيقية كما قدّرتُ دائما. كذبتُ وقلتُ إنني كنتُ أعمل في شركة للملابس وأَقْبِضُ باليورو، وإنني في هذه المدينة أشتغل مع جريدة محترمة وأقبض جيّدا لأنّ صديقا لي هاتَفَني وطلب مني الحضور للاستفادة من خبرتي في تحرير المقالات..رأيتُ في عينيها ما يشبه الفهم

والتقدير. كانت تقول في داخلها إنّها تُقدّر كذبي وكبريائي..لم أستطع أن أقـول لهـا الحقيقـة يومذاك: إنني بعد فراقي معها لم أحظ بعملٍ فتعذّبْتُ في كزابلانكا ثم هربتُ إلى أوروبا بطريقة ملتوية، بعد أن سُدّت الأبواب في وجهي، تشرّدتُ هناك، وحين عدتُ خالي الوفاض وجدتُ البلد قد تغيّر كثيرا، فاحتميتُ بهذه المدينة الصغيرة، واتجهتُ إلى العمل بجريدة حديثة النشأة، تدفع لي مالا قليلا، وتكلّفني بمهام غامضة لم أُدرك يوما مغزاها.إنها حياة بائسة لشاب يمتلك شهادة لا تُغنيه، لكنها حياتي. وهي عموما ليسـتْ حياةً مختلفة أو نموذجا خارقا، فأمثالي في كل الشـوارع والمدن دون حساب يتعرضون للرّكل والرفس والوصف بأقدح النعوت ويُتّهمون بالكسـل والتراخي. إننا في نظر الكثيرين مجرّد كائنات بغيضة ولا حاجة للعالم بنا ومن الأفضل لو تمّ شَحْنُنا، مثل النفايات، إلى مكان بعيد..كنـتُ أعـرف سـهام وأعـرفُ جُبنها. لم أقل لهـا إن مقامي بأوروبا كان دون جـدوى، وإننـي لم أسـتطع تحقيـق المبتغى في الخارج، ولهذا عدتُ مجروحا. قلتُ لها أمورا كثيرة قرب البحر واكتشفت فجأة أنني لم أتكلم منذ مدة طويلة كل هذا الكم من الكلمات، وكان الوقت قد تأخر قليلا، وضباب كثيف يغطي الشاطئ. جلسْنا على الرمل وتحادَثْنا بهدوء. وجدتُ نفسـي أشـعر بأمان غريب لم أحسّـه منذ زمن بعيد. كان الوقت يمضي وأنا لا أحسّ به. وجدتُ نفسي أنغمسُ في زمن ميت واقف، بلا حركة، عكس كل أيامي التي يُقلقني فيها الزمن؛ ففي بداية عملي، كنتُ أستيقظُ من النوم وأركضُ إلى باب الجريدة وأفتح المكتب ولا أرتاح إلا وأنا أكتشف أن العالم نائم. لا شيء ينْضافُ إذا استيقظتَ باكرا في مدينة تعيـش بهـدوء، مدينـة الراحة والسـكون، الناس فيها ينظـرون إليك بريبة إذا تحرّكـتَ أكثـر مما ينبغي..كنت مهموما بالزمن منذ مجيئي، خصوصا وأن تجاربـي فـي الـدار البيضـاء علّمتنـي أن وقتي ليس ملـكا لي، كُنتُ

عبد الوقت هناك، وكان في مُكنة الجميع امتهان مساحتي الخاصة...أما في ذلك المساء الذي رسم لقاءنا الجديد، أمام البحر، على غير عادتي، فكنتُ هادئا معها وقد أَسْعَدني ذلك، ثم وجدْتُ نفسي أقترب منها كثيرا لنتلامس ونحتكّ، ووجدنا نفسيْنا نتبادل القبل فجأة؛ قُبَلا طويلة محمومة لعاشقين لم يلتقيا منذ زمن وانكسر الكبرياء. الظلام أسْدل ستاره على البحر وعلى المدينة، وبدا لنا طيفُ مركب غارق بعيد لم يرفعه أحد فبدا مثل الذكرى التي تنفع الصيادين، أضواء الفنار تمضي وتعود، والناس غادروا المكان وتركونا لوحدنا نعيش ما تيسّر..على الرمل كنّا قريبين من صخور انحسر الماء عنها بفعل الجزر، ملتصقين وحيدين مستمتعين، الليل ليلنا والحياة جميلة.. ثم إني كُنتُ غارقا في النشوة ورائحة البحر في خياشيمي، حين رأيتها تنهضُ مسرعة وتنفضُ الرمل عن ثيابها وتُعدّل شعرها وهي تُمسك مقبض الشعر بأسنانها. لم تنتظر سؤالي ولا دهشتي، فقد أشارت برعْب إلى فَرَسَيْن يقتربان منا. أجفلتْ سهام بسرعة ولم أفهم في البداية. حاولتُ تهدئتها لكنها قالت:

- البوليس.

وأضافت بتدقيق من يعرف جيدا هذه الأمور:

- حْمِيرْ. كَيْخَلّطوا كَلْشي.

قلت لها:

- لا تَخافي.

- وإذا جاؤوا وسألونا واستفزّونا؟

- مَتْخَافيشْ. أنت خطيبتي، أو زوجتي! ومستعد للذهاب معهم إلى أبعد الحدود.

لقد عرفتُ البوليس جيّدا، وذُقت طعم هراواتهم في كل المدن؛ في الرباط وأنا أعتصِمُ أمام البرلمان لأطالب بالشغل، وفي الدار البيضاء وأنا

أشتغل في مهن حقيرة لأعيش؛ بنّاءً وبائع خردة ثم بائع تين على عربة صغيرة وأحيانا مشرّدا بين الأزقة. عرفتُهم أيضا في أوروبا عندما فرضوا عليّ الركض وراء سيارتهم مثل عبد من القرون الوسطى للوصول إلى مقرّهم، قبل أن يشحنوني إلى البلد مثل بضاعة فاسدة. وقتَها فكّرتُ أن بوليس المغرب لا يختلف عن بوليس أوروبا. كل بوليس العالم لحظة الحزم سواء. ورغم أنّها أيضا جرّبت بوليس الرباط وهربتْ منه، إلا أنّها في هذه الحالة لم تخشَ غير الفضيحة. بدا لي بأنّ شرطة الشاطئ أكثر وداعة من الملائكة.إنهم مجرّد شباب يتفقّدون المكان ويؤمّنونه. يؤمنون بالحب أيضا ويسعون له، وإذا لم يجدوك في وضع سيء فلا خوف عليك، قد يمازحونك ويمضون إلى حال سبيلهم.(في هذا البلد حريّة غريبة يصعُبُ تفسيرها، لكنها جميلة ومُمتعة؛ فما يمنعه القانون المكتوب لا يمنعه قانون الواقع بالضرورة، لأنّ المجتمع تطوّر كثيرا وتجاوزَ القوانين التي تحكمه، المهم ألا تؤذي أحدا ويمكنك أن تعيش بسلام). لم أنتبه في غمرة الاندفاع، إلى ما أطلقتُ من كلام حول أهميّة سهام عندي، لم أكن أقدّر قوّة كلامي ولا معناه وأنا الذي لا زلت معلّقا بين السماء والأرض، أنا الذي لم أجرؤ على قول هذا الكلام طوال علاقتنا في مدينة الرباط حتى في غمرة العبور العميق. لكن الخيّالة مروا ولم يلتفتوا إلينا. كأني رأيتُ أحدهم يرمُقنا بنظرة خفيفة ويمضي..تساءلتُ بعد ذلك عمّا دار في خلد الشرطي وهو يمسك بزمام فرسه ويفوتنا؟ كنا قد بدأْنا في تلك اللحظة نحثُّ الخطى باتجاه مقاهي الكورنيش الهادئة حانيين رأسينا كمذنبين أو كمن لا يبالي. بدا أن كلامي كان قويّا ومطمئِنا ومطلوبا في تلك الحالة (هل كانت تختبرني؟)، مشيْنا وهي تُمسك بذراعي، حتى وصل إلى عروقي صدى ضربات قلبها، أحسستُها تلتصق بي كأنما ترغب في ضمّي أو الالتحام بي كليا وقد زاد ذلك من شهوتي...

تأخّرتْ عنّي مزيدا..

وأنا في الصالة غارق في تذكّر أيّامنا الأولى في هذه المدينة الصغيرة.كثيرا ما أقف في منتصف حديث من أحاديثنا وأعيد تذكّر بدايات علاقتنا لأقيّم الوضع كما أفعل مع كلّ تفاصيل حياتي، وها إني الآن، مشدود بنشوة الراحة بعد العبور، أدقّق في الصوّر..

تذكّرتُ، ناقلا بصري بين كتبي المنتشرة في كل مكان وبين"الفوطوي" الأحمر الذي اشتَرتْ لي من نقودها القليلة (لأنها لا تحبّ الأسود الذي اخترتُ) لحظتنا الجميلة الأولى داخل هذه الصالة..

رَاودت ذهني صورٌ كثيرة. واستدعيتُ صورتها، على الخصوص، حين بكتْ في أول مرة عَبَرنا فيها مسار اللذة بعد طول فراق..هل كان بُكاء من الشوق واللذة أم من الخوف أم من أمر لا أُدركه..

في أول مرة عبَرْنا فيها نحو دروب الغرام، بكتْ سهام بكاءً صامتا. لم أُطَمْئِنها كما ينبغي لأن طاقتي للكلام كانت قد دوّت. كنتُ أحسّ تعباً شديدا شلّ قُدرتي على الحديث، كنتُ أحتاج إلى الصمت والهدوء وتأمّل الحالة كما الآن. ذلك أني أمضيتُ النهار كله محاولا إقناعها بالمجيء إلى شقتي(مجرد زيارة لا أكثر. دون وعود) وكان أمرا عسيرا، استعملتُ فيه كل وسائل إقناعي، بما في ذلك تلك التي لقّنني إياها عثمان الفيلسوف، زميلي في الجريدة، الذي أخبرني بما ينبغي عليّ أن أفعل، وأنا كُنت أستمع إليه طائعا مستسلما، مثل تلميذ فاشل، كأني ما عرفتها من قبل. ضحك عثمان وسألني:

- هل تحبها؟ أم هو الجسد فقط؟

ثم نظر في أوراقه ودوّن شيئا ما، قبل أن يُوضّح لي ما عليّ فعله.. ففي مدينة صغيرة مثل هذه، يراقب الناس فيها بعضهم، يَحرم على العزاب أن يعيشوا حياة هانئة، لهذا عليهم أن يراوغوا لإدراك السّبل...

لـم أشـأ أن أخبـر عثمـان أن التـي يتحـدث عنها حبيبتـي القديمة، ولم أشأ أن أقول له إن سنوات الفراق وضعت بيننا سياجا من الخوف ومسافة كبيرة أصبحتْ تتحكّمُ في خرائطها..اكتفيتُ بالإنصات لما يقول وهو الذي ظنها صيدا جديدا..

مـرّت الأمـور كمـا لم أخطط، فحين دعوتُها للغداء، اسـتبَقتْ كل الـكلام كأنمـا تعـرف الحكايـة ورفضـت. قالت إنّ علاقتنا لـم تعد كما كانت، وإنّها الآن مختلفة عن الماضي.

- فخْبَارَكْ لْتَازَمْتْ. قالت لي.

واكتشفتُ لأوّل مرة – ويا للغرابة – أنّ الفتاة التي فارقَتْني في محطة القطار بكزابلانكا وهي تلبسُ الجينز وتترك شعرها مستريحا على كتفها ترتدي حجاب الرأس.ولبرهة خفتُ أن تقول بأنّها قد ارتبطت بشخص آخـر أثنـاء غيابـي لكنها لـم تقل.هكذا وجدتُني أرتجـل كلاما كثيرا عن أهميـة أن يكـون للإنسـان مـكان حميمي يلتجئ إليـه، وكلاما تافها عن الثقة لا محل له، ثم إضافات لا تُغني حول الالتزام الذي هو في النهاية حـوار بيـن شـخصين لا امتناعا عن المجرى. ثـم تنكّرتُ تماما لنصائح الفيلسوف وقلت لها:

- لا أريدك على سريري كما في الماضي، أريدك أيضا في مطبخي.

ابتسـمَتْ قليلا لهذه العبارة المسـرحية، رغم ما تحمله جملتي من سـذاجة، ثـم قطّبَـتْ. ووجَـدْتُ أن تلك العبارة السـخيفة التـي التقطتُ مـن فيلـم أجنبـي قـد أعجبتها إلى حدّ ما وإن حاولتْ إخفاء ابتسـامتها، لكنها مع ذلك دخلتْ معي في نقاش طويل عن الحلال والحرام، وأن الشـيطان سـيكون ثالثنـا إذا زارتنـي. أُسـقِط في يدي، وكـدتُ لا أعرفُ هذه الفتاة التي أمضيتُ معها الشـهور في غرفة حقيرة بضواحي الرباط وسـلا. وقتهـا كانـت منفتحة علـى التجربة وها هي ذي الآن تدور دورة

كاملـة فـي الاتجـاه المعاكـس. لم أعرف ما أفعل إزاء بنت تخرجَت من الجامعـة وعاشـرتِ النضـال لفترة وهتفتْ للتغييـر، التي أصبحت تؤمن بـأن تقبيلـي فـي الشـاطئ مقبول، لكن التواجد معي فـي المنزل لنتغذى حـرام. كانـت علاقتي معها في الماضي أسـهل بكثير.عبور إلى الجسـد دون ضرائـب أو حـب. كانـت سـهلة وطيّعة وتعرف ما تريد، وهي التي اقتَحَمَتني. ولهذا كان فراقي معها في ذلك الوقت مثل سكين غادر، فقد خرجتْ من حياتي بالسرعة والمفاجأة التي دخلت بها..

كنـت أعـرف أن رفـض سـهام المجيء عندي مجرد منـاوَرة، لأن الكثيـر مـن الفتيـات، مـن بنـات المـدن الصغـرى، ينظرن إلى السـقوط الأول مثـل رايـة بيضـاء، لابـد مـن الممانعة كثيرا قبـل رفعها. خصوصا إذا وضعنك ضمن قائمتهن ولم تكن مجرد عابر.لاحظتُ لأوّل مرة أن السنين قد غضّنت جبهتها قليلا وغيّرت أراءَها وجعلتها مكشوفة وتدعو للشـفقة. بـدأتُ أحـسّ حـرارةً في الجو، أو لعلنـي توهمتُ ذلك بفعل حرارة النقاش والقلق الذي يحوطني. مع ذلك لم أيأس، وأخبرتها بأنني لا أهتم للجسد، قلتُ لها إنّني أعرف خريطتها كما تعرف خريطتي(قلتُها بوقاحـة غيـر معهـودة)، وأن بإمكاني – لـو فكّرت في الجسـد – اقتناص النساء وقتما أريد، فالمدن مفتوحة على المزاج لكني حدودي.

– ثُمّ إنّي أُحبّكِ.

خرجـت الكلمـة مـن فمـي مثل ريـح بلا معنى، كأنّ شـخصا آخر نَطقهـا، وتعجّبـتُ لأجسـادنا التـي تنطـوي على أسـرار لا نفقههـا لكنّها تقفـز وقـتَ الحاجـة لتحـلّ المشـاكل أو لتُحرجنا. قلتُ لهـا من العيب أن تفكّـري فـي نفسـك على هـذا النحو، وأنتِ المتعلمـة. لأنني أريدها معـي فـي فضائـي كـي نعيش لحظـة مختلفة بعيدا عـن رقابة الأعين في المقاهي والشـاطئ ونعود إلى سـابق عهدنا. كنتُ كاذبا بشـكل صادق،

وربّما صادقا بشكل كاذب، فذكّرْتها بخطورة الخارج، الذي يبقى مُبهَماً ومُشـرَعاً على الاحتمالات، وباليوم الذي كادت تموت فيه من الرعب حين اقترب بوليس الشاطئ منا. ضحكَتْ خفيفاً لكنها رغم ذلك ظلّت على موقفها (كأنّ الملعونة تتلذذ بيأسي). ثم اكتشفْتُ في غمرة كلامي، بأنها حربٌ بيني وبينها..

في الطريق الذي يأخذنا طويلا ولا نحسّ به بل يأكُلُه الكلام مثل طعام هشّ أو غبار، صفا ذهني فجأة كما لو أنني مسـحتُ قطعة زجاج صغيـرة يغشـاها الضبـاب فبانت الحالة. ظهرتْ لـي حقيقة الحرب التي أخـوضُ بهمـة مـن يدافـع عـن آخر حصـن. وتلك كانـت حالتها أيضا. وهـي حـرب أدركـتُ تفاصيلها جليّا في ما بعـد، وتأكّد لي في لحظات صفـاء تُراودنـي بيـن الفينة والأخرى، حين أكون في داري على كرسـي أعددتُـه خصيصـا للراحة والتَّخَمُّمِ داخل المطبخ، أنّ خلاصة كل علاقة بيـن رجـل وامـرأة هـي حرب قد يختـاران أن تكون صامتة أو مسـتعرة حسـب ظروفهما وسـخونة الدم والتجربة. هكذا اكتشـفتُ وأنا أناقشـها يومـذاك بـأن الموضـوع الـذي كان اختياريا – ويُفترض أن يمرّ بسلاسـة عجيبة تجعله مدعاة للفخر ومحفّزا على الذكرى ومثيرا لفضول عثمان الـذي لا يُزعزعـه شـيء – قد تحـوّل إلى نقـاش أكثر جدّيـة من قضيتيْ فلسـطين والعراق – فحزِنْتُ. أنا الدون جوان الذي لم يسـتطع أن يقودَ امـرأة، مضـى علـى علاقته بها سـنوات ومرّت بينهمـا المياه، إلى منزله. ثـمّ تحـوّل حزنـي تدريجيا إلى غضب، خصوصا حيـن تذكرتُ الطريقة التي سيسخر بها مِنّي عثمان. تخيّلتُه جالسا على المكتب الجديد، بمقرّ الجريدة، الذي تنبعث من أثاثه رائحة الخشب القويّة يُتابع حديثي بانتباه (بنظارتيه اللتَيْن لم أكن أعرف يوما مهمّتهما، إذ يرفعهما ليرى الجالسَ أمامه، لكنه لا يستطيع النظر عبرهما مباشرة). تخيّلتُه يَسْتمعُ لي مفتعلا

الجدّية والاهتمام، وحين أضعُ أسلحتي وأعرّي هشاشتي أمامه، وأُصرّح له بكل شيء وبأدقّ التفاصيل، يقفزُ من مكانه ويزعزع أركان المكتب بضحكه الهستيري.قدّرتُ أن عثمان سيظلّ يَسخر مني لشهر وأكثر وربما لما تبقى من عمر في علاقتنا، وهذا ما زاد من إشعال غضبي..مشيْنا صامتين.حاولتْ أن تفتَحَ مواضيع كثيرة للنقاش وكنت أُجيب باقتضاب. كنتُ مجروحا، وكانت تبحث عن مخرج لهذا الصمت الذي بدا ثقيلا بيننا، وتخيلتُها لبرهة وهي تعتذر، أو أحسَسْتُ بأنها ترغب في ذلك لكن كبرياءها يمنعها، تمشّينا على غير هُدى ووجدْنا نفسيْنا فجأة أمام شقتي. دون ترتيب، ودون كلام دخَلْنا..

في هذه الصالة بالذات، التي تتسارعُ فيها الآن ذكرياتي، حدث ما كنتُ أشْتهي بعد تمنّعها الطويل.ثم حدث بعد ذلك في المطبخ بلذة أعلى عادت المياه خلالها إلى المجاري. أدخلتُها لترى غرفة النوم والمطبخ ثم عدْنا إلى الصالة. أَرَيْتُها غرفة النوم أولا لنكسِر كل حاجز وأُبْديّ حسن النوايا. دَخَلَتْها وخرجَتْ منها بسرعة كمن يهربُ من رغبة آثمة بعد أن تمعّنتْ جيدا في السرير. وفي الصالة، وبارتجال مُفرط، على "الفوطوي" حدث بيننا المقدّر. كان عُبورا مستعجَلا لم أشْعر فيه بلذة، بقدر ما شعرت بانتصار لأنّ ذلك سيفتح بابا ورديا للعبور. جلسْنا في البداية مبتعديْن ثم تقاربْنا وفاجأَتنا اللذة ونحن نلعب بأصابع بعضنا، كان واضحا أن كِلانا قد امتلأ بالرغبة الصريحة. تبادلنا قبلاً صغيرة في البداية وكانت تهرُبُ من البَوْسِ حين ترى اشتعالي. رأيتُها متردّدة بين شهوتها وخوفها، وأحسسْتُ الصراع بداخلها واضحا.ثم تلاحمنا طويلا فلم نتمالك بعد ذلك نفسيْنا وانغمسْنا في مسار راعيتُ فيه وضعها. قالت وهي تحذفُ الحواجز وتكشفُ عن دُررٍ لها معانٍ، تُخالجها رَجفة الشوق واللّهفة، كأنّما لم أعرفها من قبل، ما معناه إنها لا تريد للمسار

أن يُفضي بنا إلى انحدار أركب فيه صهوة النهار كاملة. لكنها لم تُعبّر عن ذلك بكلمة واضحة، بل رَفَعَتْ أصبعها وخفضتْ عينيها ونطقتْ كلمة واحدة محذّرة خَجلة:

- ولكن....؟

فقط تلك الـ(ولكن). وتذكّرت ذلك الأصبع وتلك الولاكن التي كنتُ أسمعها كل مساء في سلا حيث كنا نلتقي.فهمتُ ما ترمي إليه. أومأتُ برأسي أن نعم، (لقد فهمتُ).ثم انتهى كل شيء في لحظات قليلة كما لم أتوقّع وكما لم تتوقّع على الأرجح. وبَكَتْ.لا أدري لِمَ. لكنّها بكَتْ. حينها لم أطمْئِنها كما ينبغي، بل بقيتُ مشدوها بعد الانطفاء، مثل طفل وَجَدَ نفسه فجأة في زحمة، لا يعرف ما يفعل.

بعد ذلك، أثناء خصوماتنا التي تشطر العلاقة وتُربكها، في علاقتي مع أخريات، عابرات أغذّي بهن عزلة انتظار رجوعها، سيكون عليّ أن أدّعي المواساة بعد أن يدّعين بدورهن الحزن. (لابدّ لكلّ لذة من ندم يعقبها كمّا قدّرتُ دائما)، وذاك ما يكون في اللقاء الأول ثم نتدرّب بعد ذلك على المتعة الخالصة، وحتى ونحن لا نستطع كبح جماح الذنب، فإنّنا نتمكنّ من ركنه في منطقة معتمة من الروح لا نهيّجها.. حدث الأمر أيضا على الكرسي الطويل في المطبخ، وهناك كان الاستسلام طوعيا يغذيه انكشاف السرّ وحضور الرغبة والذكرى العاطرة..

ثم ها إني في الصّالة. غارقٌ في تأملاتي التي طالتْ وأنا أنتظر أن تُغلق الباب وتعود. لكنها تأخرتْ. الصرير لم يتوقف، حتى انتبهتُ إلى وحدتي وإلى لازمة الباب الذي خلق دوائر الزمن حولي.

بدتْ وحدة ثقيلة فائضة مُريبة مثل هدوء سيليه أمر عاصف..

مرّ ربع ساعة تقريبا. لم أشأ إزعاجها بالنداء ظنا مني أنها كانت تقضي حاجة ما أو ترغب في الخلوّ إلى نفسها قليلا. (شيء ما شاعريّ

فـي روحهـا لا تُفصـح عنه.أحيانـا تخلو إلى نفسـها فـي المرحاض ولا تتكلم. وحين أستفسِرُها عن الأمر تتهرّب من الإجابة وتقول إنها لحظة لا حقّ لأحد في مشاطرتها)..لكنّ وقتا طويلا مرّ ولم تعد.. حين قرّرتُ أن أناديها أو أقوم لأبحثَ عنها، رأيتُها تعود فجأة إلى الصالة، وقبل أن أبادرها بالكلام، ارتدتْ ملابسهاَ ولمْلَمتْ أشياءها على عجل وخرجت مُسـرعة، دون وداع، مثـل مـن يفـرّ من وحش كاسـر يتعقّبه.كان وجهها متورّدا وعيناها متّسعتين كمن صادفَ الموت..

لم أفهم أي شيء. وتساءلتُ للحظة إن كان ما تفعله مجرد مزاح؛ فقـد اعتَدْنـا النيـلَ مـن بعضنـا أحيانا ونحن ندّعي الغضـب أو الحزن أو الغيرة، كنّا نختبر المشاعر المزيّفة لكي نعطي نكهة لعلاقة أصبحت تتقادم مع مرور الأيام. قلت لنفسـي: سـتعود بعد قليل ضاحكة. لكنها لم تعدْ. خرجتْ لتغيبَ عني مخلّفة سكونا واضحا غطّاني. بقيتُ قليلا من الوقت ثم نهضتُ من مكاني. مضيتُ إلى المطبخ الذي تعّم في أرجائه فوضى مُزعجـة لكننـي اعتدتُهـا: أوان وصُحون ومياه قديمة في الحوض. تجّولَ بصـري فـي الأنحـاء بحثا عن جواب لأسـئلتي، وقبل أن تطول دهشـتي وأعوم في التسـاؤلات، فوجئتُ بمشـهد غير متوقع: فعلى أرض المطبخ كانت أوراقي التي أحرصُ كثيرا على وضعها في مكان آمن، متناثرة في كل مـكان. كنـت أعـدّ على الأرجح قبل حضورها شـيئا لآكله، وحملتُ أوراقي إلى المطبخ لأراجعَ فقرة ثم نسيتُ الأوراق هناك. كانت متناثرة بشكل عشوائي.حينها خمّنتُ سبب خروجها بتلك السرعة..

لملمتُ الأوراق وأعدتُها إلى مكانها.ثم لبرهة، بقيتُ ممسكا بآخر حزمـة مـن الأوراق، قبـل أن انتبـهَ إلى ما كنت أُشَـكّلُه بالذات في تلك اللحظة، وهو ما كنته على الدوام في هذه المدينة وفي زحمة الحياة التي عذّبَتني: رجل عار ووحيد، يمسك بحزمة أوراق في مطبخ..

(2)

حين أكون في مطبخ منزلي، مستريحا على الكرسي الذي اخترتُ بعناية لتأملاتي ونجواي، أتذكّر البحر.أحيانا يأتي على شكل حلم متموّج كشعر سهام فأداعبه وأنام على رائحته وأصلُ إلى ذروة النشوة، وأحيانا يكون صوتا أو نغما بعيدا يختلط بأحلام يقظتي مع موسيقى أسمعها في الراديو فلا أفهم إذا كان صوت البحر موسيقى أم رسالة. غير أنّه غالبا ما يأتي هائجا مترنّحا مثل فيل سكران، فلا أستطيع تذكّره دون أن تجتاحَ سمعي أمواجه وهي تلطم مركبا صغيرا بغضب، ثم صرخات الكثير من الموتى الذين رأيتهم بعينيّ وهم يعبرون بعيدا عن الدنيا الفانية، وقتها أبحثُ عن ريقي فلا يُسعفني فأختنق من الضيق والتوتر وأستيقظ فزعا من النوم..

في هذه المدينة الصغيرة التي احتضنَتْني بعد اليأسِ، حاولت أن أعقد صفقة مع البحر، أن أبدّل الكره بالحبّ لكنني فشلت وارتبَكَتْ مشاعري...

حين رأيتُ البحر، يوم وصلتُ، وتسرّبَ هواءه الصافي إلى رئتيّ، غصّ حلقي بالدموع.

كان يقيني واضحا بأنّ الطرق غير سالكة.أنني انتهيتُ قبل أن أبدأ..

شيء ما ظلّ يضغط على قلبي لوقت طويل.الإحساس باليأس غطى روحي ودبّ إلى الأطراف ليملكَ الزمام. ومع أول دفقة هواء نظيفة عبرت جوفي تنهّدتُ بعمق واسترسلتُ في بكاء غزير..

أفْضَتْ بيّ الطرق التي اعتقدتُها لا تُفضي، إلى هذه المدينة البحرية الصغيرة، بعد أن أمضيتُ شهورا بين الرباط والدار البيضاء، ووقتا أطول

خارج البلد هاربا من مصيري، متنقّلا بين مهن حقيرة...

بـدتْ رحلتـي بيـن الأمكنـة مثـل عُمر طويل شـاختْ فيـه روحي وتراكم على جدرانها الغبار حتّى اختنَقتْ شرايين الأمل أو ترهّلتْ..

في اليوم الأول لوصولي إلى مدينة البحر والأحياء الرطبة القديمة والآثار الغابرة، كان الوقت مساءً، والمدينة مغطاة بضبابٍ خفيف ما لبث أن تقوّى. نزلْتُ بمحطة الحافلات القديمة الغارقة في الشحم والزيوت وصـراخ "الكُورتِيّـة"، الذيـن يُحاولون جرّ المسـافرين عُنوة للركوب في حافـلات مُهترئـة لا تلبـث أن تنطلق فـي اتجاه قرى مجهولة، لا تعترف بهـا خرائـط الدولـة وتلفَزتُها..بدوتُ مثل جندي متأخّر عن الكتيبة، جاء يبحث عن فرقته، مشتّت الذهن دون نصير..

لم يكن ما وصلْتُ إليه مدينة مثل مدن المغرب الكبرى التي تطحنُ الكائن وتصيّره مثل إسفنج رخو، عديم الجدوى. كان أمام بصرِي مكانٌ بيـن البلـدة والمدينـة القديمـة؛ مبـان تَقف على جنبات الشـارع لا تزال تحكي أمجاد أقوام سابقة، وشوارع هادئة تبعث على السكينة، وبشر لا يَسـتعجل خطاه. وسأكتشِـف، في ما تلا ذلك من أيام، أن أجملَ شـتاء أقضيه، هو شـتاء مدينة صغيرة خاوية باردة مثل هذه، يغطيها الضباب، وتبعـث الشـجن والذكـرى في النفـس. لقد كرهتُ المـدن الكبرى التي قزّمَتْنـي وأربكـتْ روحي، كما أنني لن أسـتطيع العـودة للعيش في قرية نائية أعلى الجبل يقتلني الضجر فيها وتكثر فيها أسئلة الأهل والقرية عن عملي وأسـباب بطالتي، وكيف درسـتُ كلّ هذه السـنوات لأعود خائبا. كنـتُ أفضّـل أن يبكيني الأهل كشـاب ابتلعـه البحر على أن أعود إليهم بخيبتـي! لذلـك كانـت تلك المدينة الصغيـرة أجملَ ما حصل لي، على الرغم من كل ما قد يحدث بعد ذلك.

سـرتُ على قدميّ على غير هدى. عَبَرْتُ الشـارع دون أن ألتفتَ

إلـى سـيارات الأجـرة الصغيرة.غمـرَ وجهـي هـواء مُنعش بارد لا يُشـبه هـواء الـدار البيضاء السّـيئ المتّسـخ الذي يجعل ملابـس الناس تلتصِقُ بجلودهم. تمشّيتُ عبر الشارع الطويل متأمّلا الأبنية القديمة التي شيّدها مسـتعمر غابر لم تعد له من ذكرى سـوى ملامحَ تظهر بجلاء في عيون فتيات المدينة، اللواتي يفاجئ الرائي منظرهن ولا يتأكّد من البلد إلا بعد الحديث..تمشّيتُ حتى وصلتُ إلى مسرح تبدو بنايته العتيقة مثل زعيم صغيـر يتربّـع علـى عرش المدينة ويقطع أبنيّتها عند المنتصف.سـأعرفُ فـي مـا بعـد، أثناء نقاشـي مع عثمـان، زميلي في الجريدة التي سـأعمل محـرّرا لبعـض صفحاتها، أن المسـرح الذي بُنـيّ منذ زمن بعيد، أصبح الآن عرضة للإهمال والنسـيان، وعروضه المسـرحية لم تعد تُغري.قال لي عثمان إنّ الناس انصرفوا إلى لقمة العيش ونصب المكائد لبعضهم فلم تعد الفنون تسكنهم كما في الزمن البعيد، وإنّ الأصوات التي كانت تصدح حتى يصل صداها إلى الشارع خفتت وتحوّلتْ إلى مجرد ذكرى. ثم شرح مثل حكيم بأنّ المسرح يطهّر النفوس لأنه يعطي الناس فرصة للانتقام من بعضهم فنيا، وحين يضعف المسـرح، تخرج كلّ الأمراض والنوايـا الحـادة إلى الشـارع وتبتلـع الناس. قطعتُ الشـارع باتجاه آخر مقابل للبناية، وسـرعان ما اندمجتُ وسـط موج – فاجأني- من الباعة والروائح والألوان..

اكتريـتُ منـزلا صغيرا بالحيّ القديـم. دروب ملتوية وأزقّة صغيرة تملأهـا روائـح الرطوبـة وخطـوط وتشـقّقات مثـل لوحات نـادرة. بعد التمشّـي قليلا وسـط باعة على اليسـار، دخلتُ زقاقا ضيقا تصطف على جنباتـه محـلات الخياطـة ومرممـو الأثـاث البالي بعصيّهم التي تحشـو المخـدّات والأفرشـة صوفا وقطنا. وضعتُ الحقيبـة وخرَجتُ. تجوّلتُ قليـلا فـي شـوارع مليئـة بالباعة المتجوّلين وأحسسـتُ ببعض ألفة حين

داعبتْ أذني صيحاتهم وهم يُنادون على البضائع الرخيصة ويُغْرون المارة بالشراء، وحين نزلتِ الظلمة على الأبنية والتحمتْ بالضّباب، غاب الناس والباعة. المشهد تبعثر كلّه مثل اللقطة الأخيرة من فيلم انتهى فجأة، وبقيتُ وحدي وسط الساحة الخاوية فبدأ الحزن القديم يراودني. أحسستُ بالوحدة رغم صِغَر المدينة. دخلتُ إلى بار على ناصية الشارع وسَكَرتُ (سكرتُ حتى أصبحتُ مثل كلب: هكذا وصفتُ الأمر لعثمان في ما بعد).ثم اتجهتُ إلى البحر لأبكي. البار صغير، يكتظّ بالناس كل مساء، وتبدو للمارة عبر الشارع قناني البيرة بين أيدي الزبائن وهم يتحدثون بصوت صاخب، يقفُ أمام بابه بائع فولِ يُبالغُ في صبّ البهارات والملح.اغترفتُ من الفول والحمّص ودخلتُ. شربتُ الكثير من قناني البيرة وغامَ بصري لفترة في صخب السكارى وصراخهم وشكاواهم من العمل والأولاد ومحنة الوجود، ثم اتجهتُ نحو البحر. حين وصلتُ، انخرطتُ في بكاء غزير، مثل يتيم في جنازة..

لماذا بكيتُ ذلك اليوم؟

لماذا كنتُ أنشجُ بالبكاء الحاد الحارق كما لو كنتُ في جنازة مُقدّسة؟

أَلِأنَّ قلبي الذي كَابَرَ طويلا وصَبر طويلا، أدماهُ التشرّد ويستحقّ القليل من الانطلاق؟

ألأَنّ الحياة بدتْ لي صعبة ولا تطاق ؟

لأنني لم أستطع أن أحبّ البحر الذي أمامي رغم جماله ولم أستطع أن أتمتّع بمنظره؟

لأنّني أحسستُ بالأمان قليلا فهاجت العواطف؟

كلّها احتمالات طرحتُها بيني وبين نفسي بعد ذلك خلال أيام وشهور وأنا أتأمّل حياتي، داخل شقّة صغيرة، اكتريتُها من رجل قصير؛

هرم؛مُرتبِك الملامح؛ لا يسمَع، أو على الأرجح يتظاهر بالصّمم، في الحيّ القديم لهذه المدينة الصغيرة، حين تأتّى لي أن أستقرّ. حياة سأكتُبها بهمة ودأب مثل من يكتب أسفارا مقدّسة ستغيّر العوالم، وأراجعُها بنفس الهمة، أنقّحها وأعيد قبل أن تكتشف سهام تفاصيلها الداعرة وتغادر مكاني..

لا شكّ أن علاقتي بالبحر قد انكسرت وحلّ محلّها نفور، شيء ما تهشّم بيني وبين هذا الكائن الجميل العاصف، وفي غمرة السُّكر كنتُ أُتعتعُ وأصيح وأصرخُ لاعنا كمن يواجه عدوّا غيّر مجرى حياتي..كنتُ عاطفيا جدا في ذلك المساء، وكانت القنينة قد فعلتْ بيّ الأفعال..

أمام البحر، وفي لحظة واحدة مشهودة، مثل من سيُقبلُ على الموت، مرّ أمامي شريط حياتي غامقا مثل نيجَاتِيف فيلم محروق؛ تظهر أمام الرائي الصور حين يرفعُه ليعبر الضوء إلى تفاصيله فلا يرى سوى مشاهد مشوّهة تعاند كي تحيى. نبذلُ مجهودا كي نراها لكن دون جدوى لأنها التُقِطَتْ بشكل سيء مرتجل.

صوّر حياتي، كما قدّرتُ ورأيتُ، التُقطتْ بشكل يدعو للرثاء والسخرية..

تذكّرتُ أيامي البائسة الكثيرة، والتجربة التي فعَلتْ فِعْلَها في روحي.التشرّد الذي جعلني مُختلفا وعمّقَ جروح داخلي. "الشّعِيبِية" المرأة الناضجة الممتلئة الطّيّبة التي شممتُ زهورها لوقت في الدار البيضاء. تذكّرتُ ابن عمّها سَمْسَار البشر الذي سَاعدني على الوصول إلى أوروبا، المركب الصغير العامر بالبشر الذي حملني لأحاول ربح حياتي والكثير من الوجوه الشابّة وهي تعبُرُ إلى مصيرها ومنفاها السرمدي، حيث ستظلّ معذّبة في فراغ سحيق بين السماء والأرض حتى يأتي من يحرّرها ويسألها بأيّ ذنب قُتِلتْ. رَاوَدَ مخيّلتي كل ذلك، كما

لو كنتُ في حلم تتبدّلُ الصوّر والسّحنات فيه بشكل سريع وعجيب، مخلُوطا بالصراخ وبعصيّ ستظلّ لوقت تُلاحقني في نومي، بعد أن أصابت رأسي عصا غليظة زعزعتْ قناعاتي.و بين الصوّر المختلطة المتشابكة ظلّ يظهر ويختفي أمام عيْنَيّ طيفُ امرأة أحببتها وتركتُها تهربُ دون مجهود..

كان ذهني سلّة من الصور المختلطة الألوان..

صورة البحر وأمواجه والغرقى الذين يتخبّطون وسط الموج..

ساحة البريد التي تتوسط مدينة الرباط حيث يعتصم المعطلون مطالبين بالشّغل..

وطيف امرأة أحببتُها اسمها سهام..

انفتح خزّان الذاكرة مثل شلاّل هادر فانهمر على روحي دون مجهود..

رأيتُ صورة الفتاة التي كانت رفيقتي في الرباط، أمام عينيّ، وهيّ تبتعد عني في محطة القطار بالدار البيضاء- بعد أن تعبنا من محاولة العيش- لتُسافر إلى مدينة أخرى، لتربَح حياتها، بعد أن ملّت حياتنا المشتركة.كما قالت، بالفرنسية:

- je veux gagner ma vie..

- وهل من خسر حياته بين الدار البيضاء والرباط وسط كل هذا الكم من البشر سيربحها في مكان آخر يا سهام؟

لكنها لم تُجِبْ. في ذلك اليوم، كانت جميلة أكثر مما أحتاج لحظة الفراق، حرصتْ على أناقة تسريحتها ورعة عطرها كي تعذّبني. نظرتْ إليّ طويلا دون كلام واكتفتْ بتقبيلي أمام فضول ركّاب محطة "كزا فْوَايّاجُورْ" المنتشرين في كلّ مكان، ثم سيقلّها القطار بعد قليل إلى مدينة بعيدة لم تشأ إخباري بها، لتربح حياتها. قبّلتْني لتمنعني من

النقاش، كعادتها حين تُريد إنهاء الكلام لأنه لا يُجْدي، كأنما تقول:

- كفى.لا مجال لِنَكء الجراح من جديد..

كانـت القبلـةُ كافية لأصْمُت. لأكون ديمقراطيا وأقبَلَ برأيها..بقيْتُ للحظات مشـدوها وأنا أراها تودّعني، ثم تركب القطار، الذي سـينطلق ويَـدور دَورتـه المعتـادة ويختفي، تاركا زعيقه في أذن كل الناس. وقفْتُ لفتـرة مترقّبـا شـيئا مـا لا أُدركُه، مثل شـخص مُسِـحَتْ ذاكرتـه تماما أو توقّـف دماغـه عـن العمـل، ثـم عدْتُ إلى رُشـدي. خرجـتُ متعثرا إلى الشـارع..بعد أيـام أخـرى في الدار البيضاء، وبعـد أن تنقّلتُ بين أعمال تافهة وحقارات كثيرة عذّبتني وأعادت روحي إلى الحضيض، لم أستطع أن أصبِرَ على المدينة الكبيرة وجحيمها الذي اكتشـفتُ نفسـي فيه مثل طفل برئ فهربتُ!

هربتُ في البداية إلى حلّ سـهل، وعشـتُ تجربة قصيرة مع امرأة تكبرني اسمها "الشعيبيّة"، اختارتني بدل أن أختارها.هربتُ إليها لأنسى وكانـت صُدفـة. وحيـن لم أسـتطع أن أتصالح مـع واقع لا رغبة له بي، ركبتُ القطار باتجاه مدينة طنجة لأركبَ بعد ذلك مركبا صغيرا مقامرا بحياتي راغبا في الوصول إلى أوروبا. لأربح حياتي كذلك، أو لأخسرها. ما الفرق؟

كنـتُ مدفوعـا برغبـة الهروب وإلقاء كلّ شـيء ورائي مثل من يفرّ من وحوش غادرة تتبّع خطواته..

بَـدَت الشـهور التـي أمضيـتُ بين الدار البيضـاء والرباط مثل عمر حقيقي، وبدا أن علاقتي بسهام التي غابتْ، أجْمَلَ ما فيها. وما عدا ذلك كلّـه خـراب. أمـا الوقت الـذي أمضيتُ في أوروبا بعد هجرتي، مشـرّدا باحثـا عـن عمـل، قبـل أن يقبض عليّ البوليـس وأودعَ أقرب ملجأ ليتمّ بعدها شـحني مثل بضاعة فاسـدة، فبدا لي مثل حياة لا تنتمي إلي، ولا

تعنيني. كأنما كنتُ شجرة وغدوتُ إنسانا. مثل أرض محروثة قُلِبَتْ تُرْبتها أو مدينة ضربها زلزال وأُعيد بناؤها، كأنما كنتُ في غيبوبة وصحوتُ..

تذكّرتُ وأنا أتخرّصُ بالدموع أمام بحر المدينة الصغيرة أوهامي وأحلامي بالعيش الكريم والحبّ الذي يكسر الحواجز والآلام. تذكّرتُ بداية الألفية الجديدة، التي فتَح جيلي، بأكمله، عينه عليها.كيف كان الرباط حلُما جميلا يراود الطلبة القادمين من الأقاصي البعيدة. وكنتُ واحدا منهم.

حين جئتُ إليها في تلك الأيام التي أتذكّرها الآن مثل حياة سابقة، ألقيتُ بكل ثقلي وأملي على سبيل واحد. وضعتُ كلّ بيضي في سلّة واحدة. مشْبعا بالأمل قطعتُ المسافة من مراكش. عند وصولي كان الصباح مُشمسا في العاصمة. الطريق طويلة بين المدينتين، وبين يديّ ملف كبير. مزهوا بشهادة حصلتُ عليها قبل شهور قليلة، نزلتُ من الحافلة بمحطة "القامرة"، ركبتُ الأتوبيس واتجهتُ إلى الحي الإداري..

في الطريق إلى الحيّ الإداري كانت المشاعر مرتبكة..

خلال سنوات الجامعة، كُنتُ أدرُسُ بهمة وأنقّبُ متتبّعا تفاصيل الدروس..و حين وضعتُ أقدامي على أرض الرباط، تطلّعتُ إلى سماع كلمات مديح من أناس يقدّرون ما جنيتُ من معارف. شابّ من مدن الضواحي في اتجاه العاصمة، يحرّكه أمل لا ينطفئ. تخيّلتُ السيناريو في الحافلة لمرات عديدة: أقف أمام مؤسسة كبيرة، بجدران جميلة وبوابات زجاجية، وقبل أن أتكلّم، يتعرف الجميع عليّ ويطلبُ مسؤول رفيع- في المؤسسة التي سمعتُ عنها كثيرا - مقابلتي. سيدعوني إلى مكتبه الجميل ويعرض عليّ عملا ملائما.خصوصا مع هذا التخصص الجديد، الذي كانت الجامعة قد فتحتْ بابه في مراكش، حيثُ درستُ،

بعـد شـراكة مـع جامعـة أجنبية مع بداية الألفية الجديـدة.. فكّرت بأنني مختلف، وشهادتي كذلك.لقد درسْنا ظواهر خاصة بالمجتمع المغربي، وتطوّره الفريد وخصوصياته، وسيكون ما أعرفه مفيدا في تفسير كل هذه التحوّلات التي يعرفها البلد خصوصا بعد أن جرّب البلد خلال السنوات الأخيرة دخول تجربة جديدة في مجال السياسـة والحرية والديمقراطية والحقـوق. لـن أعمـل إذن، سـوى فـي مؤسسـة مركزيـة بالربـاط، فهي سـتحتاجني لأفيدها في التواصل والانفتاح وتفسـير ما يحدث بالبلد من تغيـرات، ولأنقـل من هنـاك تجربتي باتجاه الأقاصي التي تتغيّر باطراد.. كان تخصّصي مِهنيا وفريدا، مفيدا حسب ما دُبّج في الأوراق؛ خليط من علـم الاجتمـاع وعلـم النفس والتواصل واللغة. وكانت مهمتي تاريخية: تغييـر العالـم والعقليـات التـي سـتكنُسُ كل تخلّـف مثلمـا نكنس الماء الوسـخ باتجـاه البالوعـات وننسـاه. مرّ على البلد وقـت كاد فيه يتوقّف عن السّير، وهو الآن يعرف نهضة جديدة، وهي الفرصة المواتية؛ جميعنا اطمأنّ إلى أن بداية الألفية الجديدة سـتكون بداية مشـرقة.وخلال فترة طويلة، بدأنا نرى الوجوه المبشّـرة في التلفاز، تعد بأفق جديد وتحكي عن ماض ينبغي أن ننساه..

ثم ها إني أمام المؤسسـة الموعودة متأبّطا ملفي وقلبي يدق مثل محرّك ضخم..

وقفتُ في شمس الرباط طويلا قبل أن يستقبلني موظّف صغير؛ بدا ذلك من شكل مكتبه الذي توجد فوقه أوراق كثيرة غير مرتّبة.عرفتُ في ما بعد، أنّ مهمّته تصدير غير المرغوب فيهم إلى وجهة لا ماء فيها. قال لي سنتّصل بك، ثم أنهى اللقاء بعد أن تسلّم الملف الذي كنتُ أعانق مثل أمّ تحضن رضيعها. حيّى الموظّف فيّ روح الابتكار، وفي شـباب الوطن روحَ المسؤولية وحُبّ البلد وأشياء كثيرة لم أسمعها جيّدا. قال

إن الشهادات التقليدية لا معنى لها..

- علينا أن نعلّم الشباب التوجّه نحو تخصصات جديدة تُلائم السوق وما يعرفه البلد من تحوّلات..

ثم وقف يُسلّم علي بحركة مسرحية إيذانا بنهاية اللقاء. كانت يده تدفعني إلى الخارج أكثر ممّا تُسلّم. حين خرجت من مكتبه، رأيتُ عينيه تلمعان بشكل غريب غير مفهوم، رأيتهُ فرِحا وهو يُنجِزُ مهمته. (هل رأيتُ ابتسامته أم خُيّل إلي؟) بدا لي واحدا من أبناء هذه الدنيا الفانية الذين يَهْنَؤُونَ بتنفيذ مهام تقتل كل ابتكار.لعلّه يستصغرني، ويقول لنفسه إن التجربة أهم من كل شيء وأنّ الشهادة لا وزن لها لأنها مجرد ورقة، وأن هؤلاء الشباب طمّاعون ويريدون حرق المراحل..

رغم ذلك، رغم الشكّ الذي راودني، أمضيتُ بعض الوقت أتردّد على المؤسسة بغباء عجيب اكتشفتُه في نفسه وسمّيتُه إصرارا. حتى ملّ "موظّف التّصدير" مني ولم يعدْ إلى لقائي. كان يتوارى في المرحاض حين يراني أو يعبُر ردهة المؤسسة سريعا دون أن يلتفت ويختفي وراء شجيرات صغيرة فيظهر سرواله الأخضر المتكرّش بين الأغصان. وبتُّ في نوبات الخيال التي تنتابني أراه يختبئ مثل طفل يلعب الغمّيضة ويطلّ عليّ خفيفا ويضحك مستمتعا باللعبة. ثم أصبح رجال الحراسة أكثر عدوانية معي. يتظاهرون بأنني غير موجود فيقفون حاجزا بيني وبين المدخل. يظلّون في حديثهم دون أن يلتفتوا لي، مولّين ظهورهم أو رافعين رؤوسهم كمن ينظر إلى أبعد.مرّة كانوا يقفون في مواجهتي وحاولت الدخول فصدّني أحدهم وهو يرفع رأسه إلى أعلى وقال كلمة واحدة:

_ التعليمات..!

ثم استدار كأنني غير موجود.حاولتُ أن أستفسِرَ منه مغزى الكلمة،

وإذا كان يقصدني ؟ لكن الحارس استرسل في حديث ودّي مع فتاة خارجة من المؤسسة، تضع عطرا قويا. ظلّ يخاطبها بـ"المَادْمُوزِيلْ" وهو يبتسم، ثم اتّجه نحو كرسي قريب ووضع رجله أمام المدخل في ما يشبه التهديد..

حين يئستُ من هذه الزيارات التي بدا أن لا طائل منها، اتجهتُ إلى الساحة المقابلة للبرلمان...

كانت صورة الساحة المقابلة للبرلمان مفاجئة وعسيرة حين جئتُ إلى الرباط أولّ مرة..

صورة هربتُ منها خلال الأيام الأولى، ومررتُ بمحاذاتها، مدعيّا أنني مختلف، ثم اكتشفتُ نفسي داخل الإطار.

أمام قُبّة البرلمان، كنتُ أرى المعطلين يركضون هرباً من عصيّ قوات الأمن، وأنا أمرّ صاعدا باتجاه المؤسسة التي تردّدتُ عليها ببلاهة. كنتُ أقول لنفسي خلال تلك الأيام إنني مُختلف عنهم، فشهادتي جيّدة، وشهاداتهم تقليدية لم يعد البلد في حاجة إليها.البلد في حاجة إلى المعرفة المختلفة. ظلّ هذا التّعالي يمنحني بعض الأمل، لكن التّعالي انتهى، والحقيقة أصبحتْ بانتظاري.فحينَ مللتُ الانتظار، وقفتُ أمام ذلك الكمّ الكبير من الناس، تردّدتُ لبرهة ثم تشجّعتُ وقرّرتُ خوض التجربة. وقبل أن أتقدّم لأعرّف عن نفسي دفَعني موج بشري لم أستطع ردّه.وجدتُ نفسي أمام معطّل يضع على جبهته شريطا أحمر ويرتدي سُترة ضيقة تكاد تتمزّق حين يتحرك.كان يهتف بالشعارات رافعا يديه وهو يتسلّمُ مني ورقة خططتُ فيها اسمي ونوع شهادتي دون أن أعلّق، (عملٌ روتيني بالنسبة له أيضا).سجّلتُ نفسي وغادرتُ الساحة لأرتاح من عناء يوم طويل من الانتظار.كنتُ متردّدا، ولم أعرف إذا كان انضمامي عن قناعة، أم كان مجرّد هروب من يأس يُطبق بهمة على

روحي..كان هروبا جديدا؟

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفتُ بأن المعطلين شيّعا وقبائلَ قليلا ما يعترفون ببعضهم. يكثر بينهم الخصام والاتهام وتظهر أعطابهم حين يتقاربون. لمّا يحين موعد حوار قد يُفضي إلى عمل، تبدأ الاتهامات والنقاش الذي لا ينتهي..كان حظّي أن أنظمّ إلى مجموعة تسمّي نفسها مجموعة "الحقيقة والسراب"، وتطلبُ إلى جانب الشّغل كشفَ الحقيقة في ملفات تشغيل سابقة تورّط فيها شخص له وزن كبير في البلد. وقد عرفتُ في ما بعد، بأن المسؤولين لدى دعوتهم كل الجماعات للحوار، يستثنون تلك المجموعة، عقابا لأصحابها على تهوّرهم وعلى طرح الأسئلة التي لا تُجدي. كان حظي سيئا منذ البداية.

تعجّبتُ لهذا الاسم الغريب الذي اختارته الجماعة، لكن غرائب أخرى كثيرة رأيتُها في ما بعد، وأنا أعبُر إلى هذه المنطقة من العالم، جعلتْني أندمجُ في الإيقاع وأتوقّع أي شيء..

أمضيتُ أياما قبل أن أتكيّف. وفي الأيام الأولى لانضمامي لمجموعة "الحقيقة والسراب" كان يراودني حلم غريب.. أجدُ نفسي مضطجعا مغطىً بلحاف، وذبابة تطنّ حول رأسي تمنع عني النّوم، ثم أَنْتَبِهُ إلى وضعي بين الصحو والنوم، وأقول إنني أحلم.. أذَكّر نفسي بذلك كي تمضي الذبابة إلى حالها، أقول كابوس وأحاول تفسير الأمر، لكن الذبابة تظلّ تحوم حولي. أهُشّها فلا تهرُب بل يتّخذ وجهها وجه الموظّف، صاحب السروال المتكرّش، الذي سخر مني في المؤسسة المركزية وتجاوزني في الردهة دون أن يعبأ..كانت ربّما طريقتي الخاصة في الانتقام، في خيالي على الأقل.ربّما لأنني لم استطع أن أحتج، اتخذ خيالي هذا الطريق سَبَباً..

سَكَنْتُ حيّا من أحياء مدينة سلا، لأكون قريبا من قلب الرباط،

ومن برلمان الاحتجاج.اعتدتُ أن أقطع المسافة بينَ سلا والرباط عبر الحافلة. أحيانا، كنتُ أمشي وأسمعُ وأرى. أستيقظُ باكرا كي لا يفوتني الأتوبيس، أمضي النهار بأكمله أمام القبّة التي تستقبل واجهتَها كلّ يوم عشرات المحتجين؛ طلبةً ومعطّلين وعمّالاً رمى بهم أرباب العمل إلى الشارع، مناضلين قضّوا سنوات العمر في السجن يطلبون التعويض عن الظّلم وقدماء المحاربين الذين واجهوا العدوّ وسُجنوا في معتقلاته وحين عادوا إلى الوطن وُوجهوا بالنكران والمعاش القليل. كنتُ أعيش الإيقاع مع العاطلين وفي الليل أعود إلى سلا حاملا فوق جسدي رأسا يَمُورُ بالصور والهتافات..

سلا بنيان كبير من الطوب والحجارة والناس. خليط متشابك من البشر والمساكن والأحداث، ومكان فريد للاختباء. كانت سلا مدينة صغيرة تطلّ على نهر أبي رقراق، لها تاريخ عريق في جمال البناء وعلاقات الناس وتقاليدهم، ثم تورّمتْ بفعل الأحياء الكثيرة التي نمتْ في غفلة من العالم بعد هجرات طالتْها من القرى المحاذية والبعيدة. لعلّها الرغبة في الاقتراب من المركز التي راودت الكثير من أبناء القرى والفيافي. ولأنهم ضعاف الحال، شيّدوا مساكن صغيرة لم تلبث أن تحوّلت إلى أحياء شعبية، واكتفوا من الرباط المستعصية برائحتها القريبة وزيارة بين الفينة والأخرى ثم لا تلبث الأيام أن تمضي بهم إلى ما لا يشتهون.. كان عليّ أن أختار حيّا من أحيائها الشعبية، رفقة بعض الأصدقاء الذين اتفقتُ معهم على عجل بعد معركة حامية فرّوا خلالها واختبؤوا في حديقة مهجورة. معطّلون جددٌ مثلي ينتمون إلى مجموعات مختلفة، فَرَرْنا في اتجاه واحد كمن تَواطَأ.. اكترينا جميعا غرفة بعد أن تخلّصتُ من غرفة الفندق المكلِّفة التي حصلتُ عليها وأنا أمنّي النفس بعمل مريح، ثم تأهّبنا للنضال في انتظار ما قد يأتي..

في بيتٍ صغير، مع جماعة من الشبان من مدن مختلفة، وكان لابد أن أأنسَ لثلاثة شبان منهم فقط، لم أخْتَرهم من ضمن الجماعة الكثيرة، كلّ واحد منهم جاء من قرية بعيدة أو مدينة على هامش يصعُب لفظ اسمه. في معمعة الحياة، اكتشفَ الأصدقاء فجأة بأنهم مختلفون، لذلك كان يحمى وطيس النقاش أمامي وكنتُ أُتَابعهم في صمتِ المتأمل..

كانت لديّ صورة جاهزة كأنّما حنّطتُها وحملتُها برفق من الجامعة إلى الشارع، وكان لابد أن يُعاد تركيبها لأني أحتاجها: حسن ورشيد ينتميان لجماعة إسلامية، تمرّسا في مدرسة الروح، لم تُعيِهما البطالة لأنّ التفاف الجماعة سهّلَ المسار وخلق لهما فسحة. الجماعة التي ينتميان إليها محظورة، تريد أن تغيّر وتبني دولة الإسلام، تعاقِبُ الدولة أفرادها حين يُبالغون في تحدي القرارات، فيجتمعون في البيوت وأحيانا يتخذون الشواطئ ملجأ للاجتماع خصوصا في الصيف، بعد أن أُغلِقَتِ المقرات في وجوههم وشُمّعت البيوت، أجهزة الدولة تمنعُ اجتماع البيوت كذلك فتحدثُ الصدامات.ينشط أفرادها في الجامعة أكثر من أي مكان محتمين بالأسوار.لكن الأسوار لا تحمي دائما فيظلّون في شد وجدب لا ينتهي..

حين نخرج إلى الحديقة لنجول ونتكلم، أرى كيف يحلُم حسن ورشيد بيوم يُصبحُ فيه قائد الجماعة سيّد العالم، يَقْبَلانِ كلّ أمر عدا انتقاده، وينتبهان إلى ما يقول في كلّ مناسبة ويحفظان أقواله.أما عاطف صديقي الثالث وسط الجماعة، فينتمي إلى تيارِ يساري، يتبنى تغيير البلد وخلق عالم جديد. نبّهني حسن – وكان يستدرجني للنقاش – مرة إلى أن رفاق عاطف يتفرقون شيّعا ولا يعود لهم تأثير إلا في ما نذر ما إن يَخْرُجوا من الجامعة.. يحلم كلّ يوم بحزب ثوري يساوي بين الناس، ويقول بأن التغيير على الأبواب.. وإن البلاد تسير إلى ثورة.

كانت الصورة جاهزة تماما، كنت كمن غادر أسـوار الجامعة إلى أسوار الحياة الأكثر علوا، وكان مفروضا عليّ أن اسمع نفس الأحاديث التي تلوكها تجمعات الطلبة..

مثل ضباب أمام البصر أرى كلّ هذا الكمّ من الصوّر..

ذكريات بعيدة هيّجتْها رائحة البحر وقنينات البيرة في هذه المدينة. تذكّرتُ، أنا عبد الحق المنصوري، الرجل الهارب دائما من قدره، حين وقفتُ أمام البحر، حياتي، بين مراكش والرباط. تذكّرتُ زملاء السـكن بسلا، وعادت إلى ذهني ذكريات الجامعة المراكشية. حين يبدأ الزملاء فـي النقـاش بعـد معـارك البرلمان، تقفز إلى ذهني صـور كثيرة متداخلة لمرحلة بدتْ وقتها مثل حلم سـريع تتوارد الصوّر فيه بغزارة وسـخاء. كمـا لـو أن التاريـخ قـرّر أن يكثّـف مـن حركته في مرحلـة بداية الألفية ويبصـم الأيـام ببصمـات لا تنمحي..فهل كانت تلك سـمة بداية الألفية الجديدة فعلا؟ أم إنني أتوهّم لكوني عشت المرحلة؟

في بداية الألفية الجديدة، في الحي الجامعي بمراكش، رأيتُ شيئا جديدا يحدث بالبلد. استمعتُ بانتباه إلى طلبة اليسار ورأيتُ اختلافهم حول حكومة يقودها زعيم الاشـتراكيين الذي تمّ اسـتدعاؤه على عجل ليشـارك فـي الحكـم. كان رفاق اليسـار يختلفون حـول الأمر، منهم من يقـول إن الواقـع لـن يتغيّـر لأن الظروف لن تُسـعفَ ولا ضمان، ومنهم من يطلب إعطاء الرجل فرصة لأنه شخص نزيه..كنتُ قد انغمستُ في حكايات الطلبة والسياسة، ولكنني ظللتُ أحفظ المسافة المطلوبة كي لا أخطئ. أسمع دعم جزء من طلبة اليسار لتجربة الزعيم الجديد، وانتقاد جـزء آخـر للتجربـة. أمـا الإسـلاميون الذين تقـوّت وتصلّبـتْ دعامتهم فانتقدوا التجربة على الدوام واعتبروا الأمر مناورة..

وفي سلا وبعد تصرّم سنوات الجامعة، رأيتُ نفس الوجوه وسمعتُ

نفس الكلام ولاحظتُ كيف يقرأ عاطف كثيرا من الكتب وينتقد التجربة التي أبانَتْ عن فشلها بعد سنوات قليلة بفعل شراهة الدولة وسعيها للحفاظ على المصالح.يتكلّم مزهوا بنبوءته لأنّ التجربة فشلت والدليل بطالتنا كما يقول والبؤس الذي يملأ أطراف البلد ضاربا المثل بسلا ونواحيها.بعض الكتب تكاد تكون مُزقا، يحفظ سجالات الستينيات ويردّدها ويردّد شعارات لم يكن يستطيع مجاراتها كل المعطلين حين نخوض أمام البرلمان معركة. ينظرون إليه باستغراب ويصيحون مطالبين بالشغل بينما يظل مصرّا على رفعها..كانوا يهتمون أكثر لشعارات العمل والتغيير الفوري، أما شريكي في السكن فيربط كل الأمور بالتغيير السياسي. قال لي مرات عديدة: صدى مناهضي العولمة يكبر باطراد، وفي أوروبا على الخصوص، لكنّ رفيقينا في السكن يصرّان دوما على أنّ الإسلام هو الحلّ لكل المشاكل..

في سلا، كان يتناقش أمامي الأصدقاء في كل ما يحدث بالوطن، ويتابعون أدق التفاصيل تماما كما لو كنّا لا نزال في الحيّ الجامعي، وأحيانا يُحضِرُ بعضهم جرائد. يقرؤون الأخبار ويعلّقون على كل ما يحدث. رأيتُ كيف يهتمّون أكثر لأخبار الميزانية ومناصب الشغل، لكن سكَنَهم إلى جانب بعضهم جعلهم يؤجّلون كل صدام أو احتكاك. كانوا يصلون أحيانا إلى الطريق المسدود فينبري أحدهم ويقترح تأجيل الحسم إلى لحظة قادمة. بدا أن خروجهم إلى الحياة الحقيقية أكْسبَهم نضجا أكبر وصبرا على الاختلاف. رغم ذلك، كانوا يتفقون جميعا على أن النضال هو الطريق الوحيد نحو الشغل وأن هذه الحكومات لا تعطي غير الوعود..

أما أنا، فكنتُ أرى نفسي مجرّد إشاعة، مجرد صدى وصورة. لم أهتمّ كثيرا للسياسة في الجامعة، وادّعيتُ أن مهمتي هي الابتعاد

والمراقبة والدراسة. كان جزء كبير مني يحتقر الانتماء، حتى وأنا أصادق الكثير من المنتمين إلى اليمين واليسار. ثم اكتشفتُ متأخرا أنْ لا مناص من الاقتراب بالقدر الكافي لفهم الأمور على الأقل، فكنتُ أَلْتَذّ بنقاشات الزملاء.وكان عاطف يكتب الشعر ويقول لنا في لحظات الصفاء محاولا الوصول إلى خلاصة:

(جرّبنا وأخطأنا فلنعدّد أخطاءنا كي لا ننسى
نحسِبُها ونتركها على الرفّ مثل الكتب.
التناوب حيلة للتنفيس..)

ثم هاهو الرباط. يدخل في الأعماق ببطء ساحر، وتتحصّن أركانه داخل الروح، فالانتظار سرعان ما يُصبح حالة استقرار. يجيئني المكان ممزوجا بالألفة التي تخلقُها الأزقة وهي تتسرّب وئيدا برطوبتها وهشاشتها القديمة التي تشبه هشاشة دواخلي. ظللتُ أسير في معمعة الاكتشاف، وبدا أن جسدي يألفُ المكان دون صعوبة. يتماهى في الانتظار بِرِضًى عجيب ينكسر أحيانا وتلتئم شظاياه من جديد لأن الروح عزيزة. كنتُ أنتظر متتبّعا كل ما يحصل وكانت حياتي تَتَصَرّم، كأنما ليست حياتي. بدا أنني بدأتُ أعرف نفسي وأعي. كنتُ في بحر، تتقاذفني أمواج كثيرة عالقا في مكان كبير هو مطبخ الحياة التي تعمّه فوضى لا قبل لي بترتيبها. حيث تتناثر حولي الأشياء كأنما أصابتْني زوبعة. وحيدا وعاريا ولا عزاء لي.كانت الطاحونة تدور وتطحنني مع الزمن. لقد اكتشفْتُ وضعي الجديد وبدأتُ أعيه: في الجامعة، كنتُ أعتبرُ نفسي مثل عالم اجتماع محايد، أو طبيب يشخّص المرض دون أن يتعاطف مع مريض، أو هكذا بدا لأنايَ المتضخّم. لكنه جسدي الآن. الآن عليّ أن أتغيّر. مُجبَرٌ الآن أنت على خوض معركتك وعلى أن تكون المريض والطبيب..قال لي عاطف..

شيّعا كنا.لا نتوحّد سوى عند الوقوف أمام البرلمان. كلّ مجموعة تُعطي لنفسِها الحق الأكيد قبل الأخرى.وما إن يبدأ حوار معنا حين تتشعّبُ المشكلة وتكبُرُ حتى ينقسم الجمعُ على نفسه من جديد وتنقسم كل مجموعة على نفسها أكثر مثل خلايا مريضة، الكل يدّعي أسبقيته إلى الساحة للظفر بأول المناصب..

أمام البرلمان مساحة عُشب أخضر، والمبنى كبير وأنيق. على العشب يجدُ المعطّلون وكلّ المظلومين فضاءً لأجسادهم؛ راياتهم منصوبة، هنا وهناك، مثل فيلم تاريخي تُصوَّرُ مشاهد منه في الهواء الطلق، اجتماعات ونقاشات عاصفة لا يكاد ينتبه إليها المارة، ورجال الأمن يقفونَ صفّا طويلا أمام البناية لمنْعنا من أي تقدّم، وحين تجيئهم أوامر الضرب يتّجهون صوب الجمع بسرعة وينهالون دون رحمة على الأجساد...كنتُ قد بدأتُ أفهم وضعي جيدا، وقد أُزيلت الغشاوة عن عيني، نسيتُ النعيم الذي كنتُ أعيش فيه خلال سنوات الدراسة، حين كنتُ مختبئا في شرنقة بدعوى التعلّم، وعرَفتُ وضعي جيدا؛ كنتُ عالقاً في ممرات الحياة.

كان عُمري يسير وينقضي، أدركتُ ذلك من أول عصا أصابتني. أدركتُ ذلك جيّدا حين ارتجّ دماغي وسقطتُ على الأرض مثل دودة، لم أشعر بأي ألم، كان الأمرُ شبيها بفيلم ؛ تَرَى خيالات البوليس أمامك، كما لو أنّك في سينما. لا تصدّق ما ترى. تفاجأُ بالصورة المختلطة وبالحشد المنتظم الذي يتقدّم نحوك، ببطء في البداية، ثم مهرولا. تبقى مشدوها لصورةٍ طالما رأيتَها في الأفلام، وهاهي تتجسّدُ أمامك واضحة على الأرض. وفي لمح البصر، يُصبح كلّ شيء ظلاما وترتاح. لا تتعجّل. ستُحِسّ الألم في ما بعد. العصا تضربك وترتجّ وتعود سالمة إلى صاحبها، ودماغك يستريح حين تغيم الصورة، لكن بعد ساعات،

ينتفخ رأسك ويصبح مثل البالون. في الليل تتحرّك على الوسادة فلا تنام وتبحث عن جزء من دماغك لم يصله الانتفاخ كي تحطه على الوسادة قليلا وتهنأ فلا تجد فتسهر وتغفو متقطّعا وتراودك الكوابيس..

كنتُ حزينا حين تلقيتُ أوّل ضربة. بدا لي أن كرامتي أهينت بشكل فظ، وكان ألمي الأكبر نفسيا، لأن الكثير من قناعاتي حول جسدي بدأتْ تتهرأ.مثل فتاة تمتحِنُ الحيض َأو الحمل وآلامه وتأثيره على شكل الجسد لأوّل مرة.. وكان الأصدقاء سعداء. قالوا ضاحكين:

- إنها لُعبة، بيننا وبين الحكومة. فحين نُضْرَبُ بقسوة، تمنحُنا الحكومة بعض المناصب لكي تخفتَ القضية..والذّكي من طار إلى المنصب قبل الآخرين لأن الحياة تمضي والمعادلة تتبدّل كل لحظة فتُرسَى قواعد جديدة لا نتعلّمها بسهولة..

فراشٌ مبثوث، طيورٌ تتفرق في الأنحاء، جراد يختلط بالمارة. قوات الأمن لا ترحم والروح عزيزة. حين تجيء أوامر الضرب، أنفذْ بجلدك:

- آتَاكْ..

كلمة واحدة تعني الخلاص لدى صغار رجال الأمن. أخبرَني شاب يشتغل بالأمن، في مقهى صغير بالرباط، بعد أن تَصَاحَبنا، أن أوامر الضّرب بالنسبة لهم، تعني الخلاص. لأنهم يظلّون واقفين طوال اليوم، أحيانا دون أكل ولا شراب، فيحقدون على هؤلاء التافهين الذين جاءوا يُنغّصون عليهم هدوءهم.لذلك يبالغونَ في إتقان الضرب حتى لا يعود في الإمكان جولة أخرى...أحيانا، يكون الكمّ كبيرا ولا يستطيعون مواجهتنا فيستعملون حيلا تُعينهم على كسر هممنا كأن يطلقوا صفير سيارة من السيارات بشكل مفاجئ كي يرهبوا الجموع، وأحيانا يكون المكان مكتظا بالمحتجين فنزدَحِم ويضربوننا بمقدمة الأحذية.يؤذون

صفـوف الأمـام دون أن يعلـم بالأمر من يقفون في الخلف..وكلّها حيّل أصبـح المعطلـون يدركونهـا، بـل إنّ منهـم مـن تخصّص فـي الوقفات وأصبح يعرف توقيت الخروج وتوقيت التدخّل ومسـتوى كلّ احتمال.. كان عاطف يقف أحيانا ويحلّل بناء على ظروف البلد وما يروج فنعرفُ إذا كان التدخّل سيكون عنيفا أم لا..

لطالما سـألتُ نفسـي وأنا أجول في شـوارع الرباط بعد معركة أو هروب:ماذا سـأربحُ من الوقوف أمام البرلمان غير شـقوق في الجسـد والروح؟ كانت تسـير حياتي وأنا في شـرنقتي بعيدا عن همومها، لكن الوقـوف أمـام البرلمان غيّر من طباعي.أصبحتُ شـخصا مختلفا شـذّب المجرى هواجسه.أصبحتُ رجلا..

عنـد انتهـاء النهـار، يذهـبُ المعطلـون لتقييـم الوضع.تلتقـي كلّ مجموعـة فـي مقهـى من مقاهي الربـاط، أو على مقاعد حديقة بعيدة أو سيرا في الشارع لإحصاء النجَاحَات والانكسارات.تدور نقاشات كثيرة، ويحاول البعضُ تبرير الغياب، لأن الغياب يُقصي من المراتب الأولى. ولأول مرة، يجد الشباب أنفسهم مضطرين لقبول بعضهم، بغض النظر عن انتمائهم. يَقبل الإسلاميان حسن ورشيد زميلهما عاطف ويضحكان معه ويمازحانه، فأتأمّلُ هذا التقارب الذي سبّبُه الجوع وقلة الحيلة. لقد انتهوا جميعا إلى سـلة واحدة.وحين يقفون أمام البرلمان ليطأهم حذاء قوات التدخّل، لا يعرفون هل الانتماء لليسـار أو لليمين يُحدثُ فرقا؟ أصبحت كل الرؤوس سواء، خصوصا عندما ترتفع العصا وتهوي..

رغم كل ما حصل، كان الرباط يتوغّل ببطء بداخلي.أحببتُ المشي في زواياه. فالمساء فيه لطيف.وأمام محطة الرباط المدينة، تلبسُ الأبنية والمحـلات عـادة أبهـى حللهـا. نافورة المياه وسـط السـاحة المخضرّة محاطـة بالـزوّار والمصوّرين.جماعات المعطلين في كل مكان، بألوانهم

وشعاراتهم المختلفة، وفي الزوايا معطّلون مكفوفون كوّنوا جماعة مُستقلة، وحين تعبوا من الصراخ، صنعوا صناديق كرتونية وأصبحوا يجمعون التبرّعات..أحيانا ينتظمون أمام البرلمان ويستظلون من الشمس بلافتات صغيرة مكتوب عليها: كرامة عدالة حرية..وكانت اللافتات الصغيرة تظهر للمارة كمظلات الشمس أكثر منها دعوات احتجاج..

ثم يجئ يوم جديد..

سكرانا، واقفا أمام البحر، في هذه المدينة الصغيرة، والدموع في عينيّ بفعل دفق عاطفة لم أستطع منعها، يحضرني ذلك اليوم مثل أمس قريب..

أمام البرلمان، كثير من التراخي. لن يزور المكان اليوم مسؤول كبير، كما قال عاطف، الذي وقف واقترح نقاشا نظريّا حول واقع العطالة لم يتحمّس له الكثيرون. كل شيء روتيني، ورجال الأمن الذين يحرسون مدخل البناية غير متحفّزين لأي أمر.كان المعطّلون يرفعون الشعارات دون حماس، والخمول بدأ يُسيطر علينا، لكن متى انتظم رجال الأمن فجأة ؟ متى جاءتهم الأوامر؟

- أتاااك..

كلمة سحرية تُفيد من ينتظرها، وتخلُقُ الحدث.تفرقْنا في كل مكان، بعضنا نسيّ الحقيبة أو الحذاء وبعضنا فزع كمن استيقظ فجأة من نوم عميق.ركضنا ووقعت أجساد على الأجساد ووَلْوَلَتِ الفتيات والنساء في كل اتجاه.وهربْتُ. كانت مفاجأة للجميع. إذ لم يكن أحد على علم بأي شيء. في العادة، كانوا يوجّهون ثلاثة إنذارات، وبعدَها يقتربون ببطء لكي يتفرق الجمع، لكنهم هذه المرة هجموا، كأنما أعطيتْ لهم أوامر الضرب، لا لتفريق المعتصمين. لجنة اليقظة أيضا، التي تتشكّل من أفراد يتتبّعون كل طارئ، فوجئ أفرادها. ثم بدأ الضرب والهرب

والتعقّب، حتى بعد أن تفرّقنا، في كل مكان.كان مُضحكا أن يَجُول رجل الأمن بحذائه الثقيل بين كراسي المقهى المقابل للبحث عن المعطلين، كانوا يخطئون كثيرا ويضربون بعض المارة، وأغلب الشباب تبخّر..

المساء لطيف في الرباط ورطبٌ على من لا يرى قساوة المنظر، والناس يسيرون بهدوء ودون مُبالاة فقد ألفوا المشهد.

أما أنا فركضتُ فزعا..

نزلتُ عبر الشارع مبتعدا عن البرلمان كمن يتعقّبُه شبح، تجاوزْتُ مبْنَى البريد والمكتبات وباعة الجرائد وقطعتُ الشارع الكبير نحو باب شالة حيث تقف السيارات البيضاء التي تقلّ الناس نحو سلا والقنيطرة، ثم انعطفتُ يسارا دون توقّف، نحو الزّحمة التي يخلُقها المساء في سوق المدينة القديمة.توغّلتُ بين الأزقة، ورأيتُ فتاةً تساوم داخل محلّ بائع أثواب نسائية والبائع يشرح لها باهتمام ويبتسم وهي تتمنّع، رأيتُ باعة الفاكهة والأكياس والحقائب ينادونَ على البضاعة، ورأيتُ بما أُتيح لي من ضوء خفيف عَبَرَ إلى بصري، وأنا ألهثُ، عربات الباعة المتجولين الراكضين فرارا من القوات المساعدة.. ازداد هلعي ولم أُميّز بين من يركُض خلفي، ومن يهتمّ للباعة وعرباتهم الصغيرة. كان عقلي قد توقّف عن التمييز وأنا أهرب إلى مصير ترسمه الأحذية.غريزة النجاة المتوحّشة استَيقظتْ وبالغَتْ.. ثم ابتعدتُ كثيرا وتوغّلتُ بين الأزقة الضيّقة الرطبة باتجاه نهر أبي رقراق، ركضتُ حتى بدأ الأمان يتسرّب إلى دواخلي، والتعبُ يكاد يأكلُ الأطراف، لكن سمعي ميّزَ أقداما مُلِحّة تعدو ورائي..

حين صفا سمعي، وسط الحي القديم، واقتربتْ رطوبةُ النهر من حلقي وأنا أُجاهد كي أستنشقَ الهواء بفعل الركض الموجع، سمعتُ الأقدام تعدو في أثري، ولم أستطع أن ألتفت كي لا أعيقَ نفسي. كانت أقداما مُلحّة لا تتوقّف، وكان واضحا أنها تدور معي كلّما انحرفتُ نحو

زقاق أو مَمَرّ. لم ألتفتْ، لكنني ميّزتُ الصوتَ فعرَفتُ بأنها ليست أقدام رجل أمن.كان صوتاً واضحا مصرّا قويّا لأقدام غير مستريحة أتعبَهَا الركض مثلي. حين التفتتُ بعد تعبي الشديد، اكتشفتُ أن من يركضَ ورائي فتاة ترتدي حذاء طويلا يعيق حركتها ويعذّبها مع كل استدارة زقاق.سأعرفُ في ما بعد أن اسمها سهام وأنّها معطّلة مثلي تنتمي إلى مجموعة أخرى.سأكون بقربها طوال الوقت، إلى أن تضجَر مني بفعل سخونة الحياة وتتركني في محطة "كزافواياجور" وتسافر لتربح حياتها في مدينة بعيدة بينما أسير في دربي وحيدا وسط المعمعة، إلى أن تمنحنا الحياة فرصة اللقاء من جديد في هذه المدينة الصغيرة التي ستحضن جراحنا..

كان رد فعلي الأول، حتى قبل أن أستريح، هو الضحك بصوت عال هزّ حيطان الحي الرّباطي القديم..وسهام ضحكتْ بدورها، بعدها اختلط ضحكها بِدُموع الإحساس بالمهانة والخوف والإشفاق على الذات..

(3)

- " لقد كذبتُ عليك يا سهام.لا زال في قلبي غيرك من النساء"!

هل هذه هي العبارات التي قَرَأَتْ، في أوراقي، فأوجعَتْها وجعلتْها تخرج ذلك المساء من المطبخ ولا تعود؟ أم هيّ حكايات الحبّ والتّعب والذكريات التي تنام في حضن أوراقي وتكشِفُ عن جسد يحضُن جراحه بصبر مثل محارب قديم؟ ربما قرأتْ أفكاري المشوّشة عن البُطون وتفاصيلها وأشكالها وأحجامها وعلاقتها بتطوّر المجتمع، التي دوّنتُ مثل أحمق، في أوراق صغيرة متفرّقة معزّزة برسوم توضيحية، سخّرتُ ليالي الصيف الدافئة لتدقيقها، بعد أن تمعّنتُ طويلا في أنواع كثيرة منها على السرير والبحر، مثل مخبر حذق لا يرفّ له جفن..

هل قرأتْ سهام حكايتي مع الشال الأصفر وصاحبته التي جاءتْ إلى منزلي في غفلة منها؟ تلك التي كتبتُ عنها يوما في أوراقي بقلم الرصاص، بعد أن أنهيتُ مهمتي معها، بخطّ مبعثر عجول، خشية أن تضيع الأفكار، ثم أضفتُ الورقة إلى الرّكام الذي نَما في غفلة مني وتداخل ونسيتُ الأوراق تماما وفي ظني أني سأعود إليها يوما؟ أم لعلّه شيئ آخر لا أُدركُه استفزّها وجعلها تخرج عن طورها؟

بحثتُ طويلا في الأوراق المبعثرة بمطبخي عمّا أغاظها من أمر لأعرف تفاصيله، وأبني جيدا دفاعي حين ألتَقِيها فتغفرَ لي، دون جدوى. أوراق كثيرة متداخلة، بخطوط مختلفة وأحجام متباينة، تكاد تشي بحالتي وقت كتابتها، استقرتْ بين يديّ وأنا أبحث مثل تائه. أكتُبها عادة، على عجل، بين الممرّات أو في الشوارع والأسواق أو بعد تجربة حامية تُشعل فتيل أفكاري..وأنا أكتبُ، أكون شبيها براهب يرمي حكمه

دون ترتيب ودون أن يلقي بالا لما يفعل..كنتُ أبحثُ في الأوراق عمّا أغاظها كأنمَا ليستْ أوراقي. أقرأُها وأعيد لأكتشف سبب خروجها من المنزل مُسرعة دون وداع، فأجدُ أكثر من سبب فَصيح يدعوها لِسَبّ ملّتي وجُدودي السالفين وهَجْري دون قطرة ندم.

كانت حكايتي عن الهجرة إلى أوروبا والتفاصيل التي حكيتُ لها بعضها ونحن منسجمان وأخفيتُ بعضها مذكورة في الأوراق بتفصيل. فإذا كنتُ قد حكيتُ لها عن المركب والرحلة فإنني أخفيتُ ما تلا ذلك من معاناة في شوارع أوروبا وحقولها وحكاية شحني مثل قمامة باتجاه بلدي. كانت حكايتي عن الرباط وآلام الضرب الذي تلقّيتُ في شوارعها، وحكايتي مع الدار البيضاء وقصصي مع النساء، غريماتها اللواتي أخفيْتُ عنها حكاياتهن المُنتهية بجرح ينزف كلّما تحرّكتْ مشاعري، مدوّنة بأكملها في الأوراق. أحيانا، أذكر اسمها أو أشير لها باسم الحبيبة، وأحيانا أكتب من خلال إشارات خافتة أهدئ بها القلب في ليالي الوحدة التي أشعر فيها بأني كائن لا طائل من وجوده، وأحيانا كثيرة بتفصيل دقيق يتجاوز كل خيال حتى كأنّما أُصِبحُ أكثر من شخص يراقب حالات عادية للوجود ويعطيها ملامح وصور كثيرة..وحتى وأنا لا أكتب الأحداث متسلسلة، بل مُرتبكة متداخلة بسبب ذاكرتي المشوّشة ومشاعري المتضاربة المضطربة، فإن الوقت الذي قضّت في المطبخ، لا شك كان كافيا لتربط الأحداث ببعضها وتصل إلى الخلاصة.. كان تاريخي، إذن، أمامها مكشوفا، والأوراق المبعثرة في مطبخي أكبر إدانة لي، وما بها من كلام يكفي لفضّ أي اشتباك جميل بيْننا وتغذيّة كل سبب للهجران مهما كان صغيرا. كنتُ مثل مجرم يجيء إلى المحكمة حاملا سلّة أوراق بها كل أدوات إدانته ويقدّمها بهدوء إلى من سيحكم عليه بأقسى عقوبة..لكن أسوأ ما حصل لي –ويا لغرابة ما شعرتُ به–

هو هزيمتي وانكشافي أمامها بكل عواطفي وضُعفي الإنساني وحاجتي للرعاية. لقد انكسر القناع الذي لبستُه في علاقتي بها وتشظّى، ولم أعد ذلك الرجل الذي يُخفي حقيقته وراء غطرسة ذكوريّة مُتقنة. قال لي عثمان يوما ونحن جلوس في مقهى من مقاهي الشيشة التي انتشرَتْ في المدينة الصغيرة ولوّثتْ صدور بناتها وأبنائها ووسّخَتْ هواءها مثل بثور على الجلد:

– أبدا لا تُبْدِ ضعفا أمام امرأة ولا تحكِ لها عن مواقفك المخجلة، لأنها ستربّتُ على رأسك في تلك اللحظة مثل أمّ حنون، ثم ستقرّر في دواخلها في نفس اللحظة، احتقارك إلى الأبد. وستتحيّن أول فرصة مناسبة لتذكيرك بضعفك وربّما هجرانك..

أُسقِطَ في يدي بعد أن اكتشفتِ الأوراق واعتَرَتني حالة من الذهول والإحساس بالهزيمة. وقدّرتُ أن خطئي ونسياني يجعلانني أدخل معركة جديدة لا طائل منها. مثل شخص عطشان ترك مياهه تندلق دون سبب وجيه أو رجل نسيّ مفاتيحه داخل المنزل وأغلق الباب من الخارج.. هل كان ضروريا أن أتخلّى عن حذري؟ هل كان ضروريا أن أعطيها مفاتيح السرّ؟

جلستُ أفكّر في ما حدث وما ينبغي عليّ عمله كي أخرج من ورطتي وأستعيد سهام. ثم مرّ وقت ولم أجدْ سببا يُعينني على حلّ الأمور. تجوّلتُ في الشّقة وجلستُ على كرسي المطبخ الطويل وفتحتُ النوافذ وتجسّستُ على المارة دون جدوى. كانت كلّ الصوّر تذكّرني بخسارتي ورعونتي وتجلبُ اليأس. ثم عبرتُ الاتجاه الآخر فبان ليّ البرهان، وحاولتُ تبني فكرة أنّ لكل مُصاب وجها مُشرقا.. أقنعتُ نفسي بعد تأمّل حالتي، مدفوعا إلى حدّ ما برغبة في إنهاء الأمور المعطّلة، التي تراكمتْ دون أن أجد وقتا مناسبا لإنهائها، أن الأمر ليس

بالسوء الذي تصوّرته. حاولتُ النظر إلى الأمور من جانبها الايجابي فأفلحتُ. كان عثمان دائما يردّد أن علينا النظر من الزاوية المضيئة. في كل حدث سيء زاوية مضيئة علينا اكتشافها فقط، لذلك قلتُ لنفسي ماذا لو كان ما حدث هِبَة؟ فرصة للتفرّغ لشؤوني وترتيب ما أريد؟ كنت قد أحسستُ بعدما فكّرتُ في الأمر قليلا، أنا الممتلئ بنشوة من قضى وطره، بأنني لم أعد في حاجة إلى أحد. واكتفائي بذاتي الذي يملؤني في تلك اللحظة، جعلني أحسّ بسعادة خفيفة. ارتديتُ ملابسي وعدتُ إلى الصالة ورتّبتُ أوراقي وأعدتُ النّظر فيها من جديد، فأحسستُ بأنني قويّ وأن حالتي جيّدة، وهو الإحساس الذي يراود الإنسان وقت الصحّة، رغم أنه سرعان ما يتهاوى تحت ضربات الزّمن. فكّرتُ أيضا، ولبرهة، بأن ما يضرّني الآن بالذات قد يعود بنفع على عملي وسيُرضي المهدي، رئيسي في الجريدة، الذي كلّفني بالكثير من أمور العمل. ثم إن أشياء غامضة ومُغرضة في الخصام تغري النفسَ وتجعلها تعيش نوسطالجيا متقلّبة، ولهذا تركتُ الأمور على حالها بين المنازل..

هل كانت لديّ أيضا، يوم غادرتْ حبيبتي سهام، دون وداع، رغبة دفينة آثمة في الفكاك من علاقتنا؟ هل ارتحتُ إلى حدّ ما لأنها غادرت؟ هل هناك منطقة عميقة ما من مناطقي الداخلية المليئة بالأحراش والظلمات والنوايا المتضاربة ارتاحت لخروجها هكذا؟ ربما. وربّما لأنني سبق أن هُجِرْتُ من طرفها بشكل مفاجيء، كان تفكيري الدائم في لحظة وداعي لها في المحطة، يجعلني أتأمّلُ الحالة وأقول إنه قدري..

توجّهتُ بحماس، ولأيام، نحو ما كنتُ أشتغِلُ عليه..عدتُ بهمة إلى البحث الذي أعمل على تدقيق تفاصيله، إلى الحكايات التي أرتّب للجريدة حول الأجساد وعلاقات الرجال بالنساء وتحولات العوالم

وتطـوّر البـلاد. كنـتُ أصـوغ تأملاتـي وأنقّحهـا. عدتُ إلـى ملاحظاتي التـي أخطّهـا بعجـل أو ببـطء كـي أعـود إليهـا بعـد ذلـك وأضيفها إلى الفصل المناسـب من بحث مواز أنجزه بطلب من المهدي أسـتغل فيه الخلاصـات..كان الموضـوع الـذي كلّفني به مُؤرقـا ويحتاج إلى وقت. بدأتُ أسـجّل وأعيد وأمسـح وأضيف كمن يشـتغل على موضوع عمره. رتّبـتُ الأوراق المبعثـرة والحكايـات التـي جمعـتُ مـن أفـواه النـاس، وأضفـت إلـى الموضـوع ونقّحتُـه وتجاهلـتُ بعض الأحـداث لأنها لا تمنحني جديدا وامتلأتْ سلة المهملات بمزق الأوراق بألوان مختلفة. وفي غمرة العمل، نسيتُ امرأة اسمها سهام..

قـال لـي المهـدي، رئيسـي فـي العمـل، زميلي القديم فـي جامعة مراكـش خـلال سـنوات بعيدة، يوم دعاني للعمـل معه، في هذه المدينة الصغيـرة، بعـد فـراق دام أعواما، إنّ مهمتي صعبة. فكّر قليلا واسـتدرك كأنّما خاف أن أتوجّس وقال إنّها سهلة بالنسبة لي لأنّه يعرف التفاني في العمل ومحبة النجاح اللذين أتميّز بهما. قال إنّ العديد من الزملاء في الجامعة مرّوا بخاطره فاسـتبعدهم، ذلك أنّ لهم انتماءات ورؤى فكرية ستجعلهم يصلون إلى خلاصات لا تنبغي. هو يريدني معه لأنّني مُحايد وعلمي.وكنـتُ دائمـا علـى الحافة مثله. وبعد تفاصيل وشـروحات قال إنه يريدني في الجريدة فهو يحترم أسـلوبي. سـأكتبُ، دون ضغط، عن تطوّر المغاربة، من ناحية خاصة جدا، تتّصل بعلاقاتهم الحميمة عاطفيا وجنسـيا.ثم شـرح لـي بتفصيـل تطـورات البلـد وانفتاحه علـى تجارب الديمقراطيـة وحقـوق التعبيـر فتذكّرتُ سـخرية عاطف من كلّ ما يتّصل بالتطوّر.تخيلتُ عاطف يستمع للمهدي ويناقشه فيحمى بينهما الوطيس..

حين استقبلني المهدي يوم جئتُ أول مرة لهذه المدينة، رأيتُه أنيقا وواثقا.التقيْنـا أمـام بنايـة البريـد بعـد يوم من وصولي، وبعـد القليل من

المجاملات والقهوة دخل في الموضوع..

شاهدتُه يدعك سيجارة بقدمه ويُلقي بالأفكار دون توقّف مثل نبي يوصي التابعين ويحضّهم على التركيز والتفاني. كلّفني بالاهتمام بتحرير بعض صفحات جريدته الفتيّة:

- سنقوم بأمر مُختلف عمّا فعلَتْه كلّ الجرائد خلال السنوات العشر الأولى من هذه الألفية. لقد حاول الكثير منها تشريح السياسة والتاريخ والمجتمع، كتبوا عن السجون والمنافي وسنوات الرّصاص، ونحن سنطلّ على بئر الحياة العميق المُغفل..

لم أر المهدي يوما يهتم لأمر جِدي. كان لعوبا ومستهترا طوالَ مشوارنا الدراسي، لذلك أخذتُ الأمر بدوري مأخذا بسيطا وقلتُ قد تكون فرصة للاختباء من العطالة، فلعلّه ورث مالا وساقه الله لي ليحميني من الجوع، لكن لما رأيتُ مؤسسته الكبيرة والمبالغ التي يصرف لإنجاح مشروعه، وحماسته للعمل، أدركتُ بأنّه جاد ومنظَّم.

أخذَني المهدي من يدي وتجوّلنا بين أروقة الجريدة؛ ممرات ومكاتب وواجهة من الزجاج الأنيق. وضعتُ وجهي على الزجاج من داخل البناية فرأيتُ العالم مختلفا لأول مرة. بدا الشارع أمامي ممتدا وعامرا بالناس والحركة، كان النظر إليه من الأعلى محبوبا وممتعا. أدخلَني مكتبا وقدّمني لعثمان؛ شاب مبتسم وطويل يضع نظارات سميكة ولا ينظر عبرهما مُباشرة. قال إنّه زميلي وسنتعاون. بعدها ضرب لي موعدا ثانيا لأشرب قهوة في مكتبه ليشرح مهمّتي بتفصيل..

في البداية، اعتبَرَني مسؤولا عن صفحة المنوعات والأسرة بالجريدة. أجمعُ مقالات من هنا وهناك وأُبوّب الصفحة حسب ما أراه. حدّثني عن الفكرة التي تُراوده وترك لي حريّة العمل. كان لابدّ أن أهتدي لوصفة تجعل الجريدة تُباع ويصير لها شأن، لذا كان لابد من

خانات للبوح، لمعرفتي بأنّها ستكون صادمة ومثيرة ستفيد..

جلستُ أقلّب الفكرة ليال طويلة. كتبتُ بعد مرور وقت قصير على عملي معه، بتركيز شديد ورقة حاولتُ أن تكون بوابة مثيرة. فقُلت بأنّ من حقّ الجميع أن يبوح، كمقدّمة لفهم الذات. ثم فسّرت بأنّ هذا البوح لا ينبغي أن يكون ضرورة بأسمائنا الحقيقية، المهم، في نهاية الأمر، أن نسمع أجوبة ونصائح تعيننا على تلمّس الطريق في ظلمة العاطفة والجنس. نشرتُ الكلام على شكل عمود على يسار الصفحة بخط مائل غليظ وحرصتُ بمساعدة من تقني الجريدة على وضع لون رمادي خفيف تحت العمود ليثير الانتباه..

في لقاءاتنا المتعدّدة، بعد أن أصبحتُ مرتاحا للعمل، فهمت أنّ العمل بالجريدة مقدّمة لأمر آخر، فنحن سنعدّ بعد شهور مجلّة خاصة تستقطب أقلاما وباحثين كبار لذلك طلبَ مني الاشتغال على بحث مواز أستغلُّ فيه خلاصات العمل وطلب أن يكون البحثُ سرّيا كي نفاجئ الناس..ستظلّ الجريدة بوابة للعامة، نرصد خلالها حياة الناس وشكاواهم، وسنشرّح الحالة بعد ذلك من خلال مقالات عميقة وتحليل علمي يصلح للنشر في المجلة..كان المهدي يخطّط لما هو أعمق، وسيصارحني بعد وقت طويل على عملي معه بمشروعه الطموح الذي بناه على نتائج سَهِرْنا الليالي لتحقيقها..كان واضحا في مساره، عارفا بما يريد ويمتلك خطّة. لم اشكّ للحظة في حماسه، لهذا أعددتُ مقالات للجريدة، وسهرتُ ليالي طويلة أتأمّل حالات فريدة وأقرأ كتب علم الاجتماع وعلم النفس لأحلّلها، وكنتُ أعطف على الأوراق التي خمّنتُ أنّها ستصلح للمجلة لاحقا، وأفكّر في الألوان والخطوط والصور المرفقة، بل كنتُ أتخيّل نفسي مدعوا لمحاضرات عديدة حول وضع المغاربة العاطفي والجنسي لدى منظمات وجمعيات وجامعات،

مما شجّعني وزاد من حماسي..

تفرّغتُ لوقت طويل لنفسي وأوراقي التي أضفت إلى بعض المقالات فيها تفاصيل وشروح استقيتُها من واقع الحال والتجربة ومما يصل الجريدة من رسائل. وعدتُ إلى مراجع عديدة في الموضوع، ثم زرتُ الكليّة من جديد وكان العميد موجودا، دخلتُ مكتبه وقدّمتُ نفسي كصحفي فحيّاني بحرارة، كان قد رأى بعض أعمدتي فتعاون وأثنى على الصّحافة التي تُعين على تحديث المجتمع وتُساعد الجامعة على نشر المعرفة. قال إنّ عمل الجامعة لوحده لا يكفي. توسّط لي عند أستاذ يدرّسُ علم الاجتماع لأتواصل معه بشأن الموضوع ومَنَحني مراجع عديدة. أعانني الأستاذ على تتبّع المراجع وكان متحمّسا لرغبتي لأنّها تكشف- كما قال- عن وعي عميق بتطوّر المجتمع وحاجته للبوح.. كنتُ أريد أن أُبهر قراء المجلة عندما تصدُر، فقد كان يقيني عميقا بموقف المهدي وخطته؛ الجريدة لعامة الناس، والمجلة للنخبة. والنخبة مثقفة قلقة لا ترضى باليسير وينبغي احترامها. لهذا اشتغلتُ بهمة، وكانت تفاجئني الدّقة التي سجّلتُ بها ملاحظاتي في كلّ مرة، والمناطق الهامشية الصغيرة التي أسير إليها؛ فأنا لا أكتفي بالمعلومات التي أستَقِيها من حكايات الناس حين أسمعها على ألسنتهم متسمّعا في المقاهي والحانات، أو على ألسنة جيرانهم وهم يتكلّمون بصوت مرتفع ونوافذهم مفتوحة فيحدثُ أن أكون مارا وأتصنّعُ عمل شيء ما لأظل قرب النوافذ أتجرّع التفاصيل التي ما ألبث أن أدوّنها على أوّل ورقة تقع عليها يداي كي لا تضيع. كنتُ بالإضافة إلى ذلك أُصرّ على أن أضيف إلى أوراقي تعاليقي حول كل موضوع رابطا بين الحكايات وتأثيرها على مسار كل علاقة في ما يشبه الدوائر، فأحدّد الحكاية الأم وما يتولّد عنها من حكايات صغيرة مثل بقعة الزيت، ثم أحدّد تأثير تلك الحكاية على

العلاقة بين شـخصين أو أكثر، ثم تأثيرها على الأسـرة فالمدينة، لأصل إلـى تحديـد تأثيرهـا على المجتمع بعامة. وأسـتاذ علم الاجتماع، الذي كان لطيفـا وخدومـا لـم يقتنـع بأنّهـا نظرية، إلا أنّه اعتـرف بكونها رؤيا تسـتحق التأمّـل، ربّما رأفـة بي وبعطالتي وحماسـي.هكذا، توصّلتُ مع الأيـام إلـى نظريـة فريدة لم أشـك في جدواها، تتلخّـص في أن العلاقة التـي تربـط فتـى بصاحبتـه أو زوجيـن في هذا الحي الشـعبي لا تتوقّف عندهمـا، بـل تتعداهمـا إلى حدود أخرى، وحيـن تلوّح امرأة ما لحبيبها مودّعة إلى غير رجعة، تكون قد أضافت لبنة إلى مشـهد محدّد لاشـك سـيكون لـه تأثيـر على بناء المجتمع بعامـة. حاولتُ أيضا، وانطلاقا من الخلفيات التي تسـاعد على تحقّقُ كل حكاية فريدة، التمييز بين الفعل الداخلـي والفعـل الخارجـي. حيـث أن كلّ علاقة بين حبيبين، لا شـك يساهم في ترسيخها أو تفكيكها معطى ما، إما داخلي يرتبط بالشريكين، أو خارجي يرتبط بسـواهما. ولكل معطى تفسـير ومسـار يجعل النتيجة مختلفـة. وكان أن زاد مـن حماسـي وتعميـق إيماني بمـا أكتبُ التلاحم الكبير الذي لا يُمكن أن يُنكره أحد بين الأسر، خصوصا في حيّ شعبي مثل هذا الذي أسكن فيه وتصلني تفاصيل ما يحدث بين الأسر طازجة دون عناء؛ من زفرة امرأة مطعونة في كبريائها أو بوح رجل في حانة، أو حتى بكاء طفل تحت ثقل محفظته دون أن يجد من يمسح دمعه. وكان أن تغاضيـتُ عـن بعـض الحكايـات التي بدتْ لي عادية، ذلك أن الذين يعيشون حياة سهلة عادية لا داعي لتأمّل حالتهم، ولا داعي لبحث أي مناخ يشكّلها، لأنهم يمرون دون أن يشكّلوا أي فرق، ولم يشكّل لديّ هـذا التغاضـي أي قلـق أو تشـكيك فـي البناء النظري لمـا اعتقدته، لأن في كل نظرية، كما قدّرتُ، نقطا غامضة لا تستوي، ولا تنسحبُ عليها التجربـة. بـل لقـد اعتبرتُ هذا مـن صميم قوة رأيي، ما دام هذا النقص

اليسير الضروري هو أكبر الأدلة على الكمال..

انتبهتُ لعملي، وأصبحت أعيش إيقاع حياة مختلف، أرتاح لفترة وأشتغل لفترة. أبعدتُ نفسي عن غرفة النوم لأنها تذكّرني بسهام وأحضرتُ فراشا بسيطا مثل مهاجر على أهبة سفر لن يتحقّق أبدا. وضعتُ الفراش بالصالة وأحطتُهُ بالكتب والأوراق التي أعود إليها كلّما فاجأتني اليقظة. أتكئُ على ساعدي وأقرأ أو أكتبُ، وحين أضجر، أعود إلى كرسي المطبخ الذي حشرتُ بالداخل لأكمل عملي.. وكان هذا الانتقال منه وإليه ثم إلى كرسي التدخين الصغير المحاذي للصالة، يمنحني إحساسا بتبدّل المواقع وتغيُّر الحالات ممّا يجدّد الطاقة. دفنتُ بعض ملابسها التي نسيتْ في صندوق كرتوني ووضَعْتُه بعيدا في أعلى درج وصلتُ إليه، كما حدث في الحكاية القديمة، حين كان النبي سليمان يدفن العفاريت في قماقم ويرميها بالبحر ليأمَنَ الناس شرّها.. تعوّدتُ النوم في الصالة كي لا أحسّ بالوحشة في غرفة النوم، لأن الإحساس بنصف سرير فائض عن الحاجة كان يُقلقني. ورغم أنها لم تكن تنامُ في المنزل إلا لِماما، إلا أن الإحساسَ بتواجدها المفترض في أيام انسجامنا وأنها ستجيء في أي لحظة يخلقُ الراحة. أما وهي هكذا بعيدة، فإن ما يبقى طاغيا هو الغياب وهو ما يجعل تذكّرها مختلفا مشوبا بحرقة خفيفة في الحلق وضيق نَفَس. الأمر شبيه بالموت، نحن نعلم أننا سنموت يوما، دون أن نقلق كثيرا لذلك، لكنّ معرفتنا بموعد محدّد للموت يجعله مرعبا وكارثيا لا يُطاق. تعوّدتُ أن أترك التلفاز مفتوحا حتى يصمت لوحده، أصبحتُ أعدّله على وقت محدد ليصمت وأنا نائم رغم أنّ الأصوات والصرخات والحوارات تختلطُ بنومي وتتداخل مع أحلامي فأفزع أحيانا. ثم أصبحتُ أهربُ لأتناول طعامي خارج البيت، ولم أعد ألتذّ بالطبخ كما من قبل، لأنني كلما دخلت المطبخ لأعدّ شيئا

أنهمِكُ فأسهو وأوشكُ أن أناديها لأسالها عن مكان الملح أو التوابل أو لأسالها إذا كانت الفواكه كافية، أو أذكّرها بمقطع من فيلم لم تكن في البيت حال مشاهدتي له..

انشغلتُ بالعمل ونسيتُها لفترة. بعد احتيالي على عاداتي، غافلتُ نفسي ظنّا مني أنني نسيت سهام فبدا طريقي سالكا. ظللتُ على هذه الحالة لوقت حتى تسرّب إليّ إحساس خاص بأنني طويتُ صفحة وسأفتحُ أخرى وأنني ربحتُ المعركة بمهارة محارب "ساموراي".غير أنني في بداية أسبوع ماطر، كنت مسترخيا في المطبخ، على كرسيَّ الأثير المحشور بين الحائط والثلاجة، الذي يُساعدني على التفكّر والتأمّل ويصفّي الذهن. أنهيتُ الكثير من الصفحات فوضعتُها أمامي وتأمّلتُها فرِحا وكانت بمثابة جزاء صغير أحسستُ بأني أستحقّه بعد ليال طويلة من العمل والتركيز. وفي لحظة صغيرة وأنا أجول ببصري في المكان، أحسستُ بألم وحسرة حين رأيتُ أواني المطبخ تغطيها بقايا أطعمة أيام خلتْ ويملأها النّاموس، تخيّلتُ لبرهة أنني لمحتُ طيفا في الغرفة المجاورة، وكان على الأرجح طيفُها وليس طيف خيالي الذي يظهر وقت الظلام. تلك كانت البداية، ثم سيحدث لي مرات عديدة؛ أكونُ مسترخيا أتأمّل أوراقي وأتذكّرها. بدأتْ تلحّ عليّ فأطرد صورتها لكنها تعود..

مرّ وقت على آخر لقاء بيننا دون أن تعود أو تتّصل، وهاهي صورتها تحضر فتعود المشاعر والأسئلة لتُلهب داخلي. وبعد أيام من الانشغال والتعب وترتيب العادات جاءتْ ذكراها فتعجّبتُ لهذا العناد الذي تملّكها بشكل مفاجئ. وفي ما تلا ذلك من أيام، كنتُ أشتغل في الموضوع الذي كلُّفتُ به حتى أتعب وألقي ببصري إلى الهاتف وأفكّر فيها، أكاد أحمل التلفون وأركّب الرقم الذي أحفظ مثل اسمي العائلي،

ثم أتراجع وأقول إنها لن تستطيع الاستمرار في هذا العناد وعليّ الانتظار قليلا قبل الاتصال بها. أحيانا أمسك الهاتف بيدي وأركّب نصف الرقم ثم أمسحُه على عجل، وأمضي في عملي ممنيّا النفس بالحديث معها لاحقا فتظلّ الرغبة مخبّأة تتأرجح وأنا أعملُ. مما يُكسبها سخونة ولوعة ولذّة مخفية تعملُ في العميق...

غابت سهام ولم تعدْ إلى لقائي. كأنما ارتسَم بيننا فجأة شرخ كبير يصعُبُ تجاوزه. كشخصيْن غريبين التقَيا وافترقا دون وداع، مثل حادثة سير مفاجئة أنهت حياةً حَافِلةً لم تعد تُقلق راحة العالم الذي مضى في مسيره دون أن يتلفّتْ. وأنا، أحسستُ بالهوة السحيقة بعد أن أَلِفْتُها وغادرتْ، خصوصا وأنها تحضُر إلى شقتي مؤخرا بانتظامٍ من يرسمُ طريقا نحو الاستقرار. لقد نظّمتني سهام وأرستْ قواعد جديدة في علاقتي بجسدي وفضائي، فمسَحتْ حزن العطالة والتّيه، وجعلتني أفهم لِمَ يتزوّجُ الكثير من الناس في هذا البلد رغم أن العمل شحيح، ورغم أن وظائفهم لا تدرّ الكثير من المال وأحيانا يكونون عطالى مثلي أو يعيشون من مهن مشتّتة لا تغطي حاجياتهم كلّها ويظلّون في برزخ الهشاشة. تذكّرتُ الكثير من العاطلين الذين كانوا يقفون معنا في شوارع الرباط وكيف يعودون في المساء أزواجا إلى مستقرّ لهم، بينما يتيه الفرادى في المقاهي والشوارع وتَتلاطَمهم أمواج الحياة ولا يَنْتظمُ نومهم ولا أكلهم ولا يعرفون سبيل السعادة. لعلّ بعض الناس يخلقون بالارتباط توازنا تُزعزعه الفاقة وضيق ذات اليدّ، هكذا فسّرتُ الأمر، وذكّرتُ نفسي بأنّ عليّ الانتباه إلى هذه المنطقة وتغذية بحثي بالمعلومات، وربما سيكون لزاما عليّ أن أستعيد من جديد علاقاتي القديمة مع بعض المعطّلين من المتزوجين كي أَفيد منها في موضوع اشتغالي، وعاد إلى ذهني في الكثير من اللحظات حسن ورشيد وعاطف..

من زاوية الترتيب والنظام، لا بد أن أعترف أن سهام تفهم الأمور وتدركُ الأشياء حقّ الإدراك.لقد أَلِفَتْني وألفتُها. أو لأقل بأنني ألفتُها، فأنا المستفيد أكثر.أنا من تنظّم بحضورها واستقرّ، ومنذ اليوم الذي التقيتُها فيه من جديد في هذه المدينة، وأنا مرتاح أسير وفق الإيقاع. لقد نظّمَتني ودخلت حياتي كما تفاجئنا السعادة حين نعتقد بأنها غير ممكنة، لدرجة أن مشاعر متضاربة بين الحبّ واللاّحب أصبحتْ تغزوني، مثل رذاذ مطر خفيف يهمي، دون قوة، لكنّه يُؤثر. لقد أصبحتُ خلال علاقتنا أحسّ فعلا بأنني راغب في تواجدها بقربي، رغم أنني كثيرا ما أحسّ بالضجر منها؛ أحيانا تكلّمني وأكون ساهما ولا أسمعها فتحاول إثارة انتباهي فتقتربُ كثيرا مني ولا تمنحني المساحة الخاصة المطلوبة في تلك اللحظة، أو تمسك ذقني لتُدير وجهي ناحيتها كي أنتبه أو تحرّكني لأستيقظ من شرود لا أجد الراحة في سواه. أحيانا وأنا أريد الصمت والتركيز في فكرة من أفكار البحث، أو أُعِدُّ مقالة للجريدة، تصرّ على مكالمتي فأجدني مضطرا للانسياق إلى أحاديث لا تعنيني كثيرا. لقد اكتشفتُ بأنني أريدها إلى جانبي ولا أريدها. وسمّيت يوما ذلك، بيني وبين نفسي: الرغبة في حضورها دون ضرر! أردتُ أن أسمعها تتكلّم حين أريد وتصمتُ حين أريد لها أن تصمت، وأحيانا أحبّ فقط أن تظلّ على كلامها ولا أنصت لها بل يغزو شقّتنا الصغيرة حديثها ليشعّ الدفء والاطمئنان. أحيانا كنتُ أعطيها الانطباع بأنني أسمعُها فأحرّك رأسي وأتابع شرودي فتَغيم صورتها ولا يظهر أمامي سوى شبحِها يحكي أشياء لا أدرك عنها أي شيء وأحيانا تنزلُ الظلمة وهي تحكي لي عن كلّ شيء، (كانت ثرثارة بشكل محبّب يرفّ له القلب ويرتاح له الفؤاد)..

كانت تحكي عن أسرتها التي لم أهتم كثيرا لها حين كنا معا في

الربـاط، فقـد عرفـتُ خالهـا فقط، وهو شـخص مختلف ورزين يسـكن البيضاء. تحكي عن أخيها وخصوماته في الحي، عن أبيها المتديّن، عن عملها مع محامية متزمّتة تعيش رُهَابَ النظافة وتكرهُ الرجال لأنّها فشلتْ في كلّ علاقاتها فاستعاضتْ عن ترتيب حياتها بتهشيم حياة المتزوجين والمتزوجـات، فتراهـا تحارب فـي المحاكم لتنفّذ أقصى العقوبات على كلّ حيـاة مشـتركة. تحكـي عن السـوق والجيـران وتنبّهنـي إلى عادات الناس حولي وتغيّر أحوالهم وألبستهم وما استجدّ في حياتهم. تحدّثني علـى الخصـوص عـن النسـاء وأحوالهـن ومجاهداتهـن بحثا عـن حياة أفضـل، ممـا يفاجئنـي أنا الذي أسـكن قربهم ولا أراقبهـم. كانت تكرّر فكرة أن النساء المغربيات غالبا ما يركّزن على الظهور بمظهر أفضل لا يعكـس واقـع حياتهـن الحقيقي داخل البيت. كانت تقول إنهن يحرصنَ على التباهي بمظهر لا يُلائم وضعهن الهشّ ومَداخيلهن. وحين فكّرتُ، وجدتُ بأنّها حالة البلد بأكمله، إذ من ناحية، نحرصُ كثيرا على الواجهة والتزييـن، لكـن هـل يعكـسُ ذلـك حقيقتنا؟ هـل ننتبهُ إلـى أطرافنا التي لا تسـير بنفـس الإيقـاع الـذي نريـد؟ أما في علاقات النـاس عندنا، فلا تنفـعُ أبـدا تلك التقديرات التقليديـة حول حجم البطالة والفقر وظروف العيش التي يخطّها الدارسون وأصحاب مؤسسات الإحصاء، لأن البلد يظهـر عكـس مـا هو عليـه؛ ثمة تضامن بين الأسـر، و مناطق ظل كثيرة يَعْتَاشُ منها الناس ويراوغون الحياة لكنّها لا تُحسب أثناء تعداد الأمور الرسـمية وتدبيـج الأوراق بالإحصـاءات والأرقام وأثنـاء تصوير البرامج التـي تحـرصُ الدولـة علـى أن تكون واجهة فريدة. شـيء فريد نُتقنه في بلادنا هو الواجهة، وحتى عندما يكون الإنسان على هاوية، تجده يمدح الواقع حَالَما يكون أمام الكاميرا متواطئاً ضد نفسـه بشـكل عجيب كما لو أنّ العالم أصبح جنة. وعثمان، عندما ناقشتُ الأمر معه في المكتب

صمـت قليـلا ثـم قـام من مقعـده واتجه نحو النافذة، حدّق في الشـارع المتحرّك من وراء الزجاج طويلا مثل شيخ أو مريض وقال لي:

– الواجهة في هذا البلد لا حدود لها، هل تعرفُ بأنّهم يَشْحَنون نحـو مدينتنـا الصغيـرة الآمنـة أعدادا كبيرة من الحمقى والمشـردين بعد أن يكنسوهم من مدن السياحة؟ على وجه البلد السياحي أن يكون نقيّا لكن لتذهب أناقة المدن الصغيرة إلى الحجيم..

ثم صمت من جديد وأضاف:

– إذا أردتُ أنْ أعدّد لك أوجه الإخفاء والنفاق في حالاتنا سوف تُصدم..في السياسة والمجتمع والثقافة والعادات..

لكننـي لـم أكـن فـي حاجة لأي مـن حكايات عثمـان، فقد كانت سـهام تكشـف كلّ شـيء، فهيّ تعري نفاق الناس الاجتماعي وسـعيهم لإخفـاء لحيّهـم وهـم يرقصـون كما قال المثل.وحين تحكي سـهام عن الحيّ وناسـه، أحاول إسـقاط ذلك على المجتمع بأكمله، متتبّعا نظريّتي الفريدة. أشـعرُ أنّ كلّ ما تقوله يصلح لتفسـير حال البلد، وأراها تتكلّم معي فأسهو وتصبح غير واضحة المعالم وأحبّ حضورها الرّهيف الذي لا يُتعبني لكنه يجعل العالم أكثر انسجاما وامتلاء حولي..ثم نذهبُ إلى النـوم متأخّريـن بعـد النقـاش فتنام مرهقة وأظلّ أتفـرّج على تلفاز أبدّل وضعه من الصالة إلى غرفة النوم ومن الغرفة إلى الصالة حسب المزاج. أتدثّر بالغطاء جنب سهام وأسمع شخيرا خفيفا لا يؤذي يكاد يكون أنينا وتستحيل ملامحها طفلة صغيرة تجعلني أهوي في قرار الذنب من جديد لأنني أستغلّها تماما ودون مراوغة..

كان فـي غيابهـا، إذن، خصـاصٌ فادح دوّخني وأعادني إلى مرحلة سابقة لا توازن فيها.لقد أصبحتْ لديّ فجأة كلماتٌ لا أقولها ونُكتٌ لا أحكيها ومشاهدُ مُضحكة أجد نفسي فيها ولا أبوح لأحد بها. وانتبهت

مـرارا إلـى أن معلوماتهـا أيضـا، وقتَ ثرثرتهـا المحببة، مفيدة لي. حتى وأنا لا أسمعها كاملة، لكن حاسّة ما بداخلي تجعلني أستوعب الأفكار وأنتبه فأعرف كيف أتصرّف في الكثير من المواقف مستوحيا ما أعطتْني مـن معلومـات ثمينـة. أعـرف مثـلا أن رجلا من الجيران قـد رُزِق بولد فأُصادفه قرب محلّ البِقالة وأقول له مبروك وأسير إلى حالي، وأنا مرتاح لأننـي قمـتُ بمـا تمليه عليّ أخلاق الجيرة، وكوني بهذه الكلمة أضفتُ شخصا إلى قائمة الأصدقاء وأمنتُ شره، أو أعرف بأنّ أُسرة فقدَت ابنا لهـا أو تـمّ سـجنه فأُواسـي أو أطلـق حكمة أو مثلا يكـون ضروريا مما يُسـبِغُ علـيّ صفـة العقـل والفهم والوقار والقدرة على الوصول السـريع إلـى الخلاصات، وهو شـيء تعجّبتُ لـه، لأن الوصول إلى الخلاصات لم يُلائمني يوما، وكنتُ أجسّـدُ بوضوح، ودقّة لا خلاص منها، نموذج الذي تصله الحكمة بعد أن تكون غير ذات جدوى. ثم إن ما عذّبني أكثر في غيابها، هو أنه كان يحدث لي في الشقة أن أكون في غمرة التفكير وأُبادرها بالكلام فلا أجدها قربي، أو أودّ تذكيرها بشيء فلا تكون أمامي فاغتـمّ، وأحيانـا أنسـى نفسـي حين أعـود من عملي فـي الجريدة فأفتح الباب وأناديها بلهفة كما ينادي أمَّهُ طفلٌ عائد للتو من المدرسة..

عرفـتُ بعـد مـرور الوقـت أن لديهـا عنادا لم اكتشـفه إلا مع هذه الحادثة. لقد مرّت علينا خلافات كثيرة، وفي كل مرة كانت هي السبّاقة إلى الاعتذار.كانت تأتي إلى المنزل وتجهّز الغداء وتنتظرني في الظلمة لأحظـى باسـتقبال أراه فـي الأفلام وأقرأ عنه فـي الروايات وتحكي عنه رسـائل المراهقيـن الحالمـة المعطّـرة التـي تصـل بريد الجريـدة. أحيانا كنـت أشـمّ رائحـة العطـر القريب إلـى قلبي ورائحة الـورود التي تختار بعنايـة قبـل أن أضـع المفتـاح فـي ثقب البـاب، وأحيانـا تهديني الكتب لأنّهـا تعـرف ضعفـي أمامهـا. كانـت بارعة في الدخول إلـى قلبي بأمور

بسيطة كأن تطلبَ مني أن أغمض عيني في مقهانا المفضّل وتقبلني في فمي بشكل فُجائي بعد أن تنظر في كلّ اتجاه مراعاة للخطر..ثم إنّ ملاحظاتها الكثيرة وحكاياتها العامرة بالتفاصيل ظلّت على الدوام خزّانا أنهلُ منه دون انقطاع..

أحيانا أيضا نكون معا في الظلمة الخافتة ويشغلني الزمن الكلب، أو نكون في غمرة الانشغال بأمر من أمور الحياة، فنحتكّ بفعل ممارسة الوجود الذي يجعل الكلام والمشاعر تَبلى وتضيق فأستسْهلُ صبرها وأكون قاسيّا معها وأبالغ، وفي غمرة الغضب قد أجرحُها بكلام أو عبارات تصمتُ معها طويلا ويتقلّص وجهها وتطول رقبتها فجأة مثل زرافة صغيرة وينزل علينا سكون مطبق أكاد أسمع فيه ضربات قلبها.. أنظر إلى وجهها فأكاد أتبيّنُ تردّدها بين الخروج والبقاء، كأنّما تستفتي قلبها وتبحثُ مع ذاتها إمكانية إنهاء هذه العلاقة وطيّ صفحتها إلى الأبد.وقتَها أتذكّر يوم فراقنا في الدار البيضاء فأحسّ الخوف..

حين كنتُ أبالِغُ بردّة فعلي بعد موقف أو حديث، أشعر بها وهي تفكّر مجروحة وحزينة، وحين أحسّ الخطرَ وبأن الوضع لا يَحتمل المزيد من الصمت أتكلّم أو أداعبها كأنّ شيئا لم يكن فتصمتُ قليلا ولا تجاريني فأزيد من الكلام والضحك معتذرا بشكل مراوغ، وهي لا تلبث أن تصفى وتعود تحت تأثير الحبّ فتدمع عيناها ويبحُّ صوتها قليلا فأشعر أنني أتعذّبُ وأنحدر إلى بئر الذنب السحيق..

وسط هذا الحي الشعبي، وهذه الدار الغريبة التي تغطّي الريبة والحذر كل جدار فيها. وسط هذه الشقة التي تصلني من طابقها السفلي روائح البخور و"الفاسوخ" و"الجاوي" فتملأ المكان –وتجعل سهام تُحوقِلُ وتردّد الأدعية وتطلب مني أن أبحث عن مسكن آخر كي لا أُصاب بلعنة تأتي على أخضري ويابسي– تبدو الحاجة قوية إلى الروائح

التـي تَبُـتُّ فـي المـكان. لـذا كان لابد أن تجيء لتنتهي مشـاكلنا وأعود إلـى توازنـي. لكنهـا لـم تفعل. ظلّ الانتظار حالة تتجـاوز المؤقت! لقد دام المؤقت كما قال المثل الفرنسـي، وقتها عرفتُ أن الأمر هذه المرة جدّي وأنه وضع جديد لا بدّ أن أجد سبيلا لفهمه واستيعابه. كان لابدّ أن أسعى إلى لقائها لأقطع الشك وأزيح عن كاهلي عبء الغياب..

اتصلـتُ بهـا بعـد تـردّد وتفكيـر فأجابَـت مرتبكة، كأنمـا لم تنتظر اتصالي ولم تتهيّأ له. سمعتُ صوتها من الجهة المقابلة لا يحملُ اللهفة المعتادة التي أعشق في صوتها. كان يحمل نبرة خوف أكثر من أيّ شيء آخر.أنهتِ المكالمة بسرعة قائلة إنها مشغولة وسوف تتصل بي. تخيّلتُ من نبرة صوتها قبل أن ينقطع الاتصال بأنها كانت مُرتبكة كأنّ شـخصا يهدّدهـا. لـم تتّصـل كما وعدَتْ. أعدتُ الاتصال وكانت ترحّبُ بي فتاة العلبـة الصوتيـة، كل مـرّة، وتطلـبُ مني أن أترك رسـالة. حاولتُ تدبير لقاء معها لكنها ملأتْ فجأة وقتها وحرصتْ على أن تكون لطيفة معي وتعتـذر بـأدب جـم، تاركة البـاب مفتوحا على احتمالات شـتى. ينقطع الاتصـال فـي كلّ مـرة بعـد اعتذارهـا المـؤذّب ويصلُنـي طنيـن الهاتف المزعج فأظلّ لبرهة حائرا ومرتبكا، وحين أعيدُ الاتصال يكون الهاتف قـد أُغْلـقَ تماما.حـرتُ ولم أدر ما أفعل. قلّبتُ الأمور على كلّ أوجهها فرأيتُ أن لقاءنا ضروري كي أحسِمَ المسألة..

لـم أشـأ أن أزورهـا فـي العمل، لأنها تشـتغل عنـد محامية متزمّتة تتدخّـلُ فـي أمورهـا كما حكتْ لي، ومن الأفضل أن تظل علاقتنا بعيدة عن سمعها وبصرها. ولم أشأ أن أطرق باب بيتها كي لا أُزعجها وأسبّب لها مشـاكل مع الجيران، وهي التي تحظى باحترام من تسـكن عندهم. خصوصـا وأنّهـا لا تسـتقرّ دائمـا هناك، لأن منزل أسـرتها غير بعيد عن المدينـة سـوى سـاعة واحـدة، مما يعطيهـا إمكانية مزدوجة للاسـتقرار،

فحين لا تكون ببيتها هيّ لا شك عند أسرتها. وهذا الوضع، خوّلَ لها أن تجعل بيتي إمكانية ثالثة مخبّأة بين المكانَين..

حين تعبتُ من هذه المراوغة، قلتُ لنفسي إنّ سؤالا واحدا يفترض العديد من الأجوبة، ولهذا قررتُ أن أناقشها عبر الهاتف كي نحسم كلّ الأمور وأعددتُ بيان اعتذاري. فإذا كانت الأوراق هي السبب فإنّها تعرف الكثير من تفاصيلها، وما لا تعرفُه سأدّعي بأنّه من رسم الخيال الذي يتطلّبه العمل بالجريدة وقد أعتذِرُ عن بعضه. اتصلتُ وتركتُ أكثر من رسالة. وحين أجابتْ مرةً حاولتُ أنْ أفتح الموضوع فانساقتْ وتكلّمنا.

- ما دمتِ لن تلتقي بي، لنتناقش عبر الهاتف.
- أنا لا أرفض لقاءك، بالعكس..
- لماذا أنت غاضبة مني إذن؟

صمتَتْ قليلا حتى شككتُ بأن الاتصال انقطع ثم قالت:

- لستُ غاضبة منك.
- ولماذا ترفضين مكالمتي وما سبب خروجك من المنزل بسرعة في ذلك اليوم دون تفسير..

صمتَتْ من جديد ثم قالتْ:

- كنتُ خائفة. أرجوك لا تلُمْني ولا تطرَحْ مزيدا من الأسئلة!

قالتها فأحسستُ بالخوف أيضا، ذلك أنني سمعتُ في صوتها صدقا وصرامة لم أسمعهما من قبل.ثم أغلقتْ باب النقاش وانتهت المكالمة..

لم يكن لديّ تفسير حقيقي للخوف الذي انتابها، لم أكن أدرك المشكلة من الأساس. أعتقدتُها غاضبة من أوراقي التي نثرت بالمطبخ. كان ما أغضبها بالنسبة لي هو حكايات وتحليلات ضمَّتها أبحاثي، لكن

أن تتحوّل المشاعر من الغضب إلى الخوف فداك أمر لا أفهمه..

بقيتُ لأيام أقلّب الأمور بيني وبينَ نفسي: ما الذي أخافها؟ هل خافتْ من علاقاتي السابقة؟ من علاقاتي أثناء غيابها عن الدار؟هل خافت من حياتي المكشوفة المفتوحة على الاحتمالات؟ قال عثمان إنّ سهام التي عرفتَ في الرباط كانت في العشرينيات وكان لا يُمسكها شيء.وهيّ الآن فتاة ناضجة وأولوياتها تغيّرت. لعلّها تضغطُ عليك لتتقدّم خُطوة..

لكنني لم أشأ المغامرة بادعاء أيّ شيء، كنتُ أحاول معرفة الأمر من خلالها، اتصلتُ بها مرات عديدة وكانت تجيب دون أن تُريحني..

أقول لها في اتصالاتي فسّري لي، فتردّ عليّ: بْلاَشْ. وتغلق السماعة في وجهي بيقين لم أعهده فيها، حتى غدوتُ أشك بأن ثمة من يحرّضها على معاندتي، أو من يجعل علاقتي بها حقلَ تجارب دون أن أعرف..ولبرهة فكّرتُ في تفسير عثمان، لكنني استبعدتُ الأمر وقلتُ لأفهمَ أوّلا..

كان لبحثي حول العلاقات بين الجنسين، الذي بدأتُه مؤخرا وركّزتُ في تفاصيله بقوة، تأثير كبير في رسم صورة ما يحدث لي معها، فبتُّ أقارن بين ما يحدثُ لنا وما أقرأ وأعايش من حكايات، وتخيّلتُ لمرات عديدة، منساقا مع نظرية الدوائر، أنه في مقابل مراقبتي لعلاقات عديدة، ثمة من يراقبني في الآن ذاته ويتأمّل علاقتي بسهام. لا شك أني جزء من دائرة ما..

لعبة الاتصال لم تنته، فأحيانا أتّصل فتجيبني ونتكلم في كلّ شيء ولا نصل إلى موضوعنا. وأحيانا ينتهي الكلام، ويمرّ الصمت طويلا بيننا أو أتكلم وأشرح وتصمت هي على الطرف الآخر، حتى أعتقد بأن الخط انقطع، ولا ينبّهني إلى وجودها معي سوى تنفسها المنتظم.حتّى

أنني أحسّ بها أحيانا مُرتاحة في الحديث ثم لا تلبثُ أن تُغيّر نَبْرَتَها كما لو لسعَتْها عقرب فتُسارعُ إلى إنهاء الكلام. كان نوعا من الركود في علاقة عمّرتْ لوقت، وكنتُ أختبرُ تجربة مغايرة لم يستطع عثمان أن يُفتي فيها. يكون صامتا ومأخوذا بالحديث وهو يسمع حكايتي مع سهام وتفاصيلها فيسمّيه حبَّ الهاتف.أغرتْهُ كثيرا تفاصيل ما يحدث وبدا لي في كلّ مرة وهو يُنصتُ مثل من يسمع قصيدة. أرى ذلك حين تلمع عيناه مثل من يسمع مغامرةَ مُسافر..

في شقتي، بعد يوم عمل بين الجريدة والشارع، أنحشر بين الثلاجة والحائط، على الكرسي الذي أتأمل فوقه حياتي، وأفكّر في ما أسبَغَتْه سهام عليّ من ألفة واطمئنان وكيف كانت ترعاني طوال الوقت الذي أمضيناه معا، في اللّيل والنهار..أحاول أن أستبين ما أخَافَها فأُراجع مع نفسي حوادث وذكريات عشناها..كانت قد نبّهتني مرارا إلى أنني أتكلم خلال الليل حين تُسعفها الظروف على المبيت معي، وأنني أهذي وأذكر أسماء كثيرة.تنظر إليّ وتحكي ونحن نسير باتجاه بيْتي متأخّريْن كثيرا حذر العيون التي ترقُبنا. نتناقش في مواضيع كثيرة، ثم تتوقف فجأة كأنما ألحّت عليها فكرة جديدة فتمسك ثيابي لأتوقّف وتقول لي:

- البارح صَدّعْتيني وكَنْتِي كَتَحْلَمْ.
- وماذا كنت أقول؟ (أسألها).
- أنَا معندي زْهَرْ أوصافي..(تردّ مراوغة).

ثم تسير وتسبقني دون تفسير. بخطو حثيث تسير ونحن نصعد الشارع باتجاه الحي، قبل أن أسبقها لأفتح الباب حذر العيون المتربّصة بخطواتنا مُستفيدا من نصائح عثمان..الآن فقط أدركتُ كم كانت غامضة ومتلاشية. فغموضها لم يرتبط بهذه الحادثة، بل كان أساسا في شخصيتها..

حاولتُ استردادها مرارا، حاولت أن أُغْريها إذ أحكي لها عمّا تحبّ من نكت وأغان عبر الهاتف؛ نكون في حوارنا الهاتفي ثم أغنّي لها أغانيها المفضّلة على غير عادتي، لكنها كانت قد قرّرت على الأرجح ألاّ شيء سيوقفها. أَتّصلُ بها وأقول:

- مَتَوْحَشْتيشْ تْسَمْعِي لطيفة رأفت؟

تجيبني:

- ممكن تَوْحَشْتْها. لكن نَشْرِي سِي دي إلى بْغِيتْ لطيفة.

- والسّتَاتِي؟ أسالها.آجِي نْسَمْعوا أُغْنِيّة دْيَالْ "الفِيزاَ" و"البّاسْبّورْ"...

فتكادُ تضحك لكنني أشعر بها تتماسك في قدرة عجيبة لم أعهدها. أذكّرها بنا في السرير، وأحكي لها كيف كنا نسمع في هدوء تلك الأغاني ونشاهد لطيفة رأفتْ في لحظة البداية وهيّ تغني أغنية مغيارة. لا تضحك كالمعتاد، وهي التي كانت تبتهجُ لهذه المقطوعة وتعيد غناءها كل لحظة.(كانت قد سأَلَتْني يوما عن العلاقة التي تربط هذه الأمواج الموسيقية بالغيرة، إذ ترى لطيفة تغنّي أغنية مَغْيارَة بامتنان للحب وعذابه، تتابعها بانتباه شديد يجعل الدموع تطفح من عينيها لأنّها تتذكّر على الأرجح الحلاوة المخلوطة بالعذاب). رأيتها تحبّ كثيرا هذه الأغنية..تسمعها وتلتفت لي وتقول:

- نَارْ الغِيرَة مَحْلاها.. هِيّ مْرايْة العَاشَقْ والوَلْهَانْ..

فأقطّب حاجبيّ مدّعيا عدم فهمي هذه العبارات. أخاف أن تقول إنّها تغار عليّ وإنّها تعرف جنوني، لكنها عادة لا تقول، كانت تقصد كما فهمتُ بعد ذلك بأن أجمل ما في العلاقة هي الغيرة مهما تطوّرتْ. لأنّها تضمن اشتعال جذوة الحبّ.

أعددتُ دفاعا ظَنَنْتُهُ جَيّدا.خطّطتُ للقائها لأفهم أوّلا سبب ابتعادها

وخوفها.لكنها لم ترغب في لقائي، وخلال حديثنا الهاتفي تتمسّك برفض المجيء عندي.فماذا يكون أخافَها غير تفاصيل خياناتي الحقيرة؟ حين يئستُ أصبحتُ عصبيا ويائسا، وحين أسمع أغنية "السّتاتي" أنام فتراودني أحلام صعبة؛ أرى نفسي في مركب مكسور يمخر عباب البحر، أدقّق فأرى أناسا ماتوا أمامي وأكل الحوت وجوههم..بدأتْ ذكريات السفر التي أحاول نسيانها تعود. أقنعتُ نفسي بنصف الخسارة، وجهّزتُ خطة بديلة.. ولأنني تيقّنتُ أنّ ما أخافها كان علاقاتي السابقة فقد قررتُ أن أعترف لها بحكاياتي وأنكر بعضها.سأقول عن البعض خيال وعن البعض الآخر مجرد مرحلة ماضية، فهي تدعوني رمزيا إلى التفكّر في مرحلة البطالة والقهر ولذلك لن أعود إليها. ثم سأنام على صدرها وأقول عليك أن تداويني كي أُشفى من ألمي..

في مكان ما، قرأتُ بأن المريض يقارن بين أعراض مرضه وكلّ الأمراض التي يقرأ عنها أو يراها، وهذا على الأرجح ما حصل لي..كنت أتلقى الرسائل وأخرج لأجمع المعلومات حول علاقة الرجال بالنساء، وعن مشاكل الحبّ والزواج والعلاقات، لأعدّ مواد الجريدة وأُرضي المهدي، وفي الآن ذاته أفكّر في مشكلتي..ظللتُ أجمع حكايات الناس مع اللذة والحب، أجول وأسجّل الملاحظات والحكايات الطريفة لنشرها على شكل حلقات في باب خاص جعل الجريدة تنْتَشر وتُباع. ثم انسقتُ بعد ذلك، ، كما تتطوّر كلّ الأشياء وتحفر لها المسارات مستفيدا من تحفيز المهدي ووعوده بمنحي رئاسة تحرير المجلة الموعودة، ومستفيدا من الحكايات. أرصد وأحلّل تأثير الجسد في حياة الناس وأحاول إعطاء معنى لكل حكاية وتفسيرها. اتجهتُ كذلك إلى قراءة ومراجعة الدراسات التي تتأمّل كيف يمارس المغاربة اللذة، وكيف تؤثّر العلاقات الجنسية على تطوّر المجتمع، وهل يمارس المغاربة اللذة أكثر

من الشعوب الأخرى؟ والسبب؟ إلى غير ذلك..ورغم أن المراجع كانت شحيحة جدا، ومعظمها عبارة عن دراسات جامعية غير منشورة، إلا أن تخصّصي القديم ساعدني على التنقيب والبحث، وكانت لتفهّم عميد الكلية الذي فتح أمامي باب الخزانة أثر واضح، كما أنني في البداية حاولتُ المزج بين ما أقرأ في الكتب وما أعيشه في الواقع، كنتُ أرغب في الاستفادة من العمل الميداني الذي أقوم به، لأنشر حكايات عابرة يتسلى بها القراء وأحقّق لنفسي غاية أخرى. سأحقّق للجريدة هدفها وأجلبُ لها قراء جددا يهتمون بحكايات مُغرية، وبالمقابل، سأحاول إرضاء فضولي وتحقيق هدفي وإعداد بحوث جديرة برصانة مجلتي..

أصبح بحثي يدور في فلكين؛ أولا، تجميع الحكايات وتحويرها قليلا كي لا تظهر معالم أصحابها، وهذا ما ستمتلكه الجريدة وتنشره لتبيع. وثانيا من خلال طرح أسئلة رصينة على الهامش: هل فرضية أن المغاربة يمارسون اللذة أكثر صحيحة؟ وإذا كان الأمر كذلك إلام يعود السبب؟ هل لأنهم يمتلكون وقتا فائضا لا يعرفون كيف يزجونه؟ هل للبطالة والفقر دور في ذلك؟ هل يعوّض الناس نقصا ما فيُمْعِنون في ممارسة الجنس لتخفيف الضغط؟ وفي منطقة أخرى من البحث، بدأتُ أطرح أسئلة من قبيل: هل يمتلك المغاربة حياة عاطفية؟ كيف تؤثّر الحياة العاطفية على الصحة وهل لها من تأثير على الاستقرار؟ هل يُشفي الجنس غليل فقدان العاطفة؟ ما الذي يخلق حياة عاطفية متوازنة؟ بل إنّني انسقت يوما مدفوعا بخاطر شعري فتساءلتُ كيف تؤثّر المباني والمناطق الخضراء على الحياة الجنسية للناس؟ ألا يساعد انتشار المناطق الخضراء مثلا على انتشار العاطفة وتعلّم أبجديات الحب والتعبير العاطفي، في مقابل انتشار الاسمنت والمباني التي تشجّع على انتهاك الجسد أكثر من أي شيء؟ فحين تنْتشر الحدائق مثلا يستطيع

الشـباب أن يجلسـوا على كراسـيها بهدوء ويتغزّلوا في حبيباتهم وتتغزّل الفتيـات فـي الأحبّـة، وهكـذا تتنوّع التجربة وتتغذى وترسـم آفاقا جيّدة للحب والذكرى، بينما يميل من لا يجد سوى غرفة أو شقة وسط سكّان متجهّمين يقتلهم الفقر والكبت وقلة الحيلة إلى جنس مستعجل لا يُشبع الروح لأنّهم سيحسدونه على النعمة. ثمّ رسمتُ في دفتري بعض الدوائر ووضعت خطاطة كتبتُ بداخلها (إسـمنت يؤدي إلى جنس مسـتعجل. خضرة وهواء تؤدي إلى عاطفة وحب وإشباع)..أغرتْني التجربة بعد أن تذكّـرتُ بـأنّ الناس خلال سـنوات قديمة بمراكـش وفاس وباقي المدن العتيقة كانوا يتغزّلون عبر الأشعار والأغاني التقليدية في الحبيب ووصل إلينـا الكثير من أشـعارهم وأغانيهم، كانوا يجلسـون فـي الحدائق الغنّاء والنزهات العامة يحكون ويقرؤون الأشعار ويغنّون أغاني الغزل فتذوب القلوب..فـي الخلاصـة، قـدّرتُ أنه لكي يحقّق الناس التوازن في مجال اللـذة، لا بـد أن يسـتمتعوا بالنزهـات والـكلام والغزل والمشـي قبل أن يتمتّعوا بالقبلة والجسد..

اسـتعنتُ وأنا أبحث، بكل المشـاهدات اليومية التي تصادفني في مسيري.اعتدتُ أن أخرج طوال الأيام التي تلتْ مجيئي إلى هذه المدينة الصغيرة، وأجول قرب البحر لأجمع ما يتيسر لي من معلومات.لاحظْتُ بـأنّ الهـدوء والراحـة يعمّـان المدينـة عموما، عكس الـدار البيضاء التي عشتُ فيها أهوالا بسبب السرعة وضيق الإمكانات.

عندما حلّ الصيف، بدأتُ أخرج لأتفرّج وأجمع المعلومات..أتأمّل أولا أجساد النساء وخصوصا بطونهن العارية، بعد انتشار الثياب العارية أمام البحر وفي الشوارع، كنت أرى البطون والسّرر العارية وأسجّل في مذكرتي كل تلك الملاحظات بشكل عشوائي لأرتّبها بعد ذلك.حاولتُ في البداية فهم الظاهرة. فالتسـاؤل الذي بَدَرَ لي، مثل نبوءة، ذات ليلة

مظلمة أغلقتُ فيها المصابيح وحشرتُ جسدي في ذلك الكرسي الطويل فـي مطبخـي، كان حـول أهمية البطـن في حياة المرأة. عدتُ إلى بعض الكتـب الجنسـية لفهـم دور البطن في إثـارة الرجل..ومدى قدرة الرجل على ضبط نفسه أمام بطن عار، و تساءلتُ هل للبطن مثلا نفس التأثير الذي للنهد؟ وهل السرّة هي ما يؤثّر في الرجل أم البطن بكامله؟..الخ.. كنت أتجوّل وأعيش الحياة وأكتب للجريدة..وقد أعطاني المهدي حين رأى حماسـي فرصـة للعمـل الحر، فلم أكـن مقيّدا مثل باقي الصحفيين بموعـد الدخـول، كان يكفـي أن أعـدّ الصفحـات التـي أُشـرف عليهـا، وأصفّفهـا وأتركهـا للتّقني الوحيد بالجريدة ليراجع ويصحّح ويبعثها إلى العاصمـة لتُطبـع هناك..كان إشـرافي على صفحات المنوعات والأسـرة مفيدا لي في العمل، لأن الجريدة بدأت تتوصّل برسائل تتضمن مشاكل من النوع الذي أحبّ. وبعد نشرنا للحلقات الأولى من المشروع، توالت الرسـائل وازدادت المبيعـات، وهـو أمـر جميـل أفادني.كانت الرسـائل توضـع علـى مكتبـي دائما فأتفقّدها كلّما عُدت مـن جولة. بدأتُ أحبّ العمـل الـذي قادتنـي إليـه المصادفة العجيبة، وقلت لنفسـي ربما تكون البداية هكذا وربّما أستفيد يوما وأبني مشروعا خاصا..

ثم تمضي الأيام وأنا أعيش نفس الإيقاع، حين أكون ممتلئا ومنتشيا أنسى سهام، وحين أتذكّر حضورها أفكر في ما أقلَقَها فلا أجد. كنتُ قد رّجحْتُ بعد التفكير بأنها العبارة التي صادفَتْ مكتوبة بخط عريض، بل لعلّها لم تقرأ سوى تلك العبارة:

- "لقد كذبتُ عليك يا سهام.لا زال في قلبي غيرك من النساء"

هـل كتبتُهـا تحـت تأثيـر الذكريات الحلوة أم المـرة؟ هل ارتبطت الخيانـة لـدي بهواجـس الحياة الحقيرة التي عشـتُها مشـردا؟ هل كتبت العبـارة فقـط لأننـي أحتاجها أم لأقتل شـيئا ما في داخلي؟ أشـياء كثيرة

دارتْ بداخلي وأنا أبحثُ عن حلّ أو تفسير..

فـي زحمـة الحيـاة، احتفظت بكل أوراقي، وحين اكتشـفَتْها كانت كل الأذلـة ضـدي. زعمـوا أن المجـرم يحوم حول مـكان جريمته، وأن المريـب يـكاد يقـول خذونـي، لكنهـم فـي حالتي سـيقولون إن المجرم يحتفظ بأدوات الجريمة..

- قالوها سلفا.فلم يتركوا لك شيئا يا عبد الحق..

هكذا علّق عثمان، حين أعطيتُه تقريرا عن الوضع، وضحك خفيفا، ثم اسـتدار ودوّن في ورقته شـيئا. كثيرا ما يسـجّل شـيئا بعد كلامنا، ممّا عمّـق لـديّ الإحسـاس بأن حالتـي تهمه كثيرا وإنني لسـتُ مجرد زميل يحكي له حكايته مع بنت من البنات..

(4)

كثيرا ما أُعيد ترتيب سطور حياتي في المطبخ على الكرسي الطويل أو ماشيا في الطرقات..أقول لنفسي إنّ الله يُحبني، لكن حبّه أشهبُ غامقُ مضبّبٌ وبعيدٌ ولا يصلني سوى وقت الضيق، وحين أتأمّل هذا الحبّ، أجدُ بأنّه الأجدر والأقوى وأنّه ما أحتاج بالضبط..

كثيرا ما أفكّر في حياتي وسط شقتي الصغيرة. أفكّر في ما أسبغته الحياة عليّ من نعم، ومن آلام أيضا. أفكّر في الوحدة والدفء، وأفكّر في العناق على الخصوص! أقول لنفسي إن في العناق شهوة لا تُضاهى لأنّه يجسّد الانتماء. فحين أعانق المدينة الصغيرة أحسّ بالانتماء للوطن، وحين أعانق داخلي أنتمي لمملكة الله، وحين أعانق سهام أتجاوز الانتماء وأنصهر في روح التجربة فأشمّ رائحة البصل والثوم والعطور في ثيابها ويديها. أتذوّق في كلّ روائحها لذة، أحسّ بلذة تُراب هذه الأرض التي أعطتني الحياة رغم أنّ أهلها الظالمين شرّدوني. أحسّ بحلاوة البلد العامر بالروائح والأمزجة والنكهات رغم متاعب الحياة، وحين كنا نجول معا أشرح لها كيف أنّ روائح هذه الأرض أليفة ولا تُضاهى، أقول إنّ رائحة المغرب مختلفة عن أصقاع أخرى بلا طعم ولا لذة: ماء البلد وشمسها وهواؤها وعطور الأسواق التي تُكسِبُ الحياة طعما لا يُنسى. نجول معا بين أحياء المدينة الصغيرة وأكاد أتحسّس تاريخها من روائح أسوار عتيقة تعيد التوازن إلى الروح. كلّما مررتُ بأسوار المدينة القديمة أو بنقوشها التي تآكلت تحت ضربات الزمن أحسّ بالاطمئنان. في الصّيف، نسير عند عودتنا من البحر مع جموع المارة عبر الكورنيش الذي تتوزّع مقاهيه على طول الخط البحري

الممتد، نقطع يسارا باتجاه شارع طويل، ثم عبر امتداد آخر سرعان ما نجد أنفسنا قريبين من المسرح، ليتلقّفنا موج آخر من البشر في شارع عامر. بعدها نخترق الأزقة الضيقة والتواء المسار لنصل إلى الدار. وفي الشتاء نجول وحيدين قربَ البحر ونمضي باتجاه مجهول غائصيْنِ في ضباب كثيف كالصوف..

كثيرا ما أعانق سهام في البحر فتضربني خفيفا وتضحك، لكنّها سرعان ما تنسجم مع اللحظة حين ترى العشاق يقبّلون بعضهم دون وجل في الشاطئ قبل أن يستمروا في المسير باتجاه الصخور. أعانقها كثيرا في ظلمة البحر. وأحيانا، في زحمة الناس، أضع يدي على كتفها وأجذبها عميقا إلى بدني لأحسّ الانتماء، وحين أخلو إلى نفسي في مكان ما أحفظ الرائحة وأنتشي بها، أشمّ يديّ وأطراف أصابعي مثل جائع في وليمة وأحتمي بها من الضّيم الذي يلف روحي. العناق أيضا حوار، وحين تحاول أنْ تُديرني نحوها في أمسياتنا الصافية ولا أستجيب ينقطع الخيط وتغدو شاردة. أحيانا، ونحن نسير في الطريق، أو في مسار الحياة نائما أو صاحيا أو مُتأمّلا، أكاد أسمع صوتا يعبر الدماغ ويضع الملامح الواضحة لمساري:

- يد مباركة تحجبُ عنك الأذى.

هل أسمع هذه العبارة في حلمي أم في يقظتي؟ من يقولها؟ هل هي جواب عن سؤال ؟ حلم عابر؟ خبر أم دُعاء أم مجرّد فكرة تراودني في مهبّ الوقت؟ هل كَتَبْتُها في مقالة من مقالاتي بالجريدة؟ أم نطقَها عثمان في محلّ من محلات المدينة المخبوءة بعناية بين الأزقة حيث نتناول الطعام الجاهز ونعود إلى العمل؟ أم ذكّرَتْني بها سهام في نوبة من نَوبات يأسي؟

في أحيان أخرى، أكون واقفا في المطبخ أُعدُّ طعاما أو شرابا فأغرق

في التفكير..تتحرّك ذكريات كثيرة في خاطري. تمرّ صوّر سريعة وامضة مثل ريح عابر. سواء وأنا أُعدّ وجبة ليلية خفيفة لا تكلّف مجهودا، أو في غمرة شـرود ما أو انشـغال لا يُخرجني منه سـوى صوت الماء على النار، أو إبريق الشاي على الفرن الصغير حين يغلي ويكاد ينسكِبُ بعد أن تتصاعـد رغوتـه وتخـرج بـي من نفق مـا يرَاودُني من أفكار. غالبا ما تتوالـى الصـوّر فـي داخلي وتنمو، أحسّ بأنني ضائع ومنفي ولا أسـاس لـي، لكننـي أتذكر بأنّ لديّ سـهام، فتبرق فـي ذهني، كخلاصة مفاجئة، أنني مختار ومُبَارَك وأنّ الله يحبّني.

في أحلامي، وأحيانا في يقظتي، أرى نفسـي على حافة، وفي كل حين تمتدّ يدٌ لتنتشـلني في آخر لحظة.وسـواء أكان ذلك بفعل تكويني والمفاجـآت التـي خلقـت حياتـي، أو كان بفعل تقلّـب المزاج والحفرة العميقـة التـي أسـمّيها روحـي، فـإن اليقظـة لا تُتاح لـي إلا بعد أن أرى خنجر الألم يَنْغَرِسُ في العميق فأرتعدُ وأسـتيقظ من شـرودي. كأنّ يدا مباركة هي ما جعلتني أسافر إلى خارج البلد بالصدفة بعد أن أرشدتّني "الشّعِيبيّة"، المرأة الطيبة الغليظة التي تعهّدَتْني، إلى الهدف، وأعيش بعد أن يموت أمامي آخرون في البحر. كأنّ يدا مباركة هي التي أعطتْني سهام وأعطتني معها الارتباك والحيرة والشـكّ واللاجدوى..خليط من الصور تَتَالـى أمـام بصـري فـي كلّ حلم حقيقي أو حلم يقظة، لتعود الكثير من الأحـداث وتختلـط بمـاء الخيال، وقتها يبدو لي، بيقين لا يقبل الهزيمة، أن ما أعيشه من أيام مجرد زمن زائد ليس من حقي..

حياة تُشكّل سلسلة مصادفات منمّقة فريدة. كلّما اقتربتُ من حفرة امتـدّت يـدٌ لتنتشـلني بعيدا، فهل هـذا هو القدر؟ هل كان القدرُ يصحّح أخطاءً أوجَدَتْني في أمكنة وأزمنة غير مناسبة؟ هل كان يَمنَحني بفضل الحب، والمرأة تحديدا، فرصة جديدة في كل تجربة ؟ هل كان ما عشتُه

مع "الشّعِبيةّ" حبّا أم لذة عابرة خلقها اليأسُ والمَتاه؟ وهل ما عشته مع سهام في الرباط، في ساحة النضال كان حبّا أم هربا من العزلة والخوف من الوحدة؟ وهل كان ما عشتُه معها في هذه المدينة حبّا أم حاجة؟ حبّا أم تيها؟ وهل ضجر القدر أخيرا من هذه اللعبة فتركني أعيش الأمور كما تشاء الأيام؟

أحيانا، في المرحاض أو المطبخ أو في الصالة، تقفز إلى ذهني صور بعيدة أو مشاهد قديمة لا أُدرك تماما هل حدثتْ فعلا أم خلقَتْها ذاكرتي المُشوّشة!

أرى نفسي في الجامعة حيث ضجيج الطلبة، أو في ساحة البريد بالرباط أرفع الشعارات مطالبا بالشغل أو في البحر متجّها نحو المجهول.

حين أرى نفسي في الجامعة، يقفز إلى ذهني بكثافة وانتظام حديثٌ كان يدور بين نخبة من الطلبة القدامى –الذين استقبلونا يوم جئنا إلى الحيّ الجامعي–.

كانوا يتحدثون بحزم واستياء، عن احتضار السياسة وعزوف الطلبة الجدد عنها. حكى لنا قدماء الزملاء، ممن تعرّفنا عليهم في أسابيع الترحيب الأولى، بأن السياسة قد بدأت تحْتَضِر واتهمونا بفراغ الداخل.مُحترفو النضال، الذين عمّروا في الجامعة لسنوات، تحسّروا على الزمن الماضي أمامنا وتوعّدونا بضيق الأفق إن لم نناضل. كان العالم مُتخما بالخَيبات واللاّجدوى في أعيُنهم. أمّا نحن، ففتحنا أعيننا على بداية الألفية ولم ننتبه لما يجري؛ كان المعسكر الشرقي قد سقط قبل سنوات وجاء من يبشّر بموت السياسة والايديولوجيا ثم جاءت حربُ العراق واتفاقية أوسلو التي وقّعها الفلسطينيون بعد أن تعبوا من النضال.أما في البلد، فقد دخل المعارضون القدامى في اتفاق مع الدولة وشاركوا في الحكم.كان أغلبنا لا يدرك تلك التحولات لأنّنا بعيدون

عن كلّ الأمور بينما حاول الطّلبة القدامى تَقْرِيبَنا من المشهد.

أرى نفسي مثل من يَعبر حلما لا ينتمي إليه حين أصَادِق طلبة من اتجاهـات مختلفـة وأعيشُ ما اعتقدتهُ أمانا وأنا أكتشـف انتماءاتهم دون ضرر وأسمع شكاواهم جميعا..

أحيانـا وأنـا أكتـب مقالاتـي وأعمدتي عن العلاقات في الشـوارع والأقبية، أو أحكي لسـهام في السـرير عن الماضي يشـتغل ذهني بأمور كثيـرة دفعـة واحـدة فأنطلق من أحداث لأصـل إلى خلاصات: أفكّر أن أواخر التسـعينيات وبداية الألفية التي عِشـتُ بمرارتها وحلاوتها كانت حافلة بالتغيّرات لدرجة أن البلد تحوّل كثيرا حتى ما عاد يستطيع حمل نفسـه أو التوقف عند حدّ. مثل حَافلة مُثقلة بالمتاع دَارَتْ حول نفسـها لتتفـادى حُفـرة عميقـة فاختَنَقَـتْ لأنّ محرّكهـا ضعيـف وزاغـت فتبعثر كلّ شـيء.دفقٌ من التحول والشـراهة للتغيير انتاب الناس الذين غلبهم السّـبات والخـوف لوقـت طويل إذ آمنوا بالمكتـوب.. لكن هيكل البلد الذي خرّبه اللصوص والسياسيون طوال سنواتٍ لم يقو على هذه الهبّة، فحاول التريث قليلا عند منعطف ما ليسـتريح أو ليكبح اندفاعه.عندها، غضب الذين كانوا ينتظرون تغيّرا كبيرا وكانوا يقيسون المسافة بيننا وبين أوروبا، بينما وجد الذين يسيّرون الشأن العام مبرّرات كثيرة لتفسير هذا التريـث وكان النمـوذج الـذي يُسـوّقون هـو بلدان التخلّـف البعيدة التي ابتعدنا عنها بأمتار قليلة..

مرّتْ سـنوات طويلة على محاولة البلد أن يتغيّر وبدل المواطنون جهدا للتصالح مع ما حدث في الماضي وقرروا النسـيان للمضي قُدما وخـرج معتقلـو الـرأي من السّـجن وكان من ضمنهم خال سـهام الذي زرنـاه فـي الـدار البيضاء وحكى لنا عن تجربته. أسّـس بعض الخارجين مـن السـجون جمعيـات وحصـل أغلبهـم علـى أموال وانشـغل بعضهم

بمراجعة أفكاره والاندماج في حقل السيّاسة بينما رفض آخرون المال لأنهم لم يكونوا يناضلون من أجل الاغتناء بل لأجل وطن أفضل لم يتحقّق بعد بالنسبة لهم.كان مجرّد كشف أهوال الماضي وأسئلته كافيا لإيقاظ الجراح، لهذا حاول البعض مغالبة العجلات ليسير البلد ببطء كي لا يتضرّر الذين كانوا يسيّرون..

خلال سنوات الجامعة التي كانتْ تبرُقُ في ذهني كما لو أضاء بداخلي عود ثقاب كانت أفواج من شباب قريتي والقرى المجاورة يعيشون دون هدف، تمضي الحياة بنا وتنقضي ولا شيء يتبدّل. مثل أيائل تسير مع القطيع ولا تُلقي بالا لما يحدث حولها. القدر وحده يمتلك زمام المبادرة وكُنّا ندرُسُ بهمّة.

ركّزتُ في الدراسة، وابتعدتُ عن السياسة التي لم يكن يهّمني ومن جاء معي من القرى البعيدة احتضارها ولا بزوغ نجمها لأننا لم نؤمن بجدواها ولم نتعلّم الاهتمام. كان العديد من الطلبة الذين سبقونا يَبكون على الماضي حينَ تعلّموا الصّول والجول في ساحة الجامعة. استوطنوا المدرّجات وعاشوا تبدّل الزمن.الآن أمامهم جيل جديد لا يفقه من أمور الالتزام شيئا، ولا يريد أن يسمع، بل يكتفي بمتابعة دروس بدأتْ تتعقّد مساراتها وتتعرّج ولا تفضي سوى إلى الجنون..إن كل انتماء هو مجرّد وقت ضائع حسب ما فهمت. كان معظم زملائي الجدُدِ يسْخرون من السياسة، و لهذا ركّزتُ في ما ينبغي لي وأشحتُ بوجهي عن اللّوم والعتاب. مع ذلك كدتُ أُلقَى في السجن لأنني صَادَقتُ طلبة لا تزال السياسة تغريهم. كنتُ صديقا للأشخاص ولا أهتم لانتماءاتهم.كان لا يزال يحرّك الكثير منهم وهج لا ينطفئ للتغيير ومواجهة كل ظلم، يحرّكهم هاجسُ أنْ لا شيء تغيّر رغم الشعارات والكلام الكثير الذي يقرؤون عنه كل يوم في الجرائد.

خلال تلك السنوات الماضية من عمري، التي كادتْ تمسحها من ذاكرتي سنين البطالة والهجرة والعذاب، تغيّرتِ الجامعة إلى غير رجعة، الخارج أيضا كان يتغيّر، العالم بأكمله..دخل البلد تجارب جديدة في السياسة والحقوق، وأصبَح الجميع يحكي عن تحولات ديمقراطية تحدث؛ فتحَ جيلي بصره على إثرها دون يقين..رأينا زعماء المعارضة الذين كانوا حتى الأمس يَنعتُون الدولة بأقدح النعوت يبتسمون في وجه الكاميرات ويتقلّدون مناصب الوزارة. إنـدَاحَ موج من النقاش حول الحقوق؛ بدأتْ كلّ الجرائد تكتب وتشرّحُ وضع البلد وتبصقُ على الماضي.خرج سجناء الرأي والسياسيون المعارضون من السجون، وتقلّد الكثير منهم مناصب وبدأ الحديث عن طيّ صفحة الماضي الأليم الذي كان يُحكى عنه وأصبح ماض تذروه رياح التغيير..لكن الكثير من الكلام الفائض لم ينفع الشباب. ما حصلَ هو أنّ كثيرات اتجهن إلى بلاد الشرق لربح الحياة الخاسرة بفعل الفقر والفوضى وغياب الأفق، واتّجهَ الكثيرون إلى خيارات السفر باتجاه أوروبا ليكونوا طعما للسمك، بينما فضّل أكثر المتفائلين ركوب الحافلات باتجاه البرلمان، مستفيدين من فسحة الضوء التي فتحتها حكومة التناوب الجديدة، هكذا ظلّوا يناضلون طوال الوقت أمام البرلمان فاشتغل بعضهم بفعل الضغط بينما كان أغلبهم ضحيّة مشاريع وهميّة ووعود كاذبة لا تنفكّ الدولة تُنتجها دون توقّف لتربح الوقتَ وتقتل الهمّة.

ماتت السياسة في الجامعة، وبكى اليساريون هروب الطلبة عن الالتزام وانتعش الإسلاميون واستولوا على ساحة الجامعة بفعل امتداد الجماعات في كلّ العالم العربي. في بعض المدن والقرى، اتجه الكثير من الشّباب نحو العمل المدني، خصوصا في مجال التمنية، بعد أن فُتحت السبل قليلا أمامهم، ولم يعودوا تحت الرقابة الشديدة لرجال

السلطة التي كانت سابقا تمتهن الكرامة. لكن الكثير أيضا منهم، ممن صادقتُ، ظلوا متمسّكين بأن الأمر سيظل على حاله فلم يعبأوا بأية مبادرة. وبينما جاهد الكثير من الأساتذة وبعض الطلبة ممن آمنوا بالتغيير في رسم صورة أفضل لبلد يسير في اتجاه مجهول، معزّزين آراءهم بما يراه الناس من انفتاح في الصحف ومناقشة القضايا العامة وفي كلّ المجالات، ظلّ آخرون يرددون نفس الكلام عن مناورات الدولة للاستفادة من الانفراج...

كان صديقي في الرباط، عاطف، واحدا من الذين آمنوا بأنّ الأمر مجرّد خدعة.كان يساريا ينتظر التغيير ليعيش حياة متوازنة، وخلال الوقت الذي قضيناه معا، لم يكن يميل إلى الحديث عن المواضيع بتفصيل، كان يكتفي بالحديث العام وانتقاد كل شيء ويُنهي الأمر. كانت لديه خلاصة جاهزة لا يريد أن يخوض في غيرها، ويكفي أن يتكلّم قليلا ليستنتج أن ثمة قمعا طبقيا واضطهادا وتراجعا دائما..حتى أنه كان يكتفي من الجرائد التي تقع بين يديه، بما يتّصل مباشرة بالعمل ونضال المعطّلين وحوارات جماعاتنا مع الحكومة....

هل كان خوفا من التغيير؟ هل كان ضُعفا عن إدراك الحالة؟ كان وضوحا للرؤية؟ ربما. ما دام التغيير الذي تحدّث الجميع عنه لم يصلنا منه أي شيء. وبعد مرور الوقت، حين حاولتُ أن أنظر إلى تلك المرحلة، عرفتُ أنني لم أفهم الكثير من الأمور، كنا شبيهين بقطط صغيرة مُغمضة، ولم يكن ثمة من يمسك بأيادينا ويقودنا إلى الخلاص. لكنه تاريخ بلد بأكمله، والكثير من أموره لا شك ملتبسة. أمسك الكبار بكلّ شيء وأبانت الأحزاب أنّ من كان يتصارع في النهاية هم الشيوخ. كان المشهد شائخا جدا وبتفصيل، بينما ظلّ الشباب صامتين منزوين للفرجة..

كنتُ على الرغم من انزوائي أدرسُ ما يكْمن في التجربة. وكان الطلبة يكتفون بكلمة واحدة هي الرفض، مما خلق الكثير من الصدام. لأن الفرصة لم تُتح لهم لفهم الأمور، ولم تعط لهم أية فرصة للمشاركة في التغيير الذي يلحق الوطن..كنتُ أراقب طلبة يسيرون نحو المدرجات والحصص دون أن يلتفتوا لأي أمر لأنّ ما كان يحدث في البلد يمرّ بمحاذاتهم، وإسلاميين طلع نجمهم يدعون إلى تحويل البلد إلى وطن يشبه بلدان أخرى بعيدة لا تزال تعيش في أزمنة سحيقة وطلبة يسار انقسموا بين من يجرّم تجربة الحكومة الجديدة ويقول إن التغيير الحقيقي لم يلحق البلد، وبين من يقول إن على الناس أن يمنحوها فرصة لإثبات ما تدّعي لأن الانفتاح الذي رأيناه الآن معقول، وكان وطيس النقاش يحمى في كل مكان..

لم أكن أعلم شيئا عن أمْر مقاطعة الامتحانات وأنا أُساقُ إلى مخفر الشرطة ثم إلى المحكمة، لكن حكمة أحد القضاة الذي اكتشَفَ بأنني بعيد عن المعمعة ساعدَتني، ولولا ذلك لتغيّرت حياتي تماما. لم أحتجّ، ولم أحقِد على أحد، أحسستُ كأني أعيش في فيلم، وليس في واقع قد يقلِبُ أركان حياتي. لم أتعامل مع محاكمتي برعب أو ترقّب، كمن يتفرّج على مصير شخص غريب كنتُ، وقفتُ قرب القاضي وانشغلتُ بزيّه أتأمّله كطفل. هي أوّل مرة أدخل فيها محكمة. وفي قريتي كانت محكمة الله وحدها تحلّ المشاكل.تأمّلتُ أركان المحكمة وخشبَها العتيق والناس البسطاء الذين تكثر بينهم قضايا الضّرب والجرح والمشاكل العائلية التافهة والصراع على أمتعة وأراض قاحلة لا تساوي أي شيء. كانتْ أمام القاضي ملفات لا تنتهي لزوجات تركهنّ الزوج دون معيل واختفى فلم يعد أمامهن من حلّ سوى الإعلان عن تطليقهن عبر المذياع في نشرة الظهيرة التي يسمعها الشيوخ والعجائز في القرى

وهـم يتثاءبـون في انتظار نوم القيلولة. شـاهدتُ العنف المنزلي وقضايا التلبّس بالدعارة أو معاقرة الخمر في أمكنة بئيسـة أبطالها شـبّان يأكلون الوقـت ويأكلهـم دون عمـل أو نصير. تأمّلتُ كل ذلك وتذكّرتُ ما قاله حكماء قريتي منذ زمن:

- إذا أردتَ فهم البلد جيّدا، ادخل إلى المستشفى أو المحكمة..

لم أعتنِ بفهم أي أمر.و بمجرّد ما خرجتُ، نسيتُ ما حصل تماما، وهـو مـا اسـتفزّ الطلبـة القدامى الذين كانوا ينتظـرون أن أتغيّر أو أُصبح زعيمـا بفضـل تجربـة قادَنـي إليهـا الحـظ. عرفتُ في ما بعـد أن زعماء كثيرين أصبحوا أبطالا بالصدفة، ومنهم من استفاد من امتيازات وهتافات وسـمعة عالية لأنه وجد نفسـه فجأة مناضلا في لحظة، بل إن بعضهم تقلّـد منصبـا سياسـيا، وهـو الذي خرج صباحا ليشـتري خبـزا أو حليبا فأُلقـيّ القبـض عليه بالصدفة خلال السـنوات القديمـة. وقَادَني هذا إلى اليقين من أنّ تواجدنا في المكان المناسب هو أصل اللعبة وليس شيئا آخر. أن نلتقي الشـخص المناسـب، أن نعيش في المدينة المناسـبة، أن نُولد في الأسرة المناسبة، أن نُصادق الناس المناسبين، كل شيء يرتبط بالحظ، وحين تجد نفسـك في الوقت والمكان المناسـبين تبتسـم الدنيا في وجهك..

سـافرتُ خارج البلد بالصدفة، بعد أن رقّت لحالي امرأة عاشـرتُها وذقتُ فاكهتها، اسمها "الشّعِيبِيّة". امرأة تعرف الحياة وصروف الزمان، عرفـتْ بأننـي شـخص وديع ولا قـدرة لي على أمور الحيـاة فتعَهّدَتْني. سـافرتُ وكدتُ أموت في البحر بسـبب زحام المركب الصغير.أنا الذي لا يعرف العوم كما ينبغي. ماتَ أمامي أناس يُتقنون السّباحة ولم أمتْ. وحين عدتُ إلى البلد اتصلتُ بصديق قديم اسمه المهدي لأستعين به. كان اتصالي به أيضا مصادفة لمعرفتي بحالته المادية الجيّدة، كنتُ أرغب

في الاستعانة به ظرفيّا ريثما أدبّر أموري. عرض عليّ عملا كأنما كان ينتظر اتصالي. عشتُ ألم الوحدة في مدينته الصغيرة، ثم جاءت سهام من جديد وتعهّدتني بالحب حتى فاض، وفي غمرة انشغالي معها بالحياة اكتشفَتْ أوراقي فهجَرَتْني. فهل يجود القدر بمصادفة جديدة ؟

في الرباط، تركتُ الصّدام الذي آمن كل المعطلين أنه قد يقود إلى العمل واتجهتُ نحو الدار البيضاء لأترحّل فيها وأبحث عن عمل حقير وأتعذّب. كنتُ لا أحقد على من يَسلِبُ حقي أو يضربني هنا أو هناك، لم أستطع أن أكره البوليس في الرباط رغم عنفهم، لم أحقد على الباعة الذين يَتنافسون معي ويعرفون قانون الجسد والطبيعة في الدار البيضاء. كنتُ أشبه بعمّ سهام، السياسي القديم، الذي قَضى زهرة شبابه ظُلما في السجن، بسبب آرائه خلال السنوات البعيدة. رغم ذلك قال إنه سامح الجميع بعد خروجه. قال لي وهو يحاورني، حين قادَتْني الحبيبة إلى مسكنه بالدار البيضاء:

- إن حبّ البلد ضرري رغم قسوته عليكم.

قال كلاما كثيرا عن تجربته مع الألم. حدّثَنا عن ظلام السجن وجحيم الغربة، وعن الحاجة إلى حبّ الوطن رغم الصعاب.قال هناك فرق بين الوطن والسلطة، وأنا أرى الشباب يخلطون.لا تخلطوا الأمر..

- رغم ما يبدو لكم من ظلام. سوف تتهذّب مشاعركم تجاه الوطن، وستعرفون أنّه لا مفرّ لكم منه.أحبّوا وطنكم يحبكم..

كلام شعري جميل، قلتُ لنفسي حين خرجنا من منزله.كان يتكلّم كزعيم يخطب في التلفاز. في كلامه الكثير من الحرارة التي أسبَغَتْ عليها كهولته المتأخرة وقارا وحكمة.. مع ذلك، ظلّ يعتمل في قلبنا ما يعتمل لأننا المكتويان بنار لا يراها..

عشتُ في الدار البيضاء، وعانَيتُ بعد رحيل سهام، ولم أستطع

أن أفهم كلام عمّها ولا أن أتواطأ معه. سألتُ نفسي مرارا، وأنا أجول بين الدروب البيضاوية بائعا متجوّلا: كيف لي أنْ أُحبّ وطنا لفظني مثل شيء تافه مهمل؟ما هو الحب؟ أليسَ إحساسنا بالدفء والاطمئنان؟ أليسَ المشاعر المتبادلة؟ هل يمنحني الوطن سوى برد الطرقات وحزن وألم الليالي؟ فلِمَ أحبّه؟ رغم كل هذه الأسئلة التي كانت تعصف برأسي، ورغم الحزن لم أستطع أن أكره الوطن، لأن الحبّ والكره ليس اختيارا. كان قلبي نظيفا مثل قطن أبيض، وحين هاجرتُ إلى أوروبا، كنتُ سعيدا بعد أن قبضت علي الشرطة. كانوا يتعاملون مع أمري بجدّية بينما أضحك. لم أحتج، حتى أنني كنتُ متلهّفا لمعانقة البلد بعد أن شحنوني من جديد..

في علاقتنا السريعة، بين سلا والرباط والبيضاء، كانت سهام امرأة صموت.لا تتكلّم كثيرا. طباعها وقتذاك كانتْ عجيبة. لكنها حين تقرّر أن تتكلم، تُبالغ في ردة فعلها. كانت تقول كأنّما تخاطب نفسها:

- الحزن ليس جيدا للعُضوية.

وفي لحظات أخرى، تتأمل اكتئابي وتقول وهي تستعير كلام حسن، زميلي في المسكن، الذي يستيقظ مع الفجر ليقرأ الأذكار والأدعية:

- الغضب من الشيطان.

وساعاتٍ تقول وهي تحضنني لتخفّف عني:

- حين نغضبُ يُفرز جسمُنا سموما تفتك بالخلايا.

لكنها كانت تغضب كثيرا.أكاد أسمع صوت غضبها.أسمع أمعاءها وهي تتحرك وتُحدث الضجيج حين يصادفنا موقف سيء لا ترضى عنه، خصوصا بعد المعارك التي نخوض في شوارع الرباط وأزقّتها هاربين من عصي البوليس..كانت تحبّ الحياة والانطلاق فتُعيدها قيود البطالة إلى الأرض وتكبّلها. أراها كثيرا مُغتمة وحزينة فأُسرّي عنها وأحكي

لهـا نكتـا عـن العطالة والمعطّلين ثم نتمشـى في شـوارع الرباط ونتفرّج على المحلات فتشْـتهي الملابس والعطور وتعود إلى حزنها. تقول لي وهي تمسك بذراعي:

- تخيّل أن تلك السيارة دْيالْنَا، أين يمكن أن نمشي؟

أجيبها:

- قْنِيطْرَة.

تقول لي:

- لا لا لا، مالَـكْ عْروبِـي؟ قْنيطـرة قْريبـة. قُـولْ بَعْـدا فـاس؟ أو طنجة؟

- ومَالْها قنيطرة؟ مدينة جميلة وتستحقّ أن تُزار..

ثم نلعب اللعبة ذاتها مع أزياء كثيرة وأطعمة ومقاهي. نتخيّل نفسينا في أمكنة جميلة، هادئَين مُتَنعّمَيْن مرتاحَيْن للحياة الأنيقة..وحين تتعب تعود إلى وجومها وأراها أكبر من سنّها..

في حياتنا القصيرة معا، لم نسأل عمن فعل بنا هذه الأفعال.لكنني ارتحـتُ إلـى روح البنـت وجسـدها خلال تلك الفترة التـي تهرّأتْ فيها مجاديفـي، وكانـت وطنـا ثانيـا أأْنـسُ إليه بعد أن ضيّعنـي وطني. كانت فتاةً مُختلفة في الكثير من ملامحها. وفي سلا تبادلنا أول قُبلة أمام نهر أبي رقراق، وركِبنا مراكبه الصغيرة وأكلنا "سَنْدْوِيشَ" الكفتة، ولم تُمانع كثيرا أن نذهب إلى الغرفة الصغيرة..

فـي سـلا، فـي الكوخ الـذي اكتريتُ رفقـة أصدقائي المهووسـين بالنقـاش فـي كل لحظـة، لم نبـذل مجهودا كبيرا ونحـن نتعانق ويلتَحِمُ الجسد بالجسد. في العناق شهوة لا تُضاهى، والعناق حوار أصيل يقود إلى المعرفة. تَحايلنا قليلا على الحبّ لأن الحياة صعبة، لكنه سُرعان ما أدخَلَنا إلى حُضْنِهِ راضين مرضِيّين. عصفورين طليقين في سماء الحبّ

كنا، تُكثّفنا أغلالُ سـلا ويغمرنا غُبار شـقائها أحيانا لكننا نجاهد. كانت المدينة تبدو لي حين أستَيْقظُ فيها على إيقاع صخب الشـوارع وحركة الناس وزَعيق السيارات بأنها أكثر من قرية وأقلّ من مدينة، تاريخ مُبهج من الألوان والسُّحنات والتفاصيل يمضي على عجل ولا ينتبهُ له أحد.. أجول فيها رفقة الحبيبة وأُساوم وأنغمسُ في الحركة، وكان يخفتُ في أسواقها ودروبها الحزن الذي يغطّينا حين نرى البسطاء يعيشون حياتهم بعيدا عن تعقيدات فرضتها الحياة. كانت سلا مدينة بروح شعبية لطيفة تحضن الغريب وتربّتُ على رأسه..

في سـلا نمنا معاً وصحوْنا معاً وأكلنا وَتَقَهْوَينا معا. وفي كل مرة أعود فيها إلى حضنها، كنتُ أنسى همي وأنام.. تواطأً رفاقي في السكن، وأصبحوا يتغيّبون طويلا عن الغرفة، وحين أخرج لإيصالها إلى المحطة، ألمحهم في الزقاق فأشعر بامتنان لهذا التنازل..كان عاطف يُحيّي العلاقة ويقـول إن علـى الإنسـان أن يحـبّ ويلتـزم، وكان يذكّرني دائما بنماذج للحـب الأسـطوري، وبيـن الفينة والأخرى يسـحبُ كتابـا لا أحد يدري من أين ويبدأ في القراءة عن تجارب تُلهبُ حماستي..

يجلس عاطف على ضفّة النهر ويحكي تاريخ سـلا المجيد الذي يمتـد لآلاف السـنوات، يحكـي عـن الرومـان والأمازيـغ والأندلسـيين والموحّديـن والمرينييـن والبرغواطييـن الذيـن عمّروها..يقـول إن سـلا خزّان تاريخ. يتحدث وهو يشير إلى سور سلا عن الأبواب. يحكي عن سبب تسميّة الأبواب. يحكي بمحبة عن أدوار هذه الأبواب في التاريخ القديم..ثـم يصمـتُ ويقـول بحسـرة إننـا لا نحبّ مدننـا ولا نعرف أنّها كائنات تتألّم مثلنا. يقول إنّ الكثير من البؤس يطالها فقد أصبحتْ المدن مثل أورام إسمنتية بفعل هجوم الناس عليها.يسأل إذا كان الذين يقترفون مثـل هـذه المبانـي يحبّـون الوطـن! كثيرا ما كنّا نناقش المـدن التاريخية

المغربية، كيف أصبحت عرضة لكل سوء، وحين أقف بالحي القديم، وأنا أجول ليلا بهذه المدينة الصغيرة التي تحضنني مثل أم، لا يُفارق ذهني كلام عاطف...

في دروب الحي القديم، تنتابني الرغبة في السُّرى والحكي فأصحو فجأة.أسير مع عثمان وأحكي حكايتي عن الرباط والدار البيضاء ورحلتي في البحر..وأحيانا أسير لوحدي وأتذكّر تاريخي الشخصي لأجدَ خللا بين فصوله لعلي أفهم حكايتي مع سهام..

أحكي لعثمان بتفصيل دقيق مستعملا يديّ وتعابير وجهي ويستفسر عن الأمور ليستزيد. نتعب ونكتشف بأنّ صوتينا يعلوان على هدوء المدينة. أحكي له، وأحيانا أحكي لنفسي، كيف غادرتْ سهام الدار البيضاء وتركَتْني. كيف اختلطت الصور أمامي، أصبحتُ وحيدا في عتمة الدار البيضاء. وكل القيّم لم تجد.أصبحت الدار البيضاء تهزأ بي وبحزمة الأفكار التي حشوتُ بها رأسي عن الأمل والحياة الجميلة. قالت لي، بعد أن تعبَتْ، قبل أن تودّعني وتسافرلتربح حياتها:

– أنت تفترض أننا سنكون بخير حين نستمر معا. لكننا عاطلان وسنُعاني دائما.أنت تفترض. وأنا خرّيجة "السوسيو". وفي "السوسيو" لا نفترض.(كانت تَنطق السوسيولوجيا مختصرة)...

غادرتْني الحبيبة واتجَهتْ إلى مدينة سياحية بعيدة كما خمّنتُ، كي تعمل في فندق "فَايْفْ سْتارْزْ". بتُّ ليال طويلة أحلم بها تسير وتتهادى وسط الفندق وعيون الرجال تأكلها. حين أكون مهموما بأمر ما أجعله جَللا، وهو ما لا يُساعدني على النسيان.جاءت صديقة لها لم أعرف عنها من قبل وانفردَتا. سمعتُهما تتحادثان عن الأمر في مقهى صغير، وحين اقتربتُ من طاولتهما سكتَتا. رأيتُ عينيْ صديقتها تغمزان بتواطؤ مريب، ثم تضحك بفجور، وحين تواطأتْ معها حبيبتي وضحكتْ

شعرتُ بأنها قد تغيّرت أكثر وبانت لي شفتاها غليظتين لأول مرة.. رأيتُ تسريحة شعرها مختلفة وطريقة جلوسها على الطاولة فعرفت أنها تتغيّر في غفلة مني وأنّها ماضية إلى مصير آخر..

ثم فاتَحَتني في الموضوع. جلستْ على حافة الفراش القصير الذي تهرب منه ساقانا حين نبالغ في الحركة، بعد سفر قصير بين الجسدين، عدّلت شعرها كما تفعل عادة، خَلّلته بيديها مَتينا، نظرتْ إليّ وأخبرتني بقرارها..كانت قد أعدّت دفاعها جيدا فاتّهمتني قبل أنْ أقول أي كلام بأنني رجل يريد كل شيء دون مقابل، وأنني افتراضي كبير.ثم عالَجَتني بتهمة المشرقي الذي يختبئ وراء الشعارات. كنتُ صامتا طوال الوقت وأنا أسمع هجومها، عرفتُ أنها قد قرّرت، لذلك تركتها تسافر لتربح حياتها وبقيت في البيضاء قليلا لأخسر حياتي..

خسرتها وأنا أسير في المدينة أبحث عن العمل لأطفئ الغضب، وخسرتها وأنا أعمل كالبغل طوال اليوم. وحين أتذكر الحبيبة أبحث عن جسد أطفئ به شوقي، ثم أحسّ القرف والندم والذنب والخوف وتتوزّعني الظنون...

في ذلك اليوم البعيد.يومَ افترقنا على باب محطة كَزَافْوَايّاجُور ورَحَلَتْ، أحسستُ أني يتيم الحبّ والعمل والحياة.يتيما في المهبّ. لكنني تماسكتُ وواصلتُ الحياة وحيدا في "كزابلانكا".مثل بطل إغريقي قدرهُ أن يصمد طويلا..

في أيامي معها، كنتُ أطلّ على وجه الدار البيضاء باسما رغم المصاعب، فالحبّ يُجمّل المآسي ويجعلنا نلتحم بقدرنا مثل أبطال الملاحم القديمة. ثم أصبحتُ أطلّ بدونها على آلام المدينة ويحرقني فيها وأنا أتسكّع بائعا متجولاً تلك المشاهد التي تنفذ إلى بصري، أقارن مأساتي بمآسي البسطاء في كل مكان. أسير بين دروب الأحياء الشعبية

لأبيع السلع للناس وأقول لنفسي:

– يا رجل، يا مَهْبولْ. انظرْ نظراً بسيطا من علِ كي لا تحزن. من نافذة العين فقط انظُرْ. أنظرْ ولا تَعِشْ، بعقل المتأمّل لا تعِش، بعين السينمائي أنظر ولا تلتحم بالناس فقد تتعذب ولا تستطيع إلى جسدك سبيلا.لماذا تركْتَ عينَ الباحث وارتديتَ رداء العاطفي؟

أرى عيوب الدار البيضاء في كل مكان وأتماهى معها وأتخيّل نفسي وسط المعمعة. أطحن أفكاري وأتخيّلُني بَطلاً يستطيع بلمسة سحرية تجنيب العالم الخراب والجنون. أحنو على امرأة تنبش الأزبال عند الصباح، لتبحث عن خبز يابس أو فاكهة أخطأتها يدُ خادمة الأغنياء. أرى كيف يستيقظ عمّال البناء عند الفجر، يُفطرون على الخبز الحافي والشّاي ويحفرون الأرض بأرواحهم. يعملون طوال اليوم وقد لا يحصلون على أجرهم في نهاية المسير لأن رب العمل غائب في حفلة أو سفر فيقهرهم الجوع.أرى معاملَ تُغلق وأسراً تُشرّد وعاملات يتحوّلن من المعمل إلى الشارع لبيع الجسد، ألتحِمُ بكلّ الناس وأحنو على أوجاعهم التي لا تختلف عن أوجاعي.. اشتغلتُ بناءً بعد أن مللتُ التجوال وعانيتُ وكنتُ أعيد نفس التجربة، أستيقِظُ صباحا لأنتظر في موقف العمّال مثل عبدٍ من القرون الغابرة ينتظر سيّدا ليشتريه، وحين يومئ لي صاحب سيارة أن أصعد (لينقلني لأعوّض رجلا غاب أو طُرد من "الشَّانْطِي") أركب وراءه منكسرا..في معمعة البنائين أصبحتُ أصعد الخشب اليابس بعد تصفيفه في أعلى البناية لأحمل الآجر و"الزّليج" وأسمعَ السّباب الخارج من فم المْعَلَّم، وكثيرا ما كنتُ أعرُج من مسمار يصبني أثناء العمل، فأضرب الرِّجل بلوح مكسور غير محفوظ كي يخرجَ سرابُ المساء مع دمي الملوث، ثم أسير وأعرُجُ في النواحي والدار البيضاء لا تداوي بل تعمّق الجراح. في الشوارع أعرُج وفي

الممـرات أعـرج والضـوء يدخـل في الضـوء والليل يزاحم العشـي وأنا أحـسّ بالوحشـة فـي مدينة لا حنين فيهـا ولا رحيم..لم أكن راضيا عن الدار البيضاء، لم أكن راضيا عن وطني.أصبَحْتُ أكره الوطن حتّى غدا حبّ الوطن مجرّد نشيد مدرسي تافه متقادم...

أتوقّف قليلا وتخفتُ حماسـتي وأتأمّل وجه عثمان المشـدود إلى كلامي.أطلـبُ هُدنـة فيومئ برأسـه ويفتح قنينـة الماء ويضعها بين يدي. أدلقها في داخلي كمن جفّتْ عُروقه وأواصل الحكي ففيه مُتعة وتنفيس..

أحكـي كيـف مضـى الوقت بين كـزا والرباط. كيف كنتُ أشـتغلُ فـي الـدار البيضـاء وأعيش إيقاعها، ثم أتوجّـه لأواجه قوات الأمن أمام برلمـان الربـاط وفـي الليـل أحلـم بحبيبتي التـي غابت..وحين يئسـتُ، تدّبرتُ أموري وسافرتُ إلى أوروبا لأربح حياتي أيضا..

مـع سـهام كُنـت رغم العطالة قد بدأتُ أَتَرتّـب، لأن الحب يُرتّبُ الـروح. لكـن هَجْرَهَـا لي أوقعني فـي حفرة..اجتمعـت البطالة والخواء عدوّين فترنّحتُ وسقطتُ في حفرة الحياة..

توقفتُ عن السـفر إلى الرباط لأن تلك التجربة تتكرّر ولا سـبيل سوى السراب. في المنتصف.أدور في حلقة فارغة قررتُ أن أربح قوتي كيفما اتفق.فالمعطّلون في الرباط يعيدون نفس الحياة البائسـة، والمرأة التي كانت تشـدّ عضدي ولو بكلامها هربت، أما الدار البيضاء، فكانت جحيما لا يطلع منه أمثالي، لذلك اشتغلتُ في كلّ الحقارات كي أبري روحي وأشحذها مثل قلم أو ذئب بري..

في الدار البيضاء، احتلتُ على الإيقاع، كان لا بد أن أنسى فعرفتُ العديد من النساء.أسماء كثيرة لم أعد أتذكّرها.كائنات تشاركتْ معي همّ الحياة. فتياتٌ يُلقي بهنّ وادي الحياة كلّ يوم بعد تجربة عابرة في القرى المجـاورة التـي تزحـف الـدار البيضـاء عليها وتنقل إليهـا أحلاما ونوايا

جديدة دون أن يُرافق ذلك تغيّر يصيب الجسد والعقل..كائنات تسكنُ الأكواخ والدروب الضيقة في الدّواوير القريبة والبعيدة وتعيش القسوة والمرارة. كانت الفتيات من كل دوّار تأتين إلى المدينة وفي عيونهن شيء مشعّ لا يلبث أن ينطفئ. تجئنَ في البداية هربا من أب مُتجبّر طاغ يحفظ الشرف أو بعد تجربة عابرة تركَتْهُن على الرصيف وغاب بطلها إلى غير رجعة أو بعد اغتصاب عِشْنَهُ في حقل أو وسط نبات الذرة. كانت كزابلانكا، الغول الذي لا يرحم، يبتلعهُن تماما ويشحذ أرواحهن بألم لا ينطفئ. تجيء الواحدة منهن في البداية وفي وجهها شهوة الدنيا، وحين تعجنها أيدي عمال قادمين من قرى وصحارى مجهولة وتَفْتَرِعُ جسدها ليالي السبت المتوالية تُصبح مثل نمرة مجروحة. ثم سرعان ما تعرف كيف تساوم قبل بيع الجسد وتعرف كيف تَتصرّف وقد ألقتْ بها الحياة في المجرى. كثيرا ما تجيء إحداهن بعد أن تُغرّر بها صديقة، تَعِدُها بما لن يستقيم فتركب الحافلة. تصل وتكتشف البؤس والكوخ وليالي الألم فتندم لكنها لن تستطيع العود.فقد أحرقت مراكبها مع أهلها في القرية..

تلمع عينا عثمان عندما أذكر التفاصيل فيسألني كيف كنتُ أعرفهن فلا أبخل عليه بجواب وأسْتَرْسِل:

– في محطة الحافلات وفي الأسواق. وجوه بدوية صغيرة مغطّات بالندوب غالبا، أرى إحداهن تنزل من حافلة متهالكة قادمة من قرية منسيّة. أكون مارّا في صباح أو مساء قرب المحطة أو السوق الصغير بالحيّ الشعبي حيث أسكن فأراهن. أرى في وجوههن خوفا من تلك الوفرة التي يجدن أنفسهن فيها. يحيط بهنّ الناس والسيارات فيلفهنّ الضياع.كنتُ أجالسهن على الآجر وفوارغ الإسمنت ونطلُّ من ثقوب المباني التي لم تكتمل على حياة الناس والبرد يلسعُ أرجلنا

ونحن نغيم في السّديم..

ثم أستيقظتُ يوما على التغيير وفاجأتني الحياة بخلاصات جديدة. بعد هذه التجارب، لم يمرّ وقت طويل حتى عرفتُ "الشّعيبية" وجسدها الغليظ.غفوتُ في قطار حملني إلى الشمال، بعد أن سلّمَتْني المرأة الغليظة تذكرة وأوصتْ بي خيرا ابن عمها الذي يُعين الناس على بلوغ الضفة الأخرى.

سمعتها تكلّمه في الهاتف قبل أن ترمي به بعيدا وتجيء نحوي، كانت تحبّني وحكايتي معها بدأتْ بسبب العطر..

- بسبب العطر؟!

يسأل عثمان من جديد ويتعجّب. يُخرج ورقة وقلما ويبدأ في التدوين فأنبّهه إلى أنّ كلّ هذه الحكايات مدوّنة سلفا وأنّ عليه ألاّ يُتعب نفسه فيتوقّف.

أحكي له كيف كنتُ بائعا متجوّلا في الدار البيضاء بعد أن طوّحَتْني السبل. كنتُ أبيع العطر ومواد التطهير وحاملات المفاتيح.. ثم توقفتُ عن ذلك وأصبحتُ أراقب جسد "الشّعيبية"وهي ترشّ العطر وأنتزع منها العلبة وأرشُّه في كل مكان. لم تكن المرأة تكرهُ رائحتي بعد العمل والتجوال في الدروب، حتى وأنا أرغبُ في الاغتسال من عرق العمل تقول لي لا تهتم. تُمسك اليد التي وسّختها دروب المدينة وتقودني إلى الجسد، وبعد أن جرّبتُ كلّ حقارات كزابلانكا، أصبحتُ أجرّب نعيمها. كانت تَضُمّني وتَتَشمَّم عرقي، فتتحرك "دمالجُها" الذهبية الكثيرة وهي تبوسني.أسمع موسيقى عجيبة لحركة اليدين.ترشّ العطر على جسدها فأنتزع القارورة من يدها وأرشّ العطر على وجهها فنضحك وأنسى همومي..

امرأة تعرف جيدا ما تريد وما ينبغي. ترقصُ في الأعراس وتزهدُ

في كل الرجال الذين يحيطون بها. تتحرّكُ على أنغام "السّتاتي"، المغني الشعبي حين يتحدّث عن "الفيزا" و"الباسبور"... تسكُن حي "بُوركون" الجميل العامر بالشقق الفاخرة، وعندما تنتهي من العمل آوي إلى حضنها..

حين كنتُ أجول في الدار البيضاء باحثا عن غرفة، رافقني شاب يتوسط للمكترين. جرّني من يديّ إلى بيت صغير تملكه "الشّعيبية" ويسكنه العزّاب ثمّ سرعان ما ظفرتْ بي..

تتحرّك "الشّعيبية" فيراها جميع من في الزقاق ويتأوّهون. رَأَتني أوّل مرة وأنا أتفقّد الغرفة فطلبَتْ مني أن أُعينها على حمل بعض متاعها إلى السيارة، ثم طلبتْ مني الصعود قائلة إنها تسكن الطابق الثاني ولا تستطيع حمل أي شيء ثقيل.

بعد وقت، أصبحتْ تتغاضى عن كل النظرات وترقصُ لي وحدي في شقّتها الواسعة حين تقودني إلى العمق، أقودها على أنغام "السّتاتي" عارية إلى فراشها الوثير ونغوص في أحاديث طويلة عن تجاربها وعشّاقها الذين لا تتحرج من ذكرهم أمامي ثم يقودنا الحديث إلى أوروبا التي تحمي أمثالي ممن رمتْ بهم الحياة على حافتها. وبعد أن مرّ الماء طويلا بيننا، تناولتْ هاتفها، وكلَّمَتْ ابن عمها واسْتَوصَتْهُ بي خيرا..

في حيّ "بوركون"، قرب المسجد الكبير، وصوت البحر الهادر، عرفتُ جسدها الغليظ وضمّني. تنزع المرأة كل ملابسها وتترك الدَّمَالِج فأسمعُ الموسيقى ونحن نُعالج المسير. تضمُّني فأغدو في حضنها مثل طائر صغير. أنا الذي دَعَكَ الزمن جسده حتى غدا هزيلا. أمام جسدها الأربعيني، لم تكن لي من حاجة لأي مجهود، كان جسدا متلألئا كامل الأوصاف. أَدْخُلُهُ بجنون الهارب من الدار البيضاء فتمسك شعري وتقودني إلى داخل الرحم وأنسى سهام التي سافرتْ قبل أيام قليلة

لتربح حياتها بعيدا عني..

فـي الحـي الجميـل، قرب الكورنيش، عرفتُ "الشّـعيبية". لم يدلّ اسـمها البسـيط القـادم مـن القـاع على أيـة قرابة مع الحي الذي يسـكنه الذوات.عرفتُهـا لوقـت قصيـر ثـم بفضلها هاجرتُ إلـى أوروبا. ولأنني تدرّبتُ معها طويلا على رياضة الحياة، فقد أدركتُ تماما ما يعنيه حنان الغليظات، وهو حنان سأستفيدُ منه مليا بعد ذلك وأكتُبُ عنه بهمة وأنا أعدّ للمهدي مقالاتي حول النساء والحب..

شقة بأثاث رفيع، في الطابق الثاني، ورائحة بحر "كزابلانكا" قريبة مـن الأنـف والحلـق. "الشّـعيبية" امرأة لا تشـبع. نظـلّ مدثريْن بالغطاء طوال الوقت حتى بدأتْ عظامي ترتاح للوضع. تتحرّك كل مسـاء على إيقاع "السّتاتي" وهو يغني عن "الفيزا" و"الباسبور"، تضحك كثيرا بعد أن تنتهي من الرقص وتقول إنّها سعيدة بي..

في الدار البيضاء، تتلألأ المسـاءات أمام عيني باسـتداراتها التي لا تنصِف.شروخ روحي تَتَمَلْمَلُ في الشوارع البالية العامرة بقطع الكرتون والأزبـال التـي أتْعَبَنـي منظرهـا، تمرّ السـيارات الباذخـة أمامي فتضّمني "الشّـعيبية" وتحوّل بصري عن حقارة المدينة وتقول لي لا تتوغّل فأنا أعرف شابّا أصابه الخبل لأنه درس أكثر مما ينبغي.قَالتْ لي "الشّعيبية" لَقْرايَـة كتْحمّقْ.تقـول لـي الدّرَارِي اللّي قْرَاوْ معَنْدْهُمْ زْهَرْ. ثم تعبتْ من عواصفي فقالت تحرّك واحْرق أوراقك لأن حظك تعيس في هذا البلد. نْتا عَنْدَكْ التّابْعَة.. قالت الشعيبية يوما كأنّما قرأتْ مصيري.

كان الزمن رجراجا يعذّبني ولم أنعم بهناء. أحسّ بأن حياتي على غيـر مـا أرْتَجيها.تجيئنـي لحظـات حـزن عميق تقصم روحـي، رغم أن المرأة أعدّت لي وضعا مريحا..

بعـد أن توادعْنـا، قطعتُ المسـافة بين "كزا بلانكا" و"طنجة". في

جيبي ورقة قطار مَنَحَتْني إياها بعد ليلة طويلة.استلقيتُ في القطار على الكرسي أفكّر في مصيري.جلس بجانبي شاب أسود من خارج البلد، كالميت يستلقي. رجله محشورة في رقعٍ بيضاء تشبه الضّماد، رائحتها قوية نفاذة، كان نائما وكلّما استيقظَ يسألني هل وصلنا إلى طنجة؟ وأنا الذي لم أسافر إلى طنجة من قبل قلتُ له ليس بعد، فالقطار حين يصل طنجة لا مجال أمامه سوى البحر، لذلك سيلقي بي وبك.أنا لألتقي ابن عم "الشّعيبية" وأحرق. وأنت؟ أسألُهُ عن حاله وما يُريد من طنجة. أحاول أن أفهم فأعرف أنّه مثلي سيسافر لكنه كتوم. لم يشأ أن يقول لي أيّ شيء في البداية، لكنه باح في النهاية بكل ما عنده. شابّ من غانا جاء هاربا من القحط والجفاف طامعا في النعيم مثلي..

انتظرْنا في المقهى. وحين جاء ابن عم"الشّعيبية" غضب مني. دعاني إلى مكان بعيد قليلا ثم فاجأني بالصراخ والسّباب لأنني لم أتقيّد بما ينبغي من تعليمات. شرحتُ له أن الرجل لا خوف منه، وأنه مثلي يريد السفر، لكن حاسّة الحذر لدى الوسيط تيقّظت وهو لا يرغبُ في أية مفاجأة.

المسافة بين طنجة وكزابلانكا ضرورية، لا يعفيني منها أي إحساس. ورِجْل الشاب الإفريقي مصابة ومُقرفة رائحتها. قال لي إنه جاء ماشيا من بلد بعيد. بعد أن كاد أهل قريته يأكلون الجيفة.أخبرني أنه يفضّل الموت في البحر على العودة.

دوّخَنا الوسيط يومين كاملين قبل أن يلقانا من جديد، ثم لم يَعُدْ يلقانا وأصبح يُرسل في أثرنا صديقه الذي أصبح الرسول.هو ومعاونه لا يجتمعان في مكان..رغم أن واسطتي قويّة..

قادنا الصّاحب يوما إلى مقهى مكشوف على مساحة جرداء لا حياة فيها، وتَركَنا قليلا ليفاجئنا السمسار من جديد..قال:

- عودوا إلى مدنكم فالسفر بعد شهر.

لكننا لم نعد. لا مكان نعود إليه. فكّرتُ في أنّ أموري جميعها تعود إلى نقطة الصفر.ثم فكّرَ فحلَّ مُشكلتَنا. أمضينا شهرين في قبو للانتظار.

مضت الأيام بي هناك في طنجة، ثم قُضيّ الأمر وسافرنا إلى اسبانيا.عدتُ خائبا. مات في تلك الرحلة من مات وبقي من بقي، أنا الذي اختبرتُ الموت قريبا وصاحَبْتُهُ تشكّلت عندي في الداخل صور لم تغادر..و حين عدتُ محشورا في الطائرة مثل أي متاع لا يرغب فيه أحد. اتصلتُ بالمهدي فدعاني.وصلت إلى هذه المدينة الصغيرة وكان في انتظاري.

يبدو عثمان شاردا عند هذه المحطة. يتعبُ ويكتفي بهزّ رأسه موافقا على كلامي، أما أنا فأسترسِلُ كما لو كُنتُ أُحدِّثُ نفسي. أقول إنني طالما اعتبرتُ الحياة سلة من الأوهام.غرفة صغيرة نحشر فيها أنفسنا ولا نريد أن نسمع بعد ذلك أي شيء، لكن الحياة بين الفينة والأخرى توقظنا من النوم.أتذكرُ كيف جعلني موت الأصدقاء في "الباطو" يائسا جدا. لقد عشت تجربة آلمت روحي، أصبحتُ رجلا مرتبكا، فهل تفهم سهام ما يؤرقني ؟ هل تفهم ذلك؟

أهزّ عثمان كي يستيقظ من شروده العميق وهو يسير مثل سكران. نقطع الطريق خارج الحيّ القديم ونعبُر باتجاه البحر أو باتجاه منزلي، وعند المفترق يودّعني فأسمعُ صوت خطواتي في الزقاق وآنسُ بها ولا تفارقني التفاصيل الملتفة حول عنقي مثل حبل طويل..

قال المهدي في أوّل لقاء بيننا، إنّه يتوسّم فيّ خيرا كثيرا، وإن صداقتنا مهمة بالنسبة إليه، ودار كثيرا حول الموضوع قبل أن يَخلص إلى ما أراد. حدَّثني عن عملي معه في الجريدة وضرورة اكتشاف آفاق

أخرى والاستفادة من الحرية التي أصبحت موضع النقاش..

لم يخف سروره بقبولي.وقبل أن نفترق في نهاية الشارع، في اليوم الثاني من وصولنا للمدينة، قبل أن يركب سيارته الحمراء، لأستمرّ في المشي كما رغبت لتنظيم أفكاري. وضع يديه في جيبه وأخرج مبلغا من المال ودسّه في يدي، ثم ركب سيارته ومضى..وحين ابتعدتُ ظللتُ أفكّر في السبب الذي يجعل رئيسا يطلب من مرؤوسه القيام بمهمة من صميم عمله بكل هذا اللطف والمراوغة مهما بلغتْ صداقتهما من عمق. أليسَتْ مهمتي هي الكتابة للجريدة؟ لماذا يبدو المهدي إذن مرتبكا ومهتما به وكأنني سأسدي له معروفا خاصا؟ ثم إنّ المهدي لم يكن يوما صديقا لي. لقد كان مجرد زميل دراسة يجاملني في الممرات..

أفتح باب منزلي وأصعد الدّرج ببطء مثل منْ يُصوّر اللقطة الأخيرة في فيلم، وأسئلتي عن المهدي وطريقته في الحديث يوم ألتقَينا أوّل مرة لا يُفارقانني..

(5)

كلّ أثاث يدخل الدار، هو دعوة للاستقرار والهدوء وترك الترحّل والانتقال من مكان إلى مكان."الفوتوي" الذي نمنا عليه يدعو للاستقرار، وسهام اشترتْ لي "فوتويا" قديما لتجعلني أَسْتَقِرُّ وأبقى معها أبد الدّهر حتى يحين علينا موعد لا نكون فيه شيئا مذكورا. وهذا ما اعترفتْ لي به في أمسية باردة أمام التلفاز، حين خفضت زمام الصوت وألقت بكلامها دون أن تترُكَ للفيلم فُسحة لينتهي. وفي مثل هذه الأمسيات التي يكون فيها الاعتراف سيد الكلام، ننام على "الفوتوي" متلاصقَيْن، فتتدثّر جيّدا بالغطـاء وأفـرح لأن البرد يناسـبني. أكون مفيدا في البرد ومِعطاء فتفرح سهام لغزارتي وتمسك وجهي بيديها وأرى في عينيها نظرة الوله الذي لا شفاء منه.

على "الفوتوي"، نتعانق ونسـمع الموسـيقى. نسـمعها لوقت طويل وتتدافَعُ. ندفع معنا خشبة المُيُول والأهواء في دواخلنا.نرَجْرِجُهَا لنصل إلـى منتصـف مفيـد يفعل فينا ويُهـذّبُ الحواس لتفرح في ليل طويل لا نعرفُ له آخر.وقد فعلناها طويلا لنربح الحياة الدنيا وملذّاتها.

هيّ تحب الأغاني الشـعبية التي تُذكّر سـامِعها بالقرى البعيدة على سفوح الجبال وحافلات المسافات الطويلة التي تعبر في الظلمات باتجاه الأقاصي، وأنا لا تزال عالقة بذهني أغاني الجامعة، وأغاني أصدقائي في سـلا. تختلط في ذهني موسـيقاي وموسـيقاها. خليط يراه عثمان مُضحكا لكنني أراه متناسـقا بطريقة ما فنحن نكمّل بعضنا ونصوغ صورة لبلد لا ينتظـم فيـه المجـرى، بلـد يعيش كلّ شـخص فيـه على مِزاجـه كأنّما في كوكب مختلف ويُجبرُ الجميع على التواصل مع الجميع وقبول الجميع...

أغنيّة واحدة كنا نسمعها معا ويتكرّر حنيننا لجوّها. نصمت لنسمعها ويتذكّر كلّ منا ما يريد. وإذا كانت الأغنية تستدعي في داخلي ذكريات الدار البيضاء والبحر فإنّني لا أعرفُ ما الذي تستدعيه في دواخلها.حين يغني المغني "السّتاتي" عن "الفِيزَا" و"البَّاسبّور" نسمَعُ له ونصمُت. ورغم أن سهام لم تَسْتَسِغْ في البداية كلّ موسيقاي، إلا أنّها أحبّتني وحاولت الاقتراب من عالمي وكانت بدورها تحاول أن تُحبّ "ناس الغِيوان" وأغنية " مَهْمُومَة"، لأنّها تحكي حالتها، كما تقول. تقف أحيانا في منتصف الغرفة وتطلق شعرها وتحرّكه يمنة ويسرة وفق مزاج الأغنية مثل هداويّة في سوق شعبي.أضحك وأقول لها أنا المهموم وليس أنت، فتغضبُ دون سبب مُقنع وتتهمني بالجهل لأنّ همها مثل الجبال وأنا لا أريد أن أعرفه..في الحقيقة، لم يكن مزاجي يوما يسمح بمعرفة همها، لأنّ ما لديّ يكفيني، لهذا كُنتُ أتصنّعُ الفهم وأبتسم ولا أطلبُ منها شرحا وهذا ما قادني على الأرجح إلى سراديب الخواء..

الفترة التي قضّيتُ في الدار البيضاء كانت كافية لتنْغرس أغاني " ناس الغيوان"و "جيل جيلالة" في قلبي رغم أنّها أغان قديمة، لكنني كُنتُ أسمعها على ضوء الشمعة ودفء الحطب مع عمّال البناء في ورشات العمارات الكبيرة التي اتّسَعَ مجالها واتّسَعَ معه ربح الشركات الكبرى التي تعدُ المواطنين بشقق رخيصة معلّقة في السماء وتسرقُ سعادتهم. وفي الرباط كنتُ أسمع مرسيل خليفة وكلّ أناشيد التغيير التي يملكها عاطف.أصبحتُ مدمنا لأن تلك الأغاني تحكي عن حالتي وتجعلني متوازنا.

في ما تلا ذلك من سنوات، بين الدار البيضاء والرباط، وأنا أجول بين الدّروب، اكتشفتُ موسيقى شبابية مختلفة، تعتمدُ على الحركة والصخب، سراويل أصحابها ممزّقة وتسقط عندما يتحركون. تَمَّ نَقْلُها

مـن بيئـة أمريكيـة خالصة.لـم تسـتَهْوِنِي كثيـرا، ولم أجد بأنّهـا تعبّر عن أي شـيء بداخلـي. فبِخِلاَفِ العنـف والانتقاد الذي توجّهه كلمات هذه الأغاني للأوضاع في أمريكا، وهي الفلسفة التي جاءتْ بها منذ البداية، تتّجه النسخة المغربية إلى هدنة لا تُلائم جوّها وتكتفي بمديح ما يحصل وتزكّيـه، وهـو مـا يُكسِـبُها صورة أسـد نُزعت أسـنانه ووُضع في قفص ليُضْحِكَ الأطفال. ثم إني بعد أن أغرمتُ بموسيقى "السّتاتي"، وبأغنية "الفيزا والباسبور" التي كادت تشكّل شعارا لجيل كامل، أصبحتُ أحملُ معي مسجّلة صغيرة وأتوجّه نحو البحر لأسمعها وأحاول من وَحْيِها أن أكتبَ عن البلد وعلاقات الناس..كنتُ أيضا أُغري سـهام بالنشـوة التي يُحدثها الإنصات للمعطي بنقاسم ولطيفة رأفت ومحمد الحيّاني، فكانت تتمنّـع ثـم تسـمع إرضاء لي حتـى دخلت الموسـيقى روحها وأصبحتْ تُهديني الأشرطة..

في هذه المدينة التي احتَضَنَتْني، أمام البحر، سوف أسمع الموسيقى في "الوِولكْمان" الصغير ثم بعدها في "الإمْبيّتروا".وسوف أحزن مرات عديـدة وأنـا أنصتُ للموسـيقى؛ وأنا أهجُرُ حبّا عابـرا حاولتُ أن أُطفئ بـه غيـاب سـهام أو يَهجرني.وأنـا مريض، أو سـكران، أو ضعيف بفعل الإحساس بالوحدة واللاّجدوى التي خلّفتْها الحياة الرذيئة، ولم يستطع محوهـا التجـوال ليـلا فـي الدروب ولا أجسـاد العابـرات ولا الاهتمام بالبحـث الـذي كلّفنـي به المهـدي ولا مقالات الجريـدة وازدياد مرتّبي ومُتع الحياة في مقاهي المدينة وصالاتها الخفيّة..

أحيانا، بسـبب همّ الوجود، أُصبحُ مثل فأر تجارب صغير لا حَلَّ لأزمته. وأحيانا دون سبب أجدُني في فراغ سحيق أهوي فيه ولا ينتهي فأخرجُ من أحلامي مسـتَحمّا بالعرق. لذلك، وبمجرّد ما أدخل شـقتي الصغيـرة بعـد كلّ جولـة فـي الخـارج، أبادر إلى الاندفـاع، دون إغلاق

البـاب أحيانـا، إلـى المطبـخ لأسـتريح. أرمي بـكل ما تمسـك به يداي وأحشـر نفسـي في مكاني الأثير؛على الكرسـي الطويل المريح للاختلاء بنفسي في المطبخ واستعادة توازني..

لكننـي مـع مـرور الوقـت، اكتشـفت مطبخـا آخر لم أنتبـه إليه في البدايـة. كانـت هـذه المدينـة مطبخي الذي آكل منـه وأعيش فيه حلاوة الدنيـا ومـرارة الحكايات..علّمتنـي هـذه المدينـة، أيضـا، أن أُعيد تذكّر أيامي وبناء حياتي، ما مضى منها وما سـيأتي، وشـحذها بالاحتمالات.. لقـد اكتشـفتُ، بعـد التيـه فـي عوالـم واسـعة، أن الإنسـان يحتـاج بعد الحركة إلى سـكون يُعيد من خلاله تأمُّل ذاته، بعد أن يتزعزعَ الكيان.. لقد اكتشفتُ –كما فسّرتُ لنفسي في لحظة صفاء– بأن الإنسان يحتاج إلى مكان يعود إليه؛ نقطة انطلاق تكون له مركزا للعودة وإلا فالخراب يلحق الروحَ والجسد!

حيـن ضعفـتُ وبكيتُ يوم وصولـي إليها، أمام البحر، كنت أتذكر حياتـي.كان السّـكر قـد بلغ بي كل مبلـغ، وحُزني تضاعفَ لأنني عاطلٌ تجرّع كلّ مرارات الدنيا، ووجد نفسه وحيدا في المعمعة..

بـدأتُ أحكِـي لسـهام مـا حدث لي فـي الدار البيضـاء وما حصلَ فـي أوربـا فـي ليالـي البرد حين ننعم بدفء الجسـد. أحكـي لها القليل وأخفـي عنهـا الكثيـر الذي قد يُحرجني..طوال فتـرة علاقتنا في الرباط، كنتُ أخفي عيوبي وأحزاني، ثم بُحتُ بِبَعْضِها. مُتَسلسلا أحيانا، وأحيانا متداخل الأزمنة.مرات عديدة في السـرير، ثمّ بعد ذلك قُربَ الشـاطيء مما جعلَ الحكي يتداخل في ذاكرتي ولا ينتظم!!

كنتُ أراوغها، أكذبُ عليها وأختلقُ الحكايات.أراها تستمِعُ بهدوء وتَشْـرُدُ، كأنّما تعرف القصة بأكملِها، أو كأنّها غير مهتمة. هل صدّقَتْني سـهام يومـا مـع كلّ هـذه التفاصيـل؟ وإذا كانـت قد صدّقتنـي ولم تُبد

الاهتمام المطلوب، ما الذي جعلها تغضب من تفاصيل أخفيتُ بعضها وتغادر بتلك الطريقة دون نقاش؟

فـي ليالـي البـرد، يَفْرغُ الزقـاق ويؤوب الناس باكـرا إلى منازلهم. نكون في الشـقة ونُغلق النوافذ. نتفرج على التلفاز أو نسـمع الموسـيقى مُرتاحَين.أحيانا تقوم من مكانها عارية وتضع بالمسـجلة شـريط المغنّي الشـعبي "السّـتاتي" الـذي يغنّـى أغنيتـه الشـهيرة عـن السّـفر. أكـره في البدايـة مـا تفعله سـهام وأغضب لأنني أريد الهـدوء ومتابعة الفيلم.تبدأُ فـي الرقـص فيـروق الجـو لي. تذهـبُ إلى المطبخ وتُحضر المشـروب وهي تغني مع "السّـتاتي" وأسـمعُ صوتها من بعيد..نسـمع المغني يغنّي عـن المركـب الحبيب الذي سـيقلّه إلـى الضفة الأخـرى، فأتذكّرُ البحر ويفاجئني الغثيان..

أسرح في الأغنية، وأتذكر كلّ الأغاني التي تغزَّلَتْ في السفر إلى الضفّـة الأخـرى بطريقة غير شـرعية. أسـمعُ "السّـتَاتِي" يقول لجمهوره المتلهّف:

" أعْطِوْنِي الفِيزاَ والبَّاسْبُّورْ. مَنْ كَزاَ لْماَرْسَايْ"

تَجـيء عنـدي وتحـاول جـرّي للرقص معهـا. نَسـمَع المغني يغني عن السـفر والحبيبة والوداع والبحر. تقترب سـهام مني حين لا أتحمّس للرقص، وجهانا يكادان يلتصقان وأتحرّك يمنة ويسرة في فوضى مُضحكة لأنني لا أعرفُ الأمور.يتغزل "السّتاتي" في المركب ونحن نرقص. أفكّرُ بأن هذه الأغنية رغم إيقاعها الصاخب أغنية حزينة، وليست أغنيّة راقصة. الموضوع أسـاس في تشـكيل الوجدان، لكن هذه الأغنية انتصرَتْ على تـلازم المعنـى وبنائـه. فكّرتُ كثيرا أن أكتب علـى صفحتي في الجريدة عن بعض الأغاني التي شكّلتْ وجدان المغاربة ولامَسَتْ شغاف القلوب وكانتْ علامة. سهام ترقص نشطة ومرتاحة وصاخبة ولذيذة وتشربُ من

كأسها فأحتاجُها. أسرح في وجهها وعُرِيها الذي لم تعدْ تخشاه معي وفي كلماتها وهي تردّد مع "السّتاتي". أحاول أن أفكّر في موضوع المقالة، سوف أبدأ بالقول إنّ عواطف الناس تموت وتتخشّبُ بفعل الفاقَة ولهذا يغرمون بالخشب ويَتغنّون به. قلتُ لنفسي مرارا وأنا أحاول أن أفهمَ سرّ هذا الغرام بالموت في البحر لدى شباب المغرب إن السبب ليس البؤس فقط، وإن كان كبيرا، بل أسباب أخرى كثيرة متداخلة، تذكّرتُ كيف أن البنات يرفُضن الزواج من الشاب البسيط، وحين يريْنَ لائحة السيارة ذات الترقيم الخارجي يُصبن بالشراهة. جهلا؟ انتظارا للأفضل؟ أغلبُ البنات يحلُمن بالسفر مع زوج "زْمَاكْري".بل إنّ الكثيرات قد يدفعن مقابل ذلك.لذلك عرف "السّتاتي" كيفَ يُؤثّر في العقول..ثم سألتُ نفْسي إن كانت هذه الأغنية، في صورة ما، قصيدة هجاء في الوطن الذي عذّبَ أبناءه حتى أصبحوا سقط المتاع ورموا بأنفسهم نحو السمك المتعطّش لدماء القرويين وأبناء أحياء الصّفيح؟ وحين استيقظُ من شرودي، تكون سهام قد تعبَتْ من الرّقص.

بعد ذلك، رأيتُ شريط "السّتاتي" على التلفاز. اعَتدتُ أن أسمعه مع سهام، ثم بدأتُ أراه على التلفاز لأتأكّد من ردود أفعال الناس وتفاعلهم معه. قرّرتُ أن أراه لأكتب عن تجربتي المريرة، اعتدتُ أن أنظر إلى الشريط وأتذكَّر أيّامي ورحلتي في البحر. أتأمّلُ تفاصيل الشريط وحركات المغني وأسرحُ...

يضع "السّتاتي" فتاتين تردّدانِ الكلام على جنبه مثل مغنيتي كورال. تديران خِصْرَيهما ولا تفعلان غير ذلك في البداية. الشريط قديم، صُوِّرَ في سهرة بمدينة ما. الأغنية الأولى التي تسبق "الفِيزاَ والبَّاسّبُّورْ" عاطفية معروفة لا يتحمّس لها الجمهور. يغني "السّتَاتِي" عن امرأة ويطلب منها أن تفارقه، دون إيقاع، والجمهور يسمع في صمت، ودون كبير

انتبـاه حتـى لتَـكاد ترى الملل في تفاصيل السـهرة. لكن المغني، وكأنّما يستشعرُ الأمر، يصيح فجأة، دون مناسبة:

- " أعْطِوْنِي الفِيزاَ والبَّاسْبُّوْرْ"

فيقـوم الجمهـور مـن مكانـه مُلتاعـا كمـن عضّتْه أفعـى، ويبدأ في الترديد معه، في صخب مجنون تلك الكلمات.

"السّتاتي" يبدأ:

- " أعْطِوْنِي الفِيزاَ "

فيُكمِلُ الجمهور:

- " والبَّاسْبُّوْرْ"

"السّتاتي" يقول:

- "مَنْ كَزاَ"

الجمهور يكمل:

- " لْماَرْسَايْ".

ويستمر التناغم فيَذكُرُ السّتاتي ال"هُنا"، ويذكر الجمهور ال"هُناك". أمّا الفتاتان الغليظتان اللتان اكتَفَتا في البداية بتحريك الخصر فتَتحمّسان للغناء وكأن الأغنية تعني لهما الكثير..ثم يصل المغنّي إلى الذروة، حين يذكـر عبـارات الوداع: "بَايْ بَايْ أَمُونْ أَمُورْ، غَدّا غَادِي فَالبَابِورْ"..ويبدأُ فـي تحريـك يَديْـهِ رافعـا كمَنْجَتَهُ كمن يودّع الحبيبة على شـاطئ البحر. يزيد في تعميق جراح المحبّين "غَادِي نَحْرَكْ وَنْغَامَرْ، عْلَى قَبْلَكْ أَلَعْمَرْ". ثم يحرّك السكّين في الجرح"خَلّينِي تَّا نَجْمَعْ رَاسِي وَنْوَلّي لاَبَاسْ كِيفْ النَّاسْ". لينتهي بكشف الحقيقة التي لا مناص منها وهي أنّه مهاجر غير شرعي: "بَايْ بَايْ أَمُونْ أَمُورْ.بْلاَ فِيزاَ بْلاَ بَّاسّبُّوْرْ"..

اعتـدتُ أن أعـود إلـى الشـريط وأتسَـمَّعُهُ بانتبـاه فـأرى الشـباب يرقصـون، ووسـط الجُمهـور تقـف طفلة صغيـرة، ترقـص ببراعة. حين

كنـت أرى رقـص تلـك الفتـاة، أفكّر في ما تقوله سـهام عـن ابنة أختها وهـي ترينـي صـوّر طفلـة جامحة، أعلمُ وقتها أن المشـعل ينتقل من يد إلـى أخـرى باطـراد ودون هوادة، أعلم أنّ تلك البنت الصغيرة المنتشـية بالموسيقى لن تلبث أن تنتبه للكلمات وتحلم حُلمها..

تجلـس سـهام في حضني، وتتوقّـف عن الكلام حين ترى انتباهي للشـريط وتراني مُمسـكا بمذكّرة العمل. نسـمع معا كيف يحكي المغني عـن الضفـة الأخـرى، فبمجـرّد الوصول تبدأ المشـاكل ولا يجد سـوى البطالـة والألـم، وكأنّمـا كان يحكـي حكايتي..أشـرحُ لهـا الواقع البعيد وأحاول إخفاء تجربتي التعيسة..

كنـتُ أرى فـي أحيـان كثيـرة، تلك الأغنية، مثل نشـيدي الخاص. وغالبا ما أعود إلى تذكّر"الشّعيبية" في الدار البيضاء وابن عمّها وأتذكّر صاحـب المركـب الـذي حَمَلَنا من طنجة باتجـاه البحر..أتذكّر المركب الـذي حمـل ملامح سـفينة نـوح لأن الخلائق التي ملأتْهُ جاءتْ من كلّ فجّ عميق..

فـي السـرير، وأحيانـا فـي المقهى أو على الشـاطئ، أحكي لها ما حصل وأعدّل بعض تفاصيله.نجلسُ على كراس بيضاء بلاستيكية، مُقابل البحر لتسـمعني. تتحمّسُ لمعرفة ما حدث وتدعوني للاسـتزادة. كانت علـى الأرجـح، تُقـارن بذاكرتها بين ما حكيتُه خـلال اليوم الأول للقائنا بالمدينة وما أحكيه الآن، ولاشـك أنّ تفاصيل كثيرة مُتضاربة سـتُدينني، لكنها كانت تسمع بهدوء واطمئنان مثل طبيب أو قسّ.

تَرْتَشـف الليمون السـاخن وتستمع لي وهي ترفع عينيها إلى أعلى كعادتهـا فأحكي..أحكـي لهـا عمّـا حصـل معـي ولا أُحجم.تـكاد تغيم ملامحهـا أمـام بصري. أرفَعُ الكأسَ وأضغطُ على الحروف.أرى وجهها بحرا فتعود الحكايات وأكون الراوي...

حيـن سـافرتُ مـن الـدار البيضاء إلـى طنجة، ظللتُ شـهرا أنتظر اكتمـال نصـاب لا سـفر بدونـه. انتهى شـهر من الانتظـار وكان لا يزال الرجـل الـذي تكفّـلَ بنـا يُؤجِّـلُ خروج الجسـد من شـرنقته. قادَنا رفيق له أسـمر، ذو شـارب غير مرتّب وملابس ضيقة، إلى قبو أسـفل عمارة مهجورة قربَ البحر كي ننتظر الدّور.عرّجْنا على أزقة وتلال بدت فيها مدينة طنجة مُلتبسـة كخطوط وسـط الماء، كانت المدينة تُشـبه نفسـها بعسـر، ما أنتجَتِ الصورة التي رسـمتُ لها وأنا أركب القطار مع شـاب غاني جاء ليبحث بدوره عن سمسار البشر.

نزلْنا الدرج، فضاق المكان بالظلمة، وبدَتِ اللوحة التي لم أتخيّل لأكـوام مـن الأجسـاد؛ رأتْ عينـاي اللتان تآلفتا مـع الظلمة مكانا ضيقا تتوزّع مسـاحته الضيقة أجسـاد البشـر.قلتُ للوسيط بسرعة إنني لن أبقى هنا.كنت كالملسوع، لكنه عالَجَني:

- تبق أو تذهب..لن نردّ لك المال..قالها بحزم ليقطع أي تفكير في تمرد مماثل..

رأيتُ الشـاب الغاني يقبل الأوضاع بسـهولة؛تكوّم في مكان صغير كأي محترف وقال دون أن ينظر إلى وجهي:

- لننتظر، لقد مررتُ بالأسوأ..

أما أنا فنزلت الدرج بتثاقل؛ صاغرا، دون أن أبدي أية غبطة، لقد مررتُ بالكثير من لحظات السوء، لكن التفكير في مرض السل أو الربو مع روح مجروحة مثل روحي أصابني بالجزع والذعر...

تنظـر سـهام إلـى وجهـي ينقبض.أُخفي بعض سـعادة، فقـد تبادلنا الأدوار وأصبحتُ الحاكي الذي يؤثر فيها. لم تعد الشَّهرزاد التي تملك السلطة وتحكي عن الزقاق والناس وتسوقُ وجداني.أشربُ من الكأس وأقول لها:

كُنتُ واحدا من أهل الكهف الجدد. تمرّ الأيام بنا في قبو البحر بانتظار المركب الصغير فَنَأْلَفُ الموت البطيء.. التحقَتْ بالقبو جماعة من النيجيريين دفعة واحدة:امرأة وخمسة رجال.رأيتُهم ينزلون الدَّرج باغتباط غير مفهوم، وقد سمعتُ في ما جاء بعد ذلك من أيام كلامهم الخفيض كعصافير في المهد، لاحظتُ انسجام الدم واللون بسهولة، ثم تناهت، في فترة لاحقة، إلى مسمعي تنهّداتهم وهم يتناوبون العبور إلى جسد المرأة التي تزداد نظارة كلّ صباح..كنت أرقُبهم بحاسة الذئب ولا عزاء لي سوى الحلم..في القبو مضى من سبقني من المغاربة إلى أمورهم دون اكتراث، فأغلبهم من أبناء القرى الذين يظهر الخجل على وجوههم ويَجْنَحون إلى السِّلم التام أو العنف الأخرق الذي يجعل الدم يسيل بسهولة. لا وسط بين الأمور. شباب العشرينيات الذين يحاولون رسم الانطباع بقوتهم لدى الغير، لكنهم لا ينخرطون في معركة أو صراع، ويجنحون إلى بري أجسادهم مزيدا في كل مواجهة مع الحياة، والغاني راقته النيجيرية فاندمج مع جماعتها وصار لا يكلمني إلا لماما..

– هل ارتحتَ بعد مدة؟ هل ألفتَ؟ تسألني بحنان وتقتربُ فأنفي.أقول لها إن الحياة حَمَلَتْني فألِفْتُ المؤقّت رغما عني.جاءني مرض الزمن وعسره. جاءتني مساءات حامضة مشبعة بالرطوبة.ثم جاء ركّاب آخرون. قيل لنا، بعد الراكب الأربعين، الذي أنزل علينا الحلَّ وأطلق سراحنا، سنخرج على الأرجح غدا..

تبدو سهام منتبهة لحديثي وأنا أحكي التفاصيل وتتنقل بين حكيي وليمونها، تهذّب خصلات شعرها الهاربة من غطاء الرأس وتدفعها إلى الداخل كأني ما رأيتُ شعرها من قبل فتغريني وأزيد:

– المسافة بين الشاطئ والعمارة المهجورة التي قضينا في قبوها وقت الانتظار ليست كبيرة. أمضينا الأيام ونحن في انتظار الوقت

المناسب، كنا نحسِبُ المسافة بين القبو الشاطئ بالعين؛ كلّما صعدنا الدرج، دون أن نجرؤ على الخروج. يُسمعنا الموج هديره وتداعب أنوفنا رائحة المحار..تعلَّمت تنظيم نومي على إيقاع الموج والرطوبة كالمسجون، وتذكرت ما كتبه السياسيون الذين تعرضوا للاعتقال عن السجون والرطوبة. وتذكّرتُ ما قاله عاطف صديقنا في سلا:

- التاريخ يتكرّر، فلكل جيل سجنه..وسجنُ هذا الجيل هو البطالة المريعة وضيق الأفق..

علّمَنا مُساعد السّمسار الانتظار بحكاياته الكثيرة، علَّمنا أن نظلّ طوال الوقت في المكان ذاته حتى كبر شعري وطالت أظافري كأي مسجون، كنت أُهدهد الدراهم القليلة التي احتفظتُ بها من سفر طويل بين المدن بعد أن اقتطع السّمسار نصفها.

أصمتُ من جديد وأفكّر في ما حصلَ بعد ذلك. تنتبه سهام لصمتي فتحترمه، تسألني إذا كنتُ راغبا في التّمشي فأشير برأسي أن لا ثم أحكي لها المزيد:

- كان مُساعد السمسار يخرج من القبو المتسخ حاملا نقودنا مع عمولته كي لا نظهر للناس بالخارج ويعود حاملا معه الغداء.كلّفتُه بشراء الحمص والفول والتين المجفف كما نصحني المجربون وخبأت الزاد والماء طوال الوقت للرحلة.. كنت نشطا وأنا أتهيأ للعبور..عند المساء خرجنا، تحت جنح الظلام، قال لا تخرجوا دفعة واحدة ولكن اخرجوا من أبواب متفرقة، خرجنا وتخبطنا في هرولاتنا حتى وصلنا إلى المكان المعلوم..توغّلنا في الأحراش عند بوابة البحر غير بعيد عن الصخور وانتظرنا صاحب المركب ولكنه تأخر.أيادينا على القلوب كلما مرت دورية مراقبة.حين وصل الباطو يا حبيبتي رأيتُ العجب من الناس إذ يتسابقون كما لو إلى جنة الدنيا، رأيت الأطفال والنساء يهرولون.رأيت

رجلا تُرافقه الزوجة يضع رجلا ويؤخر أخرى وامرأته تحمل وليدها بين يديها وتحثه على الركوب وهو يبكي خائفا.

على الأمواج، وضعت رأسي بين يدي.انحشرتُ وسط الجمع من نساء وأطفال وشباب. سفينة نوح ستحملنا إلى الضفة الأخرى. لكني لا أحسن العوم. رائحة البحر تصيبني بالغثيان، فماذا سأفعل لو انقلب المركب بنا؟ البحر يجعل المشاعر تتدفق بداخلي، الجميع على عجل وأنا مرتبك.أفكّر في سمك القرش..

الماء صفحة واحدة. لاشمال ولا جنوب وسط البحر والضباب يغطي كل شيء.بعد الشاطئ تُصبح الأمواج في حجم الجبال وتلعب بالخشب فأتذكر المراكب التي تغرق ولَوْحَ السندباد الذي ينجيه دائما. أريد التوازن والحيطة لكن الأفكار تطاردني، ثم تظهر لنا الحقيقة ويغمرنا هدير طيارة حرس السواحل الاسباني فيوقف السائق المحرك ويطلب منا سحب الغطاء الأزرق بسرعة فوقنا، فنصير تحت ضوئها قطعة من البحر فأغشيناهم فهم لا يبصرون.. البحر ليس مدهشا، فالدهشة تموت حين نألف الأمكنة يا حبيبتي

تُمسك سهام يدي وتضغط وتَسيح دموعها فأصمتُ لبرهة مُتجاهلا دموعها الغالية وأقول إنّ البحر لم يكن مدهشا أبدا. لم نألف الموت بعد فماذا نفعل؟صادقنْا البحر وعاشرناه، وهدير المركب الصغير لا يتوقف، خلفه مركب آخر خالٍ إلا من راكب وحيد يراقبنا عن بعد، وأنا أتعجب كيف يركب الأربعون نفرا منا في مركب صغير بينما المركب الذي خلفنا خال إلا من شخص واحد، فيشرح لي شاب مُجرّب معنا:

- المركب الثاني للمراقبة، حتى إذا غرقنا أنقذ السمسار صديقه، السمسار لا يغرق..

حكايات الناس على المركب كثيرة، كأني أرى فيلما يضج

بالأحـداث والنوايـا، أعصر قلبي وأترفّع عن الوجود كي أفهمهم، أنادي الرؤيـا وأتسـاهل فتظهـر قلوب هؤلاء الحيـارى تائهة في اللجة.أعلم أن البحر سيطفئ جمرتهم. ليس الفقر ما يقتلهم ولا الخصاص، فيهم دماء تريد عالما آخر، لقد اختاروا طريقهم، بينما غيرهم من الناس ظلوا في الوطن يطحنهم الوقت لكنهم لا يُسلّمون..ليس هروبا هذا، قلت لنفسي، فالحياة أعرضت ونأت بوجهها عنا..

البحر سـاكن، أشـفقَ علينا وأسـعَفنا، فوصلنا إلى شاطئ الإسبان.. لكن حرس السواحل كانوا على مقربة فعدنا أدراجنا إلى البحر واختبأنا ثـم عاودنـا الكـرة فرأيناهم من جديد..عـادوا وعُدنا وقلوبنا تكاد تنخلع مـن الوجـل والترقب..ثـم نسـتيقظ على صمت المحـرك وأوامرٌ بنزولنا إلى الماء...

قال القائد أنا عبد مأمور وأمَرَنا بالنزول. قال إنَّ الحرس للتّو ذهبوا وسيعودون وأنا لن أظل أدور وسط البحر. سيكشفوننا إذا لم تنزلوا.لقد وصلنا، فعرّوا على السواعد والسيقان وانزلوا. الجنة أمامكم فأوروبا هي ما ترون رأي العين هناك..كان ثمة شاطئ وأسلاك..

كان أمامنـا ضبـاب وقلق وفوضى..الأرجل تلاحق بعضها فيسـقط النـاس فـي المـاء صرعـى جنـة الخيال.نزلنا قبل الرسـوّ لأنـه لا مجال. الأسلاك على البحر وعلينا أن نعوم فمات منا كثير..

اختبأت لأسبوع في غابة آكل التين المجفف. بعدها نمت كالميت أسـبوعا عند رجل طيّب يبدو أنّه يعرف ما يحصل جيدا بفعل التجربة. توسـط لي لأشـتغل.الضيعة كانت نقية، والحياة رحبة في إسـبانيا لكن الأمور لا تسير كما نشتهي أحيانا..

أصمـتُ ولا أكمـلُ الحكايـة. أنظُرُ إليها وتكون دموعها قد يبِسَـتْ على خدّها.نقفل راجعين دون أن تُراودنا الرغبة في أيّ شيء.

في طريقنا إلى الدار، نكون واجمين. لا ننتَبه للناس ولا للبحر الذي يبدو واجما هو الآخر كما لو كان خجولا أو مُطرقا. البحر مبتدأ المدينة. الأحياء الشعبية منتهاها. ينزل المساء على الأبنية فيخرج الناس من بيوتهم ويتوجهون إلى البحر ليتجوّلوا مع أطفالهم فرحين وأحيانا يتحلّقون حول مبنى البلدية، يحدّقون في الساعة الكبيرة ويتكلّمون دون أن يعنيهم مصيري ولا حكايتي وجرحي. أعود رفقة سهام إلى الدار حين يتعكّر المزاج. تصل قرب الحي القديم فتستأذنُ في الانصراف إلى بيتها وأسمح لها.أعود وحيدا مهموما وينغرسُ الألم في داخلي مثل سكاكين صقيلة فأبحثُ عمّا يُطفئ غضبي وأخرجُ من جديد إلى الشارع وأتمشى حتى أتعب..

حكايتي مع البحر سيئة، وتفاصيلها نكد. لكنّني لحُسن الحظ لا أضيّع وقتي في حكاية تفاصيلها دائما. أنا وسهام لا نلعبُ اللعبة ذاتها دائما أبدا فللفرح وقته ونحن نحبُّ الحياة الدنيا وزينتها. كثيرا ما نطرُدُ القلق فلا نيأسُ ولا نبتئِس بل تغمرنا الملذّات.لا نحكّ الجراح الطريّة بل نحكي الحكايات الجميلة ونضحك مما نراه من تقلبات الحياة الدنيا. يُغرينا الضباب والبرد في أوقات كثيرة فنتوغّل في الصخور البحرية مثل أول يوم التقينا فيه ونتبادل القُبل وتهربُ مني وأتبعها حافيا فتضيع الأحذية ونمضي الوقت في البحث عنها. كثيرا ما نتيهُ في مواضيع كثيرة ونتوغل في نقاشنا راكضينَ نحو فلسفة حمقاء نضحك لها. نحاول أن ننسى الحكايات المرة. أحيانا نُبالغ فنختلف حول لقائنا الأوّل..أسألها:

- عندما رأيتك في هذه المدينة: هل إلتقيتُك أمام الجامعة؟ أم في حي شعبي؟ أم أمام البحر؟

تجيبني بتفصيل فأكذّب بعضا من تفاصيل كلامها. أحكي لها حكاية مختلفة نكاد نُصدّقها لكي نتسلّى. أقول لها بأنني لم أعرفها من

قبل في الرباط وإنّها لا تشتغل مع محامية كما تدّعي.

- أنت ممرضة.لا تعملين عند محامية. كنتُ مريضا بزكام خفيف فزُرْتُ المستشفى والتقيتُك هناك..سألتُك عن جناح أمراض الصّدر وسألتُكِ إن كنتِ زائرة مثلي. ضحكتِ وقلتِ لي إنك ممرّضة بالمستشفى، رغم أن ذلك لم يكن واضحا من لباسك. تعارفْنا وخرجنا عند المساء، تجولنا في الشارع الرئيسي وقرب البحر. وأعطيْتُك الوقت الكافي لتعرفيني ولم أتعجّل أي شيء وكنت أكتفي بعاطفتك حتى اقترحتِ عليّ أن تزوريني..

لكنّها كانت ترفض الاحتمالات، وتكتفي بالقول:

- ديرْ عَقلَكْ..!

حين أسمع كلمة العقل، أفهم كيف أن الحياة، نبّهت سهام باكرا إلى أهمية العقل والحكمة، وأهمية الاستقلال. لقد مَنَحَها القرب من هذه المدينة هبة التجربة. اشتغلت بعد فراقنا خياطة كما حكتْ لي، وضجرت فاشتغلت عاملة في الأتوبيس ومرّ بها الزمن فحصلت على دبلوم في الرِّقانة وتجوّلت في الشوارع تسأل أصحاب الشركات عن حاجتهم لسكرتيرة لكنّ الشركات تَعْرض بدل العمل تدريبا في كلّ مرة. كانت سهام تقول إنّها لا تحتاج إلى تدريب فهي تريد عملا لكن أرباب العمل يكتفون بهزّ رؤوسهم آسفين وأحيانا لا يستقبلونها. وقد انتبهتْ بعد التفكير إلى أنّ أصحاب الشركات وجدوا فرصة جيّدة في طلبات الشغل الكثيرة المتراكمة ولهذا كانوا يكتفون بقبول المتدرّبين. يستغلّونهم لبعض الوقت كعمال، ثم يعودوا لاستقبال متدربين آخرين.. هكذا يربحون يدا عاملة مجانية دون ضرائب.. لم ترتَحْ من هذه اللّعبة إلا بعد مرور وقت طويل.

أما أنا فحاولتُ إدراك اللّعبة منذ البداية، فبعد أن اطمأننتُ لعملي

مـع المهـدي، أغرتْنـي الرغبة في تحسـين وضعي فتسـلّمتُ عملا ليليا. التحقتُ لأعمل سـاقيا ببار صغير اسـمه " لاتيراس". أسـقي العطاشـى وأسـمع الأغانـي حتـى منتصـف الليـل لأرتّـب داخلـي وأفـرحَ قليـلا. وقتذاك، اسـتطعتُ اكتشـاف أمور كثيرة، وتغذية دخلي البسيط والانتظام أكثر في حياة غالية.عرفتُ أنّ هذا العالم الذي تغطيه الأحداث والنوايا المُزوّقـة عالـم بئيـس لا يظهـر جمالـه سـوى من الخارج. عرفتُ نسـاء الليل وطقوسـهن ورأيتُ مسـاومات الجسد والحكايات المسفوحة على طاولات الشرب. رأيتُ آلام الرجال واعترافَ الهاربين من البيت ورأيتُ نسـاء يبدّلن ثيابهن في الطاكسـي باتجاه الزبون ويضعنَ المراهم والزّينة بينمـا سـائق الطاكسـي المتعوّد علـى المناخ يتواطأ وينتظـر الزبونة لكي تشـتري سـجائرها أو تجريّ اتصالها.. كنتُ أسـقي وأسـمع الشـكاوى وأواسـي ثـم تنتهـي مداومتـي فأعود في الطاكسـي مُرهقـا. أكون صامتا ممتلئـا بالصـوّر، وتكـون أضـواء الطريق متوقّفة بعـد منتصف اللّيل ولا يظلّ شغالا سوى ضوء أصفر وامض يسمح للسائقين بالعبور دون كلفة. لا ضوء أحمر ليلا، هكذا يسهل المرور على السيارات لقلّتها. وكذلك حياة الليل في هذه المدينة، لا رقيب ولا حسـيب على اللذة المتسـربة مـن كلّ ناحيـة. لقـد أصبحتُ أخشـى بعد مرور الوقتِ على نفسـي من هذه اللذة الواضحة، ليس خوفا على العضوية، فهي زائلة وكلّ حياة إلى زوال، ولكن خوفا على روح مشروخة مقشّرة من بئر لا قرار له.وحين يصحو النهار أكتبُ في الجريدة عمّا عشته ويختلط الخيال بالجنون..

كانـت تغرينـا الاحتمـالات حين نخـرج، ونلعبُ لعبـة انتمائنا إلى أمكنـة أخـرى وكَونَنَـا شـخصيْن مختلفيـن فنضحك.أحيانـا نتوغّـلُ فـي النكـران، فأنفـي أننـي معطّـل، وتلك رغبة أكيدة لواحـد مثلي.أنفي أنني أعرف امرأة اسمها سهام، كما أنفي أنني أسكن في مدينة بحرية صغيرة،

وأكاد أتوغّلُ في نكران قناعاتي قبل أن تهزّني سهام مليّا وهي تقول:
- ديرْ عَقلَكْ.. !

كما كان لي حلمي الهارب الهلامي بصناعة ذاتي والتخفّف من سوء الحظ الذي يلازمني، كان لسهام حُلمها. كانت تحلم بي، بنا على الأصحّ، كما فهمت في لحظات صفاء كثيرة بيننا. حين ينطفئ كل شيء وتكون العتمة الخفيفة المحبّبة إلى قلبي، تحلم بي سهام وتريدني بقربها حتى آخر الضّلوع..سواء في البيت أو في مطاعم خافتة أدعوها لتجربتها..

أحيانا كان يذهب خيالها بعيدا في النكران. تلعب لُعبتي لتخفّف عني ألم الذكرى فتقول إنني لم أزر أوروبا في حياتي ولم أركب القوارب. تقول إنني جئت من الصحراء، وليس من نواحي مراكش كما أدّعي. إنني بدوي لم يدرس يوما في جامعة. من صحراء مترامية مثل أمير أزرق جئت.و ما حكيتُه لها عن هجرتي صحيح. لكّنني بدلا من ركوب المراكب باتجاه أوروبا ركبتُ الجمل، فأنا من قبيلة بعيدة على التخوم وطالما كان حُلمي ركوب البحر فتهيّأ لي. ودليلها على ذلك أن الجمل سفينة الصحراء. تقول لي وهي تضحك إنني أصبحتُ بعد التجربة مهرّب تُحَف وسجائر أتنقّل بين الجزائر والمغرب بحثا عن الذهب والمال.ثم تدور في مكانها مثل سمكة رطبة وتلتصق بي وهي تحكي..

أحيانا كثيرة، كنّا نلتقي كمراهقين في كل مكان لنعيد الحياة إلى علاقتنا: في الحدائق اللّطيفة والمقاهي الخاوية.نخرج إلى المقهى ونجلس. نختار واحدا يطلّ على الشارع ونظل نتكلم حول أمور الحياة. نراقب الناس ونتلصّصُ على حيواتهم. نرى فتيات كثيرات رُفْقة أَحِبّتهن فنتَجَسّسُ ونبني الحكايات.

تـرى مثـلا فتـاة تركب على دراجة خلف صديقهـا وتطوّق خصره بيديها وتضمّه، فتحاول تفسـير الحركة وتَسـألني إذا كنت أسـتطيع فهم شـعور البنـت فـي هـذه اللحظـة؟ أقول لهـا إن الأمر نفسـي، ويختلف، فقـد تكـون البنـت الآن متحفّـزة للـذة، أو خائفـة من العيـون، أو فرحة أو طامحـة إلـى زواج. وقـد تختلطُ مشـاعر الترقّب في داخلها بمشـاعر الخوف والرجاء..

كانت تضحك من حُمقي وأسئلتي فتغفر الزلاّت. تقول إن البنت تـرى فـي فارسـها النجـاة، ولذلـك تطوّقه تمامـا لكي لا يفلـت. تقولها وترفع بصرها عن الهاتف قليلا وتنظر إليّ برموشها فأكْتَشِفُ أنّها تلعبُ بالهاتـف هربـا مـن خجلها وأنّها تحتمي به لتُرتّبَ الأفكار... ثم تصمت وتقول لي، دون مناسبة:

- لا فائدة فيك...انتوما الرّجال!!؟

نتكلّم عن الحبّ وعن شراهة الناس للعشق فأقول لها مُندفعا إنّ وراء هذه الجدران السميكة المطليّة بكل الألوان أجسادا عارية تمارس حقها في الجنس، أجسـاد على أجسـاد تتأوّه وتطلب اللذة مزيدا.أجساد محرومة حسـيرة البصر تتمنى عناقا أو شـهقة. انظري، وراء هذا الوقار المزيف للنساء اللواتي يَسرن في الشارع ويُلقين النظرات الخاطفة شبقا وشـهوة لا تقـاوم. الكثيـرات منهـن يتمنين لـو حلَبنَ اللذة طـوال الليل والنهـار. أمـا الشـباب، فهـو يمارس حياتـه دون توقف، يمـارس الحياة نائمـا، واقفـا وماشـيا، ولكنـه مع ذلك لا يجد مـن يوجّهه نحو المعاني ويُفسـح لـه الطريـق كـي يفهم ما ينفعـه وما يضره. الشـباب يعيش فقرا معرفيا خطيرا ولا تهمه الأمراض ولا المصائب التي تنتظره، لهذا يسير ويمارس اللذة دون هوادة حتى يسقط في المشاكل ويُفني الجسد..

فـي بحثنـا الدائـم عن الفـرح، في المقهى أو السـرير أقرأ لحبيبتي

الشعر وأحكي لها الحكايات والنكت.و حين نعود إلى الشقة نتدثَّر في الفراش ونشاهد فيلما يروقنا كثيرا. فيلم حَفِظناه ولن نستطيع منه فكاكا مثل قَدَرٍ يتبعنا..

نرى في البداية شمعتيْن تركّز الكاميرا على ضوئهما المترجرج، ثم تظهر قُربَ الشمعتينِ على محمل خشبي ورقة نوتات موسيقية، وبعدها يظهر عازف كمان. يظهر على طاولة الشمعتين عاشقَان وحِيدان يتعشّيان والعازف يعزف لهما لحنا رقيقا، تجول الكاميرا بين العازف القريب منهما وبين يديهما المشتبكتين وبين كأسين أمامهما ثم تبتعد الكاميرا عن العاشِقين والعازف والطاولة فنرى صورتيهما في الإطار واضحة. تستدير الكاميرا وتبتعد فتكبر الصورة أمام المُشاهِد فيرى العاشقَيْنِ في سفينة لأوّل مرة. تبتعد الكاميرا تدريجيا فنرى السفينة تمخر عُباب البحر إلى أن تصير مجرد لوح، ويُصبح المشهد على الشاشة بحرا عبابا والسفينة تغدو مجرّد نقطة بعيدة لا تلبث أن تتلاشى. هذا هو الفيلم الذي طالما أحبَبته أنا وسهام. أتفرج معها على الفيلم وأبادرها بالكلام عنّا فتفرح وتنظر لي عميقا نفس النظرة الناعسة..

كانت سهام تريدني أن أنقلها إلى عوالم مختلفة. أن نهرب من هذه المدينة إلى قرية صغيرة بعيدة لنربي الأولاد. تقول لي بعد أن نَنْتَهِيّ من التلاحم أريد السفر إلى الضواحي. إلى ضواحي مراكش، "تَحَنّاوْت" أو "أمَزْمِيزْ"، إلى قريتكم إذا أردتَ. نعيش هناك ويدرُس أولادنا في التعليم العمومي، وحين نصبح عجائز ننتقل معهم إلى المدينة من جديد وتكون الفأرة قد هَدَأتْ.المدينة غُول وعلينا أن نُربّيهم على الأخلاق الحميدة. كانت تُذكِّرني بالأبواب الجميلة في مراكش، وجمال الطبيعة والقرود في الجبل..وأنا أسمعها وأحرّك رأسي وأقول لها نعم نعم، وأُحرّكُ رأسي حتى وأنا لا أتذكَّر تماما تلك الصوّر أحركُ رأسي كي لا تغضب

وأتناوم لأنّ التّعب سُـلطان. تُحسّ شـرودي فتتوقف عن الحكي وتقول هـل تسـمعني فعـلا؟ وترفـع عينيها قليـلا لترى مدى اهتمامـي فأدوّخُها بتفاصيل غير موجودة فتتابع وتسترسل أو أُذكّرُها ببعض ما قالت فتعود إلى الاسترسال وأنامُ قرير العين دون أن أسمَعها..

(6)

وضعتُ كرسيا بمدخل شقّتي الصغيرة. بعد صعود الدرج، في المسافة التي تفصلُ المطبخ عن الصالة، يُفاجئني الكرسي دائما كأنني لستُ صاحبه.. سمّيتُه كرسيّ المدخّنين، رغم أن عثمان، الذي يزورني عادة، لا يدخّن. ظلّ الكرسيّ مشرعا على احتمالات مُبهمة غذّاها غياب سهام وتوافُد العابرات اللواتي لن أضمن عدم استئذانهن في تدخين سيجارة بعد تعب المجرى..كنتُ قد تحرّرتُ من عقدة الذنب بعد أن هجَرَتْني وتعبتُ من حديثها المراوغ عبر الهاتف فلم يعد لديّ مانع من استقبالهن بغير انتظام، والحرص على أن يجرّبنَ الكرسيّ.أُشْعل سجائرهنّ بعلبة الوَقِيد الموضوعة – خصيصا لهذا الغرض – على خشب النافذة الصغيرة. أجلسُ على الكرسي وأفكّر في مقالاتي وأتابع التفكير في سهام بعد أن أُغَادِرَ العابرات. انقطعت أخبارها ولم تعد تردّ على الاتصالات ومنعني كبريائي من معاودة البحث عنها أو الانحناء لعاصفتها..

عندما يزورني عثمان كان يجلس على الكرسي مواجها باب المطبخ، فأكون داخل الصالة وأكلّمه ونتناقش في أمور الجريدة ونختلف. نصمتُ حين نكتشف بأنّ أصواتنا ترتفع أكثر من اللازم وهو ما لا يُلائم دفء الشقة وجوّها المسالم الذي يبعث على السكون..أحيانا يقف ويتجوّل في الشقة الصغيرة صامتا مطرقا، أو يُراجع معي حكاية من حكايات الجريدة التي أصبحتْ كثيرة ومتنوعة وتبْعَثُ على الضحك والأسف في وقت واحد مما يخلط المشاعر ويُربكها ويمنحها طعما حرّيفا. ثم إن عثمان، جاء ذات يوم، وكان المطر يسقط بغزارة. اضطررتُ إلى إغلاق النوافذ التي يتسرّبُ منها الماء ويرسمُ خيوطا طويلة ويترك

فـي الجـو رائحـة رطوبة، وارتديتُ الكثير من الملابس وكانت تسـتحوذ على خاطري الرغبة في حسـاء سـاخن وتمنّيتُ لو تركني صديقي أهنأُ بوحدتي. جلس لفترة ثم قام واقتربَ من باب المطبخ الصغير، الذي ظلّ مفتوحا دائما، كأنّما منذ الأزل، وكتب على الباب بطباشير أحمر كلمتين تَفَنّنَ في رسمهما وشَكْلهما. وقفتُ وراءه ودقّقْتُ كثيرا لأقرأهما:

- مَطْبَخُ الحُبّ.

بعدهـا اسـتأذنَ فـي الانصـراف كأنّمـا أنجز مهمة لا مجـال للبقاء بعدها وسمعتُ خطواته وهو ينزل الدرج باتجاه الشارع.

فجـأة، أحسسـتُ بـأنّ المطر قد توقف. وطـال تأمّلي في الكلمتين وراجعتهما فوجدتُ فيهما حياتي وتاريخي. تشـابكت الحروف كحياتي التـي أُبحـر بهـا في مهـبّ الوجود من مكان إلى مكان. ذهبَ فكري في البداية إلى مهامي العاجلة في المطبخ التي لا أتوازن من دونها، وفكّرتُ بعدها في الجريدة ومهامها وما تكشِفُه من خبايا أكتُبُها في المطبخ قبل نشـرها، ثمّ فكّرتُ، دون مناسـبة، إذا كان من الممكن أن يُصبح الحبُّ طعامـا أو لحمـا نطبخُـه علـى نـار هادئـة. ولبرهـة تراءى لي أن أمسـحَ الكلمتَيـن كمـن يشـيح بوجهـه عن حقيقتـه، لكنني دقّقـتُ طويلا فيهما وانغمستُ في التفكير فغام بصري في الشّكل والالتواءات التي تشكّلها الحـروف حتـى أصبحت الكلمتان مجرد حمرة لاهبة توغّل بصري فيها وابتلعته..

أحيانا، أجلسُ على كرسي المدخّنين المتواجد بالمدخل، حين أتعبُ من كرسي المطبخ الطويل الذي أدخلتُ إلى الشقة بجهد، وحشرته في مكان ضيّق.أجد نفسي تائها في مرات كثيرة، فأهربُ إلى ذلك الكرسي لأعيد تشكيل توازني وتقع عيناي على الكلمتين وأتأكّدُ بأنّهما لا تزالان في مكانهما. أدقّقُ فيهما مثل شيء هام أمتلكه. أحيانا أسرحُ في مغزى

كلمة المطبخ وعلاقتها بالحب وأفكّرُ بأنّ عملي مع المهدي يُفصحُ دون مُواربة عن التّسمية ومغزاها: كشف ملامح هذا المطبخ وأسراره. أقول لنفسي إن هذا المطبخ عسير وعامر ويتطلّبُ قرونا من الجهد لإدراك كلّ خباياه.لكن ما سيجعلني أُعْطي التَّسْميّة نكهة خاصة أكيدة، ويؤكّد جدارة اللّقب الذي منحه عثمان لذلك المكان، هو ما أفْعلُهُ عادة رفقة العابرات، على عجل، في المطبخ، على الكرسي الطويل في كلّ مرة يشدّ الزمن الخناق فيها ويحشرني في الزاوية. أعمد إلى تخفيف التوتر على الكرسي لأعيش، وبتلك الطريقة، أصبح للتسمية أكثر من مغزى..

كرسيّان في البيت، وقد حدّدتُ لكل واحد منهما مهمة، الأوّل لتأمّلاتي الهادئة وتفريغ طاقتي والتوغل في دروب البحث، والثاني للاستراحة أو لزوّار مدخّنين قد يجيؤون عندي فأشرب معهم شيئا وأسمع الموسيقى وأطلب منهم حين يرغبون في التدخين أن يجلسوا على الكرسي ويفتحوا باب الشقة. أحيانا أُردّد مع لطيفة رأفتْ تلك الأغنية القريبة إلى قلب سهام. أسمعُ بهدوء حركة الكمنجات وهي تتوغّل..ثم أغْراني بعد ذلك التجوال بين محلات الأشرطة الصغيرة، كما أَتَوغّلُ دائما في كلّ تجربة حتى أملّها، فكنتُ أشتري ما تقع عليه عيناي من أغان تكون الكمنجات واضحة وقوية فيها حين يشتد الإيقاع. اعتاد الباعة أن أمضي بينهم سائلا في البداية عن كل أشرطة المعزوفات، أحيانا مكتفيّا بما يقِرُ في سمعي من كمنجات، أسألُ عن محمد الحيّاني وعبد الوهاب الدكّالي ونعيمة سميح وأتبع الإيقاع المخبوء خلف كلّ مقطوعة لأكشف أسراره وأتسلّى وأنسى الزمن...

على هذا الكرسي أو ذاك، بتُّ أفكر بأنني أتغيَّر ببطء.أنتظِم وأرسُم طريقا. لكن مع هذا الانتظام، سأُصبح لاشك شخصا ضعيفا ومُتراخيا، فالاستقرار يجعلُ الإنسان خوّافا. في العهود القديمة كان الإنسان يُعاشر

الطبيعـة، وكان قويـا، متخفّفـا مـن أي عواطف تربطـه بالمكان أو الآخراً ثم بدأ يضعف وتغزوه العواطف بعد أن استقرّ وبَنَى مسكنا له. الشعراء المتَرحّلـون فـي كلّ درب يكونـون أيضـا أقـوى وأكثر بأسـا مـن الذين ينعمون بالدفء والسكينة والمنازل..وأنا لم أكن أنعمُ في الدار البيضاء والربـاط بالاسـتقرار، فكنـتُ قويـا رغـم أوجاعي.لكـن هـا هـي حياتي الجديدة تمضي، وهاهي المدينة الصغيرة تجعلني مستقرا وضعيفا وأليفا مثـل جـرو صغير.هـا هو الزمن يفعل بيّ الأفعال..لقد أصبحتُ شـخصا يمجد الإيغال في التجارب وامتصاص رحيقها ثم رميَ البقايا مثل شيء مهمل، فلعلّني أعشـقُ وأملُّ كما اتّهمتني سـهام فعلا..أتذكّر كيف كانتْ جالسـة في يومٍ تأكلُ الليمون ثم اتّسـعتْ عيناها وكادت تشـرَقُ وتختنق بالحموضة، وهي تصيح بي، كمن أشرقَ بداخله سر لا مجال لإخفائه:

- أنتَ عشّاقْ ملاّلْ.

كنّـا جالسـيْن فـي الصالـة نتحادث ونأكلُ عندما قفـزتْ إلى ذهنها تلك العبارة فلم تنتظر إنهاء طعامها وصاحتْ بي. وأنا لم يذهب ذهني بعد هذه العبارة إلى العِشْق والمَلل اللذَيْن تختزنهما الحكمة ويردّدهما العامة في كلّ مكان، بقدر ما فكّرتُ في مكان مُفترض، ضمن قارة ما، إسمُهُ مَلاّلْ. وبحثتُ في ذاكرتي وخرائطها لعلّ اسم المكان يُسعف فلم أَحْر جوابا، واكتفيتُ بأن شـردتُ كعادتي في ملامحها وهي تتكلّم فلم أعدْ أسـمعها بل أراها وهي تغيّر الملامح حسـب قوة العبارات محاولة التدليل على كلامها..

قبل أن أختلف مع سـهام، كنا نتلذّذ بالحديث في أمور كثيرة من ضمنها الزمن. كنا نناقش العشـق والكره والحسـد والحذر. وكنا نناقش الرغبة واللذة والكسـل أيضا. وكانت تَتّهمني بالكسـل كثيرا، لكنها رغم ذلك تحب كسلي، وتحبُّ اعتمادي عليها في الكثير من أمور الحياة..

بعد أن عرفْتُها، لم يعد الزمن والإحساس برخاوته يعجنُ روحي. أصبحتُ أميل إلى الهدوء، أصبحتُ شخصا يمجّدُ الكَسل أكثر.اكتشفتُ هـذا أمـام الوضـع الجديد الذي أصبحتُ أَعِيشُـه. لقد جَعَلني عملي مع المهدي أيضا أميلُ إلى التراخي. أصبحتُ أحبّ النوم كثيرا. كما بدأتُ أشعرُ بأنّ الكسل يُغطّيني بعد استقراري لمدة بهذه المدينة. ربما بِسبب البحر القريب من مسكني، والذي يحوط المدينة بأكملها، وربما بسبَب سنوات التعب والركض في الدروب. فهل تهيّأ لجسدي أن يستريح قليلا في انتظار جولة جديدة؟..

خـلال الفتـرة الأخيـرة، أصبحتُ أميلُ إلى ترك أشـيائي غير مرتّبة حتى تأتي سهام وتعدّل الفوضى.أحيانا وأنا في الفراش، أعجزُ عن إغلاق صنبور مزعج تطن في رأسـي قطراته. وكثيرا ما أحسّ بأنّ مجرّد غسـل ملعقـة متّسـخة فـي الحـوض عقاب كبيـر، أو أن إغلاق باب المرحاض حين تتسـرّب رائحة غير عطرة عمل مهم يتطلّب مجهودا خرافيا. لكن سهام تجيء فتكسّر كل هذا المناخ بطاقَتِها وخفّتِها، تظلّ تتحرّك في كلّ مكان وتملأ الحيّز. أسمعُ صوت الماء في الحوض حين تغسل الأطباق فأحسّ الألفة.يُخالجُني السّرور المخلوط بقليل من الندم والذّنب، فهي تمنحني أكثر مما أسـتحقّ، وأنا لا ألتزم معها كما ينبغي..أحيانا تسـمع حكاياتـي وشـكواي مـن الحياة دون تذمّـر وأحيانا تضيق روحي بالحياة مجانا فتعانقني كي أهدأ وأنسى..

الشقة الضيّقة تبدو لي أحيانا واسعة. الضيق والاتساع نسبي. عَالَمٌ نفسـي تمامـا. لكـن، مَـن هـذه المـرأة الواقفة أمامـي الآن؟ وهل أنا في يقظتي أم في حُلُمي؟

إنها الزرافة. كنتُ أسميها الزرافة لأنّ عنقها يستطيل عندما تحزن. أقول لها تعالي أيتها الزرافة فتجيء راضيّة..

ها هي سهام واقفة من جديد مثل زرافة، وها إني أحاول أن أساعد المشط على التوغّل بين دروب الشعر، أخلّله بيدي ثم أُنْزِلُ المشط على الطاولة محاولا ثنيَ جسدها لأركب كيفما اتفق.تتَمنَّع قليلا.تريد أن تطول فترة الوله. تريد أن تعلّمني شيئا ما، أو تنبش تجربة غطّاها غبارُ علاقات المساء السريعة كأنما تُحسّ بما يحصل فتريد تأكيد الفارق. أنزلق ببطء مع الخصلات، لكن الشهوة تنام فأتوقّف، وأخرج من التجربة وفي نفسي حسرة خفيفة، مع وعْد خفيف متواطَإٍ حوله بشهوةٍ تتأجل وتعدني بالقادم. ومع مرور الوقت، يبدو أن الزمن، غيّر الأمور في دواخلي وجعلني مدثرا برؤيا مختلفة، وجعلني أفهم الأشياء كما تفهمها.جعلني أترك الارتباك والسرعة.لقد تعوّدتُ على صبرها وعلى لذتها البعيدة التي أستدعيها من أقاصي الأرض..

أنا الطرف الثاني الذي ينبغي له أن يحترمَ مُحَاوِرَهُ. الحوار بين اثنين، إذا كان أحدهما أبكم ضاعتِ اللحظة. الحبّ أيضا حرب خفيفة لا مناص من دخولها. في الصورة فارس مغوار، بسيف صقيل ورمح ودرع حديدي والشمس ساخنة. يركض في غابة خضراء كثيفة وينادي على فتاة تائهة، بكل القوة التي تمتلكها حباله الصوتية، والفتاة مجروحة تئن، بعيدة، تحاول أن تَتَجاوبَ معه وتدعوه إليها كي يُنقذها ويتلمّسا طريقهما..

الطبائع صعبة، فقد ضغط الزمن عليها كذلك، لأن إيقاع الماضي يخلّف في النفوس نذوبه فلا تتجاوب سريعا.لذلك أضجر بعد محاولات عدة للوصول معها إلى آخر الشهوة. ثم أفكّر قليلا وأقول لِنَصْبر.وتطمئنني هي الأخرى بأن ما لم يأت هو الأجمل. غير أنّنا بعد ذلك، حين انتصرنا على الزمن وتلاءمنا، غدوتُ صبورا فرفعتها من الدرجة الدنيا للذة حيث يتساوى البشر إلى الدرجة القصوى التي

تحسُّ فيها بقبلة بسيطة.نبدأ عادة وندحرج الفعل، وئيدا، ثم تُطبق السماء علينا ونتناغم مع الصورة..

لكـن متـى حصـل ما حصل؟ متى تقطّعت الشـعرة الخفيفة لعلاقة وجْهُهَـا الأبيـض هدوئـي معهـا وانزياح ثقل الزمن عـن كاهلي؟ما الذي جعلني أستخف بالعلاقة؟ وما الذي جعلها تغادر في هذه اللحظة وليس قبل ذلك؟

ما الذي جعلني أحسّ الذنب تجاهها؟

هل كنتُ أخونها؟

نعـم، ويـا للحقـارة. كنـتُ أخونُها. فـي البداية مع نسـاء كثيرات، في أحلامي الطويلة التي آخذ فيها راحتي وأتنعّم بكسـلي مثل أمير من أمراء الزمن القديم. ثم تيسّرتْ لي أول فرصة لأخونها فعلا فلم أتردّدْ. ربما خياناتي التي كانت تتوالى عبر خيالي كافية، لكن الخيانة أصبَحَتْ واقعا ومناخا دَرَبْتُ عليه حتى أصبحتُ واحدا ممن يسـتحقون الضرب بالأحذية..

هل اكتشفَتِ الأمر بطريقة ما قبل أن تبحث في أوراقي؟ ربّما. فهنّ يَمتلكن حاسّة لا تُخطيء في الإيقاع بكل خائن ولا مجال للكذب..

تعـود بـيّ الأيام إلى فلسـفة الكسـل كلّمـا كان الجو ملائما. أكون نائمـا والريـح تتحـرّك قليـلا في الخارج فأسـمعُ صوتها وأشـعرُ بحاجة شـديدة إلى الهدوء والانكماش وإلى التفلسـف في مديح الكسـل الذي له طعم لا يمكن وصفه..

في الفراش، والدفء يطوّقني، أتذكّر كيف أحاولُ أن أشرح لسهام، بعد أن تعبتُ من بعادها، في كلّ لحظة، جزءا من أخطائي وأجرّبُ أن يكون ما أحكيه هو ما أغاظها وجعلها تخرج دون عودة فتسمع وتجيبني حين أنتهي ورغم ذلك، رغم ذلك..

فلعلّهـا التَـذّتْ بما يحصـل، فكانت تقول عندما أنتهي من الحكي إن ما حدث لها قَصَمَ ظهر علاقتنا وإنّ عودتنا إلى بعضنا مُحال.

لأكشـف المسـتور مزيـدا؟ لتمـلأ صنـدوق أخطائـي ؟ لأزيـد في البوح؟

هـا إنـي أسـمعها تتكلّـم وتنتقدنـي، وفـي غمـرة حديثنا أقـول لها شارحا، متنازلا عن حذري، إن المشكلة في الزمن الذي عذّبني وسكن جوارحي! وليست في جسدي ولا في تهوّري. ثم بعد ذلك، أندم لأنني بُحتُ بما آتيتُ فأُحاولُ ثنيَها عن الاقتناع بفكرة الزمن لأنني قدّرتُ أنها لن تفهمها، ولأدفع شـبهة الحمق الذي سـوف تُدركه جيّدا. ففي غمرة ارتباكي رسمتُ صورة حمقاء شَوْهَاء، دون أن أدري..

هكـذا، وبيـن سـطور حياتنـا المتقطعـة، المرتبكة، العامـرة بالكثير مـن التفاصيـل التي لا أسـتطيع ضبطهـا، لا أنجح في إقناعها. كانت في البدايـة وبعـد أن تَقَوّت شـكوكُها إزاء غرابتي، كأنمـا أراها تنظُر بازدراء إلى ملامحي ساخرة، دون شفقة وتقول:

- إييّه، ذاك هو المشكل! الزمن..هو ما يقودك إلى شرّ الأفعال.. لكن ما حدث لي لا علاقة له بالزمن بل بالمصير..!

كثيـرا مـا تقطـع الاتصـال قبـل إكمـال حديثنا وتعود إلـى أمورها. دون أن تَكشـف عمـا يغيظهـا وأظـل حائـرا. تقطع الاتصـال وأفكّر وأنا أُمسك السماعة في مشيتها الغاضبة ومؤخرتها المتوسّطة المترنّحة كأنما تلبس حذاء بكعب عال.حتى في حَفَاهَا داخل الدار يترنح آخرها اللذيذ ويُوجعني غضبها وأفكّر في الزمن الذي لم أسـتطع يوما إيصال فكرتي حوله لكنني مقتنع بأنّه السبب...

بعـد أن غابـتْ، لم يعد مشـكل الزمـن وتعقيداته قادرا على ردّها، لهذا بدأتُ أبوح لها بما فعلتُ. وحين أخلو إلى نفسي، أفكر في الأمر

جالسا على كرسي المطبخ، أو على كرسي المدخنين أو أمام البحر أو على كرسي مقهى فأدركُ بيقين أن ما كنتُ أسعى جاهدا لشرحه، ولو للهروب من ملامتها، صحيح.وأنني مهما حاولت أن أدّعي فإني في النهاية سأنتهي إلى نفس النتيجة: المشكلة فعلا في الزمن؛ فهو ما عذّبني وزرع فيّ الشك والخوف، وهو يجعلهن واحدة في النهاية، وهو أيضا ما جعلها مختلفة عنهن، وما جعل محاولة العودة إلى التيه الذي عشتُ فيه لوقت طويل سبَباً في خسارتها..ثم إنّ الزمن في رصيد البلد هو الوقت والقدر وما لا يُحصى من المعاني، مما يجعل كلامي عنه معقولا ويتخذ ما يتخّذ من صوّر..ألم أسافر إلى الخارج لأقاتلَ الزّمن؟ ألم أفعل في الزمن هروبا من فعله في ذاتي كما تقولُ الحكمة؟ أليسَ طموحُ سهام دائما أن أصبحَ يوما زمنَها؟

بعد غيّابها، وحتّى قبل حضورها وأثناءه (يا لضميري الميّت) وفي خضمّ حياتي مع النساء، ظلّتْ تستحوذ عليّ فكرة امتلاك ناصية الأمر فقط.لا أريد التزاما، ولو خفيفا. أكون مُتسَرّعا لأنني مُوقِن بأنّ عملي مع المهدي في هذه الجريدة مؤقت ولن يعطيني فرصة الاستقرار. ولأن هذا الخاطر يَطغى، فإنني لا أعطي للحظة قيمتها لأن الوقت لا يرحم، والحياة لا تستقيم بما لديّ من أعْطاب أُعايشها في كلّ مكان مثل مشرّد لا يمتلك سوى جسده. ثم أُحسّ بالامتلاء فأتمرّد، لأن الشهوة تغطّيني.تأْتِيني غزيرة فأمَلُّ وأقولُ لا طائل من سواي.وفي أحيان أخرى، أظلّ لوقت وحيدا فيضيق المدى، وأحلم من جديد بما كان بين يدي، يجْتاحني الخَصَاص بِصلابته فتتملّكني الصور الآسرة لحركتهن ومشيتهن أو شعرهن المحلول يتخلّلُه المشط أو مدثرا بالرغوة، رائحة عطورهن وأشيائهن الصغيرة التي أُعيد ترتيبها بعناية في كل مرة تزورني فيها إحداهن مثل مهووس بالذكريات(اعتدتُ أن احتفظ بذكرى من كل

واحدة تأتي إلى شقتي: حاملات مفاتيح على شكل عصافير، سلاسل صغيرة رخيصة، أقلام وأيقونات..). وحين أخلو إلى نفسي أُعيد تركيب المشاهد وأُضيف إليها مُحاولا القفز على الزمن دون جدوى..تلك كانت حالتي مع كل النساء؛ ممرّات خفيفة أعبر من خلالها إلى قلقي وانشغالي بالزمن، ثم أنصرف بعد الانطفاء إلى ما أنشغل به من أمور الحياة..

منذ مجيئي إلى هذه المدينة البحريّة الصغيرة وأنا أتصرف بنفس الطريقة، عبور وذكرى وانشغال. وقبل سفري إلى الضفة الأخرى، كنت صائما، ولا أفطر إلا لماما، بفعل الحاجة والدراسة. كنت وأصدقائي نَتَصَاحَبُ مع زميلاتنا، لكنه حبّ أفلاطوني، إذ نكتفي بالنظرات التي تُشعل القلب. وفي المرات القليلة التي آتي إحداهن يكون الأمر سريعا أو مفاجئا وينتهي كما لا نريد، لأن الأمكنة لا تُسعِفنا ونخاف من المجهول. كان طلبة اليسار خلال تلك السنوات يجدون لأنفسهم هوامش لاقتحام علاقات انتهى الكثير منها بالارتباط وخلّفَ بعضها الجروح والتجربة والذكريات. أما الإسلاميون فلم يكونوا ينظرون إلى عيون زميلاتهم، بل يكتفون بالحديث والبسمات الخفيفة مثل عشاق القرون الغابرة رغم ما يخرج من حكايات تُتداولُ عن زواج المتعة وفضائح العشق السّريّ. مع ذلك، تبقى التجربة متلامسة في أبعاد عديدة، فجميعهم قادمون من أسر بدوية ولو سكنت المدينة، وكان الاختلاف هشّا في تدبير العلاقة رغم اختلاف الأصوات والأفكار، لأنّ الرغبة في التملّك تبقى نفسها، والحرص على الوضع العائلي وتدابيره، بالإضافة إلى تفاصيل كثيرة تجعل من أمر العلاقات بين الطلبة أمرا غالبا ما تذروه الرياح..

في الدار البيضاء، انغمستُ في حياة سيئة. راحة قليلة في البداية مع سهام، ثم رَسَمَت المدينة الكبيرة في قلبي شروخا لا تُمحى، عشت فيها كل الحقارات وتعذّبتُ. وبعد عودتي من خارج البلد، دخلتُ عالما

آخـر، زهـدتُ فـي العمل، وزهدتُ في الحياة والطموح، ثم جئتُ هاربا إلى هذه المدينة الصغيرة، انغمست في بعض ملذاتها الممكنة.فهل كان ذلك بحثا عن تعويض شيء قديم؟ هل كان هروبا؟

علـى عكـس كل النسـاء، مع سـهام، كانت أمـوري مختلفة وذات ملمـح خـاص. لـم أشـتهها بتلك الصّلافة التي جعلتنـي أنغمس في كل تجربـة، ولـم أسـع لنَيلِها سـريعا كما يحدث لكلّ الرجـال. في حكايتي معها كان الأمر مختلفا وهادئا، كأنما لا حرارة. لم أسـعَ لشـيء سـريع. لم أسعَ للّذة التي تَحْرِقُ العلاقة بعد ذلك. لم أكن محتارا أو محتاجا. وعندمـا التقينـا مـن جديـد وأوصلتُهـا إلـى الحي الذي تسـكن، سـألتُ نفسـي وأنا عائد على طول الشـارع: ماذا أريد منها ؟ هل هو الجسـد كما سيسألني عثمان في ما بعد؟ وكان جوابي:

- لاشيء. فقط أن أكون بقُربها، هادئا، ممتلئا بوجودها.

حتى وأنا أحصل على هاتفها ذلك اليوم بعد أن أوصلتُها وكانت لا تزال ترتجف بفعل الخوف وتعدّد المفاجآت، وأعود بدوري إلى الحي الذي أسْكنه، لم أكُنْ أفكّر في شيء، ولهذا ربما نَجَحَت العلاقة. ألأَنها كانت متخفّفَة من كل طموح عاجل؟ ولم تكن ترسم لنفسها سوى أفق الحيـاة العـادي الـذي لا مناص من عيشـه؟ فكرتُ بعد ذلك في ما قاله عثمـان عـن كيميـاء يجعل المـرأة تهرب وتنفُرُ عندمـا تحسُّ بأن الرجل لا يريد سـوى الجسـد. ألهذا انتظمت العلاقة وكانت كالجمر الخفيف؟ يستعر في صمت لكنه يتقوى؟

صحيح، لقد تطوّر الأمر، خصوصا وأن صديقي الفيلسـوف دخل علـى الخـط، ونبّـه المغفّـل الـذي كُنته، إلى أن المـرأة تضجرُ منك وقد تفرّ، أيضا، إذا لم تقترح عليها تناغم الحالات.

- لكنها قد تفرّ أيضا إذا اقترحته.

يستدرك عثمان.

- والحلّ يا صاحبي ؟

- دبّر أمورك..لا أدري. على الطبيعة فيك أن تقوم بدورها..

تعارفْنا وتجوّلنا كثيرا في كلّ الدروب، واقترحت عليها أن نزور منزلي فتمنّعت، ثم أصبحتْ معتادة عليه بعد خصام خفيف. مرّت الأيام وتخاصمنا بسبب تهوري أو بسبب حظي التعس الذي يلازمني في كلّ مكان، وها إني الآن أتكاسلُ في الفراش الدافئ، أتذكر أمورا كثيرة، كما أفعل عادة، مثل طفل يغضب أو يُعاقب ذاته فيحبِس نفسه في خزانة صغيرة..

الآحاد في ذهني تستدعي الروائح والتنظيف. واليوم أحد على الأرجح. تماما مثل كلّ الآحاد التي يحدث أن تكون معي فيها وتملأ وجهي أنفاسها المنتظمة ونامُ حتى نشبع. لكنّه لا يُشبه أبدا ذلك الأحد البعيد الذي لم أعرف كيف سوّلتْ لي نفسي فيه أن آتيّ ما آتيتُ..

أتذكّر الآن ما حصل. كيف كنتُ في الفراش مستمتعا بالدفء. وبعد قليل ستخرج من الدار وكانت تملأ الشقة بالبشاشة..

كمراهق يدخّن سيجارة في الظلمة، أفعل المحظور. تكتسحني السرعة من جديد، ويضغط الزمن فأرتبك وأبحثُ عن حل سريع لأخمد نارا مستعرة فتجيء الفرصة لوحدها كما لو أنّنا على موعد..

في ذلك الأحد البعيد الذي خرجت فيه سهام لتتسوّق، تَرَكَتْني مُعانقا كسلي فوقعتُ في المحظور.ولجتُ الجسد في فترة خروجها السريع، وكانتْ أولى خياناتي مع امرأة قادمة من مكان بعيد، جاءتْ لتبحث عن عنوان ما، كأنما جاءت خصيصا لأجلي.

قالت حبيبتي بعد أن أفطرَتْ ووضعَتْ غطاء أسودَ على رأسها:

- سأذهب للسوق وأعود.نصف ساعة وأعود.سأُمضي معك

اليوم. اغْسل المواعين ألكَسُول..نُوضْ..

أنـا فـي الفـراش لا أتكلم، مُسـتمتعا بصمت الصباح والإحسـاس بالحضور الجميل الذي تُخلّفه سـهام في نفسـي.لا أُجيبها وتشاكسـني. نشـطة تتحـرّك وأنـا مُسـتمتع بصخبهـا وكارِه للجلبة فـي الوقت ذاته.ثم تخرُج.أسمع طرقا خفيفا على الباب وأطلّ من النافذة مستاء مُعتقدا أنّها نسيتْ شيئا فيطالعني وجه امرأة ترتدي شالا أصفر.قالت إنها جاءت إلى المدينة لتسأَل عن أهل لها يسكُنون هذا الحي، تطرقُ بابي وتَتَسَمّرُ أمام الدار..أُحاول إقناعها وأنا أمام الباب، مُرتديا "بيجامة" النعاس.أقول لها:

- لا يوجـد مـن تبحثيـن عنهـم. لكنهـا لا تريـد أن تسـمع. تقول موجودين والعنوان صحيح.تَتَسَمَّرُ أمام باب الدار المُشْرَع. ولكني أسكن في هذه الدار منذ شهور أقول لها. موجودون تردُّ علي. عيناها تتسللان إلى الدرج والداخل بوقاحة، تكادان تقفزان وتصعدان. الشهوة واضحة في ملامحها وأنا أفكر في المستحيل والزمن لا يرحم.تخرج العبارة من فمي، كمن يمثّل فيلما، مثل شيء غير معقول أقول لها:

- ما رأيك ؟تريدين البحث عنهم داخل المنزل ؟

ثم أكمل قولي بعد أن تتنهّد وأحسّ الحرارة في جسدها:

- وماذا تقولين في أمري ؟

تضحـكُ بمكـر خفيف يختلط بالخجـل، وتجيب بمخارج حروف مختلفة أكتشفها لأول مرة:

- وِيلي.شْنو كَتْقولْ.

ثم غير ممانعة بعد أن رأَتْ حيرتي:

- اللي بَانْ لك..

تدخلُ الدار وأُغلقُ الباب، تصعد الدّرج ورائي وتدخل إلى فراش لا يزال ساخنا بحرارة جسد سهام.دون أن أسألها حتى عن اسمها. أفكّرُ:

- ما أجمل الاتفاقات السريعة. تُعفيك من الحوار المجاني واختبار الصبر والأنانية..

البردُ في الخارج، والمرأة الغريبة في بيتي لا تريد البرد. تقول لي ونحن في الفراش، دون سبب وجيه، كأنّما أصبحْنا أحِبّة، احكِ لي حكاية. تقول لي أُحِسُّ بالوحشة. لم أكنْ أبحثُ عن أحدٍ فضُمّني وانْسَ الأسئلة. أنا قَارْيَة ولكن الله مَاجَابَشْ الخَدْمَة ولاَ الرّاجَلْ وأنا لا أعرفك كما ينبغي. لكن كأنني أعرفكَ منذ زمن فحُكّ يدي حتى تَسْخَنَا واحك لي حكايتك فلا شكّ لديكَ حكاية.كلامك لطيف فحكَّ يدي. وتكلَّم فالبرد في الخارج..

البرد في الخارج وأنا أكاد أحسّ قدمي في الماء، أحسّ الماء والغرق عند حلقي. البرد في الخارج وأنا يُخالجني الخوف والندم، مُستعجل أخاف عودة سهام من السوق، أقول لها لنفْعَله.أَنْظُرُ إلى ضحكتها المحتشمة وأعرف أنها من الضواحي، جاءت تبحث عن لذة عابرة ولا شيء سيمنَعُها. أقول لها لنفعله. وأنا راغبة، تقول، لكن لننتظر قليلا..

وأنا أصنع الدفء ليديها، تقفز إلى ذهني صورة مكتبي في الجريدة. كتب عثمان يوما على حائط غرفة الاجتماعات، دون مراعاة للطّلاء الجديد، جزءا من قصيدة لفتاة قروية بعثتْ رسالة تحكي فيها عن حبّ من طرف واحد تقول فيها:

"العالم أبيض كسقف أبيض/ وحبيبي لا يزال راغبا في الانتظار"

أتذكّر وأنا أسمع كلامها ما كتب عثمان، وأَعُدّ الوقت وأقول لنفسي بقيّ القليل وتعود سهام...

قد تكون المشكلة في الزمن. جسدي امتداد الشهوة التي لا تنطفئ. تخرج الغريبة من تحت الفراش، تدخل المطبخ لتشرب فأعالج الأمر

على الكرسيّ الطويل دون أن أعرف كيف. الجسد مكوّر على الكرسي ونحـن نتعارك.مـن أمام التجربة أشـحَذُ كل أفكاري حول نسـيان الزمن فتتضاعفُ الحيرة وتتوهّجُ الأسئلة ثم أرتخي. تقترب مني وتقول:

- صَافي؟ قُلْتُ لك انْتظر وأنت لا تُريد.صَافي؟

ثم تخرج غاضبة وتنسى شالها الأصفر المزيّن دليل إذانتي..

كانت صاحبة الشال الأصفر جزءا من سلسلة عرفتُ كيف بدأتْ، لكنني لم أسـتطع التكهّن بعد ذلك كيف سـتنتهي. فقد انسـقْتُ بعد هذه التجربة، تحت ضغط لا تفسير له، أبحثُ عن شيء غير موجود ربّما.. لكننـي فـي كلّ مـرة أفكّـر فيها في صاحبة الشـال، تفاجئني العبارة التي قالت لي ونحن في الفراش:" أنا قَارْيَة ولكن الله مَاجَابَشْ الخَدْمَة ولاَ الرّاجَلْ". أفكّر في هذه الجدليّة التي تجمع التعليم بالزوج، كيف تربط المرأة حريتها واستقلالها عن الأسرة بالزواج أو العمل.العمل مهم ويفيد في صياغة هذه الاستقلالية، والزوج إذا كان أمره ناجحا، يفيد أيضا..

(البلـد يتطـوّر بفعـل العمـل وخـروج المـرأة إلى سـوق الشـغل، ولهـذا سـنقف يومـا على تطورات لا نعرف كيـف نتصرّف معها) كتبتُ في عمودي بالجريدة، ثم أضفتُ بأنّنا نجهّز جيلا سـيخرج إلى الشـارع ولن يعرف كيف يتصرّف مع كلّ هذه التحوّلات والمدرسة الفاشلة هي السبب..

في زمن ما، في الدار البيضاء على الخصوص، كنتُ عدوّ الجسد لأن الشارع صعب. وكنتُ في تناغم العالم أصعد وأهبط من غير تؤدة كمـن يتسـلّق هضبـة أو يركـب خيـلا فحوّلتُهـا إلى عملية آليّـة لا تنفع. وبعدها حاولتُ أن أرمّم الداخل فلم أَفْلَحْ، فسـافرتُ في الزمن أبحثُ عمّا لا يوجد، خصوصا وأن صوتا وقر في داخلي وقال:

- الدماغ مصدر الإزعاج!

فلَعلّي سأظلُّ كائنا طارئا على الحياة أعيشُ اللحظة ظنّا مني أنني أصنعها بينما تصنعني.ورغم ذلك، وفي خضمّ التجربة، بعد لقائي من جديد مع سهام، وبعد هذا الاستقرار الخفيف، اختبرتُ الكثير من عناصر الحياة معها كي أفلَحَ في الالتزام بما ينبغي وأتوازن وأتلذّذ وأنسى التجارب التي قبلها: اختبرتُ رائحة العلوّ الأبدي باليد واللسان. اختبرتُ الروائح والأصوات والبكاء الموازي للحالة. رائحة الشيشة والحشيش والعطر حين نبالغ في تنسّم والتقاط اللحظات. رائحة السمك في ثياب وأيدي سهام التي تعود من السوق إلى حضني مباشرة. رائحة الكذب الذي غمستُ نفسي فيه لأحمي الوجود حين أنبش الرجل العميق القديم الذي كان يسوق قبيلة من النساء..ثم اختَبَرنا معا اللّوح المخفي الذي يسمُ ذاكرتنا الأولى بما تقتضيه الأقدار واختَبَرْنا قراءة الشّعر في الفراش لأنّه يجعلني متوازنا. اختبرنا تأمّلَ زغب اليدين وحسابه لنَنْسى التفاصيل الأهم إذ لا يحرق النار سوى النار كما قال لي صاحب المنزل. اختبرنا مقاومة الحبّ والضّجَر منه والغيرة التي تُشعل العلاقة.اختبرنا النّحس الذي يصيب الأعضاء فتصير مثل كائنات رخوة لا نألو جهدا لتسخينها، وهو النّحس الذي يجعل الحياة غير ملائمة وغير جديرة بالعيش فنتكلّمُ عن الموت ونوغل في تذكّر طفولتينا العامرتين بالأحزان(كان تشابهنا فظيعا ويعطي الدليل على صدق الإشارات والتجلّيات).ثم اختبرنا كذلك، بحكمة وتبصّر، تقلب أهواء الجيران وأمزجتهم فتقول لي:

- لا يُؤذيَنّكَ قولهم، لهم أفئدة تدور مع الدوائر وأنا أعرفُ كيف أعيش مع العدو ومع المتشكّك.

كان همّ الجيران أن يعرفوا إذا كانت زوجتي أم عشيقتي، وكان يحطّم عيونهم المتطلّعة صمتنا واندماجنا دون أن نُفضي..

اختبرنا المصائر كلها لأن الجسد هشّ فلم تعد تعنينا أي مسافة

نقطـع ونحـن فـي الذروة..ودائما حين أُفلتُ مـن الزمن وتبعاته أقول ما الذي يجعلني أهنأ وأستقرّ مع هذا الجسد يا حبيبتي؟ ما الذي يجعلني أعـرف الدقيـق فيـه وفي مجـراه؟ ما الذي يجعلنا عموما نعرف الجسـد ونحسّ التباسه في الوقت ذاته؟ هل لأنّنا نحسّ رخاوته؟ لأنّنا نَتحسّسه طيّعا مقبولا ويتقلّبُ مع الأمزجة والحالات؟ لأننا نعرفه تحت الغطاء؟ نعرفُ ثغراته ؟ نعرفه طبيعيا، حارّا، باردا؟ ثمّ أين نريد للجسد أن يكون: متعاليـا فـي الشـارع أم متواضعـا فـي المرحـاض؟ مسـتقيما أم منحدرا ؟مريضا أم في صحة عالية؟ يشهق أم يغفو أم يتثاءب أم يتريّض؟

فتجيبني سـهام، بعد أن تضحك ممّا تسـميه ترهاتي الجميلة، بأنّ المسـألة فعلا تكمن في السـؤال: أين نريد للجسـد أن يكون؟ أين نريد للجسـد أن يكـون؟ فـي المقهى ليشـرب العصيـر؟ أم في القبر ليموت؟ ثـم نتبـادل عبـارات الحبّ فأقول لها أريدك وتقول لي أريدك. أسترسـل وأقـول أريـدك وأريـد الكثير من الأمـور. أريد لذكرياتي عن الجامعة أن تتهذّب وأريد أن يتحوّل السياسيون عن النفاق، وأريد للبحر أن يُكفّر عن خطاياه تجاه الأجسـاد التي أكلها السـمك..ثم سرعان ما أطوي أفكاري مثل طيّ السجلّ للكتاب فأحمل القلم وأكتُبُ عن جسد الوطن وأقول يـا رجـل، كيف تريد لجسـد الوطـن أن يكون؟كيف تريد له أن ينتعش؟ تريـده وطنـا رخـوا أم صلبا؟ حـارا أم باردا؟ صلبا ومفتوحا على مصائر القانون أم رخوا بالتوافقات المشبوهة؟

كنا قد اختبرنا الطريق كذلك وهي ما يبقى في نهاية الحكاية.اختبرنا الخارج، خارج الجسد، بعطاياه وقسوته.اختبرْناهُ حتى ضجر منا..

صراط نمشي فيه هي الحياة ولا نضمن.اختبرنا المشي في الطرقات والتفكّر في حالات الناس وأوضاعهم: نرى شبابا وبناتٍ يحاولون خلق حالـة جديـدة ويتهرّبـون من ضيـق الواقع الذي لا يُعطـي فرصة للعيش

الكريـم. ينغمسـون فـي الملـذات فاكهين غيـر مُنتبهين لمـا يحصل وما يتحـوّل ومـا يُحـاك ضدهـم، هاربين مـن الفراغ والبطالـة وهموم الحياة يلجؤون إلى الشيشـة والحشـيش والقَرْقوبِي والبيرة وأحيانا إلى الصلاة والتنسّـك.كانت سـهام أحيانـا تشـرد وتعـوم فـي حوضي وحيـن أنبّهها تحدّثنـي عـن علاقـات الشـباب، تقـول إن هذا الانغماس فـي الملذات يخيفها، نحن لا نعرف وقتا معيّنا للذة، فهل نهربُ من مشـاكل الوقت إلى الجسـد؟ هل يعرف الشـباب أنّ اللذّة طاقة ثمينة ينبغي أن يحافظوا عليهـا ويتصرّفـوا فيهـا بحسـاب؟ تقـول إنّ غياب سـبُل التعلـم المفيدة وتوافـر الوقـت يجعـل الإنسـان ينتبـه لملذاته الحسـيّة، لاهيا عـن البناء وعـن الحيـاة العاديـة. تقول إنّ على البنات أن يُحافظن على أجسـادهن من التجارب التي تبدو زاهية في البداية لكنّها تدفَعُ إلى الحُفر، تقول إنّ انتشـار المخدرات حول المدارس يُخيفها وانتشـار الصّيادين المتربّصين بالبنات يُخيفها فأفرحُ لأنّها أحيانا تتواطأُ معي وتحاولُ أن تكونَني..

كانـت تعـرف زلاتي وقلقي وتقلّباتي، فاختبَرَتْ معي الضجر على الخصـوص، كانـت تقـول لي أحيانا في الظلمـة كأنّما تقرأ من كتاب أو كأنّما في حلم:

– قـد لا ترغـب فـيّ فـي لحظـة. ربمـا أبـدو لك مختلفة بسـبب السوائل والضجر. لكني رغم ذلك سأُريدك دائما حتى تعود إلى الرشد. فـي اللّيل والوحشـة وقراءة الشّـعر الذي يجعلـك مُتوازنا آخر اللّيل.في الصبـاح الباكـر حيـن توصلني إلى المحطة قبل أن يفتح الجيران أبوابهم فألتصـقُ بذراعـك. في الفراش ألحَمُـك وتلحمني والبرد دائما هو البرد فأنا أريد البرد في الخارج ولا أريده يأكلُ الضلوع والروح في الداخل. سـأُريدك في الليلة وأنت سـكران رغم أني لا أحبّ هذا الوضع وأكرهُ الرائحة. لكنك تقولُ كلاما لطيفا حين تسكرْ. تقول وَلّفْتَك أو تَوْحَشْتَكْ

وتقـول أنـتِ عالمي.هـل تريدني في الليل كما أريدك؟ نمشـي أنا وإيّاك فيغمرنا ضوء الشـارع قرب السـينما وفي "الكُونْسِـرْفَاتْوَارْ" البعيد حين نحضر حفلا موسيقيا أو في متحف الحيّ القديم حين نستمتعُ بمعرض فنـيّ أو قـرب البحـر دون خـوف ولا رهبـة؟ أحملـك علـى كتفي قليلا وسط الظلمة حين تتعبُ من السّكر والمشي والمدينة متسامحة وناسها طيبين؟ قل أين تريدني ؟ وكيف ؟أن أكون طيّعة؟ عصيّة؟ يَلاّه، قل لي أيـن تريدنـي وأكون؟..ثـم تصمتُ وألمَحُ الدمـعَ مُتلألئا دوّارا في عينيها فأنحدرُ إلى بئر الذّنب السـحيق وأفكّر في عطائها وجُحودي.. أصمتُ قليـلا وأقـول لهـا (وربمـا لا أقـول) إنـي لا أريدها في أيّ مـكان. إنّما أريـد لإحسـاس الزمـن أن يتهذّب بداخلي فأنسـى البطالة والركوع.أريد أن أمسـح ذكرياتـي فـي الجامعة والحُكـرة وأعيش مثل كلّ الناس، أريد أن أفهم حياتي فما يمنعني من الفهم هو الضعف وقلة الحيلة..

ثم هاهو الزمن يمضي فنكون قد اختبَرْنا أمورا لا تُنسى.

هل كان ما يروقني فيها هو هذا التسامح الكبير وهذا الإذعان؟ هل ما شجّعني على اقتراف الخطيئة وخيانتها هي بساطتُها؟ ألا يُريدُ الرّجل العربي دائما امرأة لطيفة وجميلة وخانعة وغفورة؟..

كانـت تجاملنـي وقـتَ الضجـر وتقرأ شـعرا من ذاكرتهـا، تذكّرني بمـا أحـبّ فتقـرأ قصائـد شـعراء أمريـكا السـود، وشـعر الصعاليك لأنّ هؤلاء، يمثّلون لها الكثير بفعل التشـرّد والنضال لإدراك أسـباب الحياة. تقـرأ شـعر سـنغور وتذكّرنـي دائمـا بمقطع جميل" **مجـدي هو أن أغني جمـال الغائبـة**"، وأحيانـا تفتـح كتاب طوق الحمامة وتقرأ منه وتقول لي إحساسها بما تقرأ..

ثـم قـرأتْ أوراقـي فـي المطبخ فلم تعـد تطيقُ الشـعر ولا الكلام الجميـل الـذي أقـرأه عليهـا فـي سـخونة الفراش.أقول لها فـي الهاتف

إنني ندمان، أقول إن الندم أصبح عائلتي الصغيرة. أصبح فاكهتي.الندم يخْمِشُ روحي كأظافر صقيلة طويلة.أقول لها إنني أعمد إلى ندمي كل مساء، أقطّعه فصوصا فُصوصا وأجوب به الأزقة..أسْتَعْطفُها فتقول لي في الهاتف:

- اليوم(لا تقصد النهار فعلا، لكن ما تحمله العبارة من مغزى يكسّر الزمن فاليوم عندنا يعني أحيانا الوُصول إلى خلاصة) لا أستطيع العودة إلى ما كان. أنتَ لا تفهمني.هل تسمعُ أصلا ما أقول؟

لكنني مع مرور الأيام، حين أعود إلى الذاكرة، دائما في فراش الأحد الساخن، أو على الكرسي المحشور بين الثلاجة وقنينة الغاز، محشورا في الظلّ، تماما كما حشرتُ نفسي في مكان ضيق بسبب عدم حرصي، أفكّر بأنني لا أقول لها عادة "توحشْتَك" في الخروج أو الدخول، ولا في السّكرة الخفيفة فقط كما تتوهّم وأتوهّم. أقولها أيضا عندما أوصلُها لتركب باتجاه المدينة الصغيرة حيث تسكنُ عائلتها لتزورهم..

لا بد أن تزور عائلتها كل أسبوع، في تلك المدينة الصغيرة القريبة جدا، وتعود بهاتفها المحمول مليئا بالصور فتعانقني وهي ترتدي لباسها الأبيض دون أن تغلق شراعه فتكشف عن درر صغيرة يلزمها الوقت لتنمو وتُريني الصوّر:

- هذه خالتي. هذه ابنة أختي ترقص.بْغِيتْهَا تَشْطَحْ هَكّا بَاشْ تْخَرَّجْ دَاكَشِّي اللِّي عَنْدْهَا وْهِيَّ صْغِيرَة. مَيَوْقَعْشْ لِيهَا بْحَالِي.مَبْغِتْهَاشْ تْكُونْ حْنِينَة بْحَالِي.(تقولها وتنظر من خلف الهاتف بعينين مرفوعتين قليلا لترى تأثير كلامها علي) هذا أخي المِكَانِيسْيَان.قبيح اومَكَيْتْفَاهَمْشْ.دَاكْ النّهَارْ ضْرَبْ وَاحَدْ خَيّنا تْبَسَّلْ عْلِيّا(وترفع عينيها من جديد)..

أتابعُ حكيها فيتوقّفُ الزّمن الذي يُتعب أعصابي ولا يجعلني أركّز.

أنظر إليها مَلياّ كأنما سأفْقدها. أما هي فلا تنظرُ إليّ بذاتِ الطريقة سوى ونحن في قمة الوَله..في الفضاء الفسيح لعنفوان الجسد والحركة.حين يهزّنا الرّهَزُ القويّ وتطغى الظلمة الخفيفة بعد الغروب مباشرة. ننحدِرُ في الإطار فتُمسك وجهي بين يديها وتَعْصره بحنان، وتنظر مثل أمّ، كأنما ستفقدني إلى الأبد فأخاف من نظرتها وأشتهيها.أحْكي لها كيف كان لذيذا أن ننظر إلى بعضنا فقط، دون حركة، كيف نظلّ نتأمل تفاصيل وجهينا فنكتشفُ كم يُصبحُ الإنسان جميلا بالهدوء والتّلاقي والعناق والحبّ وأحكي لها كيف كنا نفهم معا – دون كلام- من النظرة العميقة للعيون، أنّ أحبّك في الفِلم الذي رأيناه في السرير متأخِّرَيْنِ، تعني أحبّك جامدة بالحروف، لأن المُمثّلين لا يَعيشون صهد العلاقة، ولا يحبّون سوى في اتجاه الكاميرا. أما في الحياة التي نعيشها معا فتَعْني أحتاجُك ولن أستغني أبدا.ثم أُوصِلها إلى المحطة وأحاول أن أبُوسها قبل أن يغلق الباب سائق الطاكسي فتنظر إليّ بعتاب وتشير إلى جمهور الرّكاب المُحملقين فينا..

حياة سهام عامرة بالتفاصيل والأحداث، وأنا، في غمرة أنانيتي اكتشفتُ في النهاية أنّني لم أكن أهتم سوى بترميم الثقوب. لم أنتبه إلى طفولتها التي كانت تحكي عنها بين الفينة والأخرى، ولا بصديقاتها اللواتي حرّمتُ عليها أن تُعرّفني بهن.كنتُ أنانيا أرغب فيها بقدر محسوب..

كنتُ لا أفكّر كثيرا حين أُخطئ بل أعيش على الطبيعة.وقد أخبرتُ عثمان مرارا لعلّه ينصحني دون جدوى. هوسُ الزمن يَنتابني بين الفينة والأخرى، يتسلّل القلق إلى الأعضاء فأكون مع النساء مجردا من كل شيء عدا جنوني ورغبتي في أن أكون كائنا علويا إلى جانبهن وأنسى تشرّد البطالة والحقارة وأنتصرَ في معركة أخرى. ومنذ أن اقتحمت

العالم العلوي تركت أهل العالم السفلي في عماهم يَعمهون لأن الفهم والبصيرة لا يتأتّيان إلا لمن رحم الله..أحيانا تصفَعُني أسئلة حارقة لا عزاء لي معها وأتذكّر الماضي دفعة واحدة مثل دفقة الموت فلا يسعفني الريق أبلعه.أسألني أَإِلى هذا الحدّ يُدجّننا الماضي؟

مع مرور الوقت، وبعد حكاية الشال الأصفر، وقبل أن تضبطني سهام، توالتِ الخيانات. عشتُ حكاية غريبة رسّخَتْ خلالها فتاة مُخادعة تجربة صغيرة وحَبَكَتْها فجاءت بألوان متداخلة يصعبُ تصديقها، فقد حاكتْ لي دسائسَ كثيرة كي أظلّ معها وأنسى سهام. لم أُدرِك بأنّها كانت تراقبني قبل أن أَراها لأول مرة. التقيتُها مُصادفة في السوق، كلّمتُها قليلا فذهبت معي إلى الشقة، كانت تحب الفوطة على ظهرها باردة ولا أنزعُها سوى بعد العراك وقد أصبحْنا بعد مرور الزمن أحبّة مُغرمين بالتعرّي وتعداد الأعضاء ووصف الحالات، كنتُ أقول لها بين الفينة والأخرى:

- أصبحتِ غليظة.

لا تتكلّم، بل ترتخي وتَتْرُكُنِي أمسحُ العرق من بين ثنايا جسدها وهضباته، وحين تُغادر أكتبُ دون رحمة عن ما حصل بيننا، وعن التفاصيل الدقيقة للرّهز الذي يشدنا، حتّى أصبح عثمان والمهدي مُتفاجئَيْن لهذه الغزارة ولما يَنداحُ من حكايات أُمَوِّهُهاَ مثل خبير خيوط ماكر فأكاد أرى لعابهما يسيلُ لِغِنى الخيال...ثم اكتشفتُ بأنّها تسكنُ قريبا مني فتملّكني الهلع، وذلك لخوفي أن تلتقي بها سهام يوما أو تتحادثا في شأني، غير أن ضربة حظّ ساعدتْني وأراحت قلبي، فقد جاء شاب من عائلتها وحملها معه إلى مدينة بعيدة فهِئْتُ..

كانت أوراقي التي نَثرتْها سهام في كلّ مكان تَحوي حكايات متداخلة يشتبكُ الحقيقي فيها بالمُفترض. بل إنني كنتُ أحرص في

بعض الأوراق على كتابة جمل مفاتيح، تغطّي صورة لا بد أن أتذكّرها، عمّا أريد إيصاله من أفكار وما سأرصد من صوّر. كأن أكتبَ مثلا " تُريدُه داخل العلبة بعد الأسود المتوسّط"، وهي جملة قصيرة تكثّفُ حكاية طويلةً عن فتاة سوداء متوسّطة القامة وقع بيني وبينها ما وقع ولم يسبق أن جرّبت انحدار اللّحم في مجراه، وكانت جموحا تكاد تُطلق لصراخها العقال غير أنني كنتُ مبصرا وبصيرا فتعلّمتُ كيف تكبحُ الموسيقى هواجسَ الوقت..أو أكتُبَ " القُبح ليس رَديف الفظاظة دائما" وذلك لأتذكّر حالة فتاة لم تكن جميلة، لكنّها متعالية وتتكلم بفظاظة، وإذ حاولتُ أن أغيِّرَها، نصحتُها بالتفكير في تغيير أسلوبها، فواجهتْني بعنف ثم نَدِمَتْ وعادَتْ للاعتذار وبكتْ لأنني لم أمنحها فرصة، بل وطلبتْ مني أن أتغيّر بدوري وأنسى إساءتها لنكون لبعضنا. ولم تكُنْ رغبتي في تغْييرها حُبّا ولا إعجابا، ولكن غريزة الخير والإصلاح تتيقّظُ أحيانا وتعطي ثمارها. وكان أن استفدتُ من الحالة الإنسانية وما يَعتَوِرُها من تقلّبات، بعد أن عشتُ لفترة وأنا أركّزُ على جانب واحد...ثم عشتُ تجارب أخرى أعْطَتْني فكرةً جيدة عن نساء من طراز مختلف. لقد بدأتُ ألتقي بنزهة، وهي فتاة من الحجم الكبير، تلبسُ نظارتين وشعرها قصير وأسنانها منفرجة قليلا. كنتُ أراها في اختلاس الوقت الذي يَتَصَرّم على حبيبتي وهي تعمل أو تزور العائلة أو تقضي غرضا من أغراضي. أحسسْتُ معها بأنني كدتُ آلَفُ فتاة أخرى غير سهام، لكنني خفتُ أن أنتهي مع واحدة وأفكّرَ في غيرها، خصوصا وأنني هربتُ إليها من حنيني.. نزهة كانت تقول لي عندما نكون معاً:

- أنت خجول وجميل وحزين لهذا سأحبك.

كانت مثقّفة رغم أنّها لم تدرُس في الجامعة، بل بعصامية فريدة لم تتحقّق للكثيرات. ثم إنّها وقتَ الحاجة لا تستطيع تسمية أعضائها، وقد

كتبتُ في حلقة من الحلقات التي أنشر بالجريدة، عمودا صغيرا على شكل رسالة، مُستوْحِيا الأفكار من علاقتي بنزهة، وكنتُ مثل سياسي يبعث الرسائل التي ستفيد تغييرا أو ثورة، وأنا أعنونُ المقال هكذا: "سَمّوا أعضاءكم".

مع مرور الوقت غرقْتُ مثل أيّ تافه في سراديب الخيانة، عرفتُ العديد من العابرات اللواتي كُنتُ التقطُهن أمام المعامل وفي المنتزهات وأمام المستشفى والمحطة. وتعرّفتُ على فتيات يُغامرن من أجل سيجارة أو قنينة جعّة، يجئن الكباريهات أو مقاهي الشيشة من القرية مباشرة، ثم يُصبحن بعد التدرّب على الحياة بقدرة الحلاق والمزيّن أميرات ساهرات طوال الليل. انحدرْتُ مليّا وأصبحتُ مُغرما بالتنوّع والاختلاف وتغيير الأمكنة مثل أيّ بحّار، وحدث أن قطعتُ الوادي ونشفَتْ رجلايَ فاكتشفتُ بأنني أصبحتُ بعيدا عن السعادة في غمرة كل هذا الإشباع والتنوّع الموهوم، شعرتُ بأنني أعود إلى ما كنتُ عليه في الدار البيضاء من تشرّد ووطء الخفيف العابر الذي يُشبع الجسد ولا يُشبعُ الروح. وفي الجهة المقابلة، اكتشفتُ البؤس الذي يُغطّي القلوب الهاربة من تجارب الحياة، حكايات تُدمي وتكسر الفؤاد: هروب من قريب أو زوجِ أُمٍّ مغتصب، أو أخ سكير يكسر الضلوع، أو تجربة حمْلٍ بعد حبّ بين الأحراش. وعرفتُ بأنّ خلف العيون الساهرة والألوان والمساحيق يختبئ جبل من المآسي، ما يجعلهن يشربن كثيرا ولا يستطعن أن يتصرّفنَ على راحتهن في أي مكان، بل تصير أرواحهنّ مشحوذة مثل سكاكين صقيلةٍ وسأكتَشفُ المزيد من الحكايات حين أغيّر جلدي وأعمل ساقيا في مطعم من مطاعم المدينة، وقتَها سأتوغّل في التجربة حتى الصّميم.لكن من سيجعلني فعلا أعرفُ بأنني لا أفقه شيئا في أمور الحب هي سعاد، وهيّ امرأة التَقَيْتُها في المطعم، سهلة

وطيّعة وتريد أن تنسى.. بعد ابتسامة صغيرة توغّلنا في الدّروب فأصبح همّها إعطاء نموذج غريب لنساء يعبرن إلى ردهات الجنون والهيام عبر طريق مغاير لا يعتاده الرجال. تقول إنها ليستْ خيانة لأن الطريق العادية معبّدة لرجل واحد، فأستغربُ كثيرا بل وتتسعُ حدقتا عيْنيّ استغرابا حين أعرف أنّها تحتفي بالحياة من مناطق الظّل التي ترويها وتكسِر إحساسها بالذنب الذي ينبت في منطقة صناعة الأجيال..ثم إنّي اكتشفتُ رائحة الذئب والذنب في المجرى وأنا أصوغ تجربتي، لقد آمنت أن العابرات مثل غرف الفنادق الرخيصة، تتعلّم مع الوقتِ كيفَ تحتاطُ منها فتشرب من الصنبور بدل الكأس الموضوع على الطاولة، وتضع ملابسك بحذر فوق الخزانة الصغيرة كي لا تنسى أيّ شيء، وتغادرها فتعمد إلى الاستحمام وترك المفتاح على الكُونْطْوارِ وتنسى..لذلك عمدتُ دائما إلى بري روحي التي أصبحت مثل سكين لامع..

عندما أخلو إلى متاه الخلق، أعلو وأهبط مثل نعامة المعنى وأدفن وجهي في الظلمة والكائنَ المرافق لي في الوسادة، لا تواتيني سريعا رجفة الأشياء أو يغمرني اصطدام إحليل التجربة بل أنصهر في بوتقة الزمن. حرمة الصعود والهبوط لا يريد معها جزء مني أن أستعجل النزول إلى التراخي فيُصارع تلك الحاسة الخفيّة التي تفرضُ الإيقاع، الحاسة الخفية تفرضه في النهاية وتنتهي الحلاوة بالخمود.لكن في غمرة الحركة، والانشغال، لا تناسبني غير صورة واحدة، وساحة معشوشبة مثل التي بين يدي في ظلمة السّرير، تظهر ساحة الرباط والشباب يركضون في كلّ مكان فأعلم أنّ الحالات تتوالى وتستقيم، لان الانفراج المعلن عنه في الوظائف مع الحكومة يُلائِمُ انفراج اللذة على سريري، وركوب الجسد يشبه ركوب النضال.الأشجار المحترمة لا تعدمها الساحة:ساحة الجسد وساحة الرباط.نداعب الأشجار ونحن نفرّ من هجوم البوليس،

وأداعب الأشجار التي تحتي وأنا أرسم الصوّر..

وفي محطّات أخرى أمسحُ عرق الجسد أو أرى خدوشه البارزة فتعود إلى ذهني خدوش الحياة ومصاعب العمال في الدار البيضاء حين ينتظرون في مواقف العمل من يقودهم نحو الحفر والبناء، كلّها خدوش تتضامُّ فتمنح اللحظة حلاوة ممزوجة بالألم..

ربّما كان استرخاء، وربّما كان اكتئابا أن أكرّسَ وقتي، بين مقال وآخر، للنوم والكسل لمدة طويلة. أو أن أميل إلى الحلول السهلة: جلسة طويلة أمام التلفاز، قراءة جريدة أو مجلة، التنقيب في حكايات الأولاد والبنات الذين تصلني رسائلهم. لكن أن أصلَ إلى الخلاصات، فذلك يتطلّبُ جهدا لم يعد في مُكنتي، وقد عرفتُ في غمرة الحياة والتجربة، أن عالم النساء صعب وطويلة حباله، كالحياة نفسها، يتطلب عناء وعملا، يتطلّبُ الانتظار والصّبر، وتوقع المفاجآت وإطفاء الرغبات في لحظة توهُّجها حين تحتاج ذلك؛كما نسكب سَطلا من الماء البارد على أجسادنا لننطفئ. إنه عالم يتطلّبُ لاعب ورق محنك، لا يرمي أوراقه كاملة بل ينتظر اللحظة المناسبة لذلك.وحتى في قولهن "لا" وهنّ راغبات، وفي كلام الممثلة في الفيلم حين تقول لصاحبها لقد أرادني صديقي السابق أن أذهب إلى مكان ما ولكنني فضلت مكانا آخر تجِد ذلك كلّه ادعاء لخلق الغموض وهو ما لم يكن يُعجب سهام حين أفسّره.. تعلّمتُ كلّ ذلك بأناة معها في غمرة انشغالي بعلاقتنا، ثم تعمّق في لحظة تَجَلّ وأنا أسمع حارس العمارة، التي يوجد بها مقرّ الجريدة يقول لي، دون سبب مقنع ونحن نتكلّم:

- لَعْيالاَتْ عِلْمْ.

دون سبب وجيه أسمعه. يقولها ويمضي مثل نبي قهَرَتْهُ المهمة، وأدركُ أن أمر الجسد عجيب.لا نتعلّم التعامل معه في أوّل تجربة بل

يجيء الفهم لوحده، هناك تجربة تجيء مع الزمن، مسكوت عنها، يتناقلها البشر دون تمرين ولا دراسة. وسألتُ نفسي مرارا وأنا أكتُب مقالاتي وأرتّب صوّري: لماذا يكون الجسد مُمتعا للبصر؟ لماذا تكون أشياء كثيرة ممتعة للبصر دون أخرى؟ لماذا يكون الرقص مُمتعا للبصر مثلا؟ لماذا لا نتمتع مثل ذلك بالنظر إلى الركض؟أو المشي؟ولأن كلّ تجربة هي إضافة، استفدتُ من هذا العلم أيضا، وكنت آتيهن في كلّ مكان وأكتب للجريدة حكاياتهن، أتأمّلُ أوضاعهنّ وأعمّق البحث الذي كبر وتَغَوّلَ حتى لم أعُد أعرفُ إلى أين سيقودني. واقتنعتُ تماما بأنّ السرعة لم تكن مطلوبة. كنتُ أعلم أن الهدوء أجمل الصفات، وأن ممارسة هادئة أفضل، لكن في مرات كثيرة، أدوخ وأنسى فتأتي قوة الزمن الطاغية فأصبِحُ عدو الجسد، أركبه بلهفة من يقطف تفاحا غير ناضج. وكان عثمان، الوحيد الذي يعرفُ حكاياتي وحقيقتها. أكاد أرى الحسد في عينيه، وأنا أحكي له حكايات تُؤلمني ولا أحسّ معها بأي راحة. لكنه يُرفضُ أن يحكي لي قصصه مع النساء ويكتفي بما عندي، بل يرفضُ دائما القول إنْ كان يعرف امرأة. تعجّبتُ لهذا الأمر، ولم أفهم وضعه سوى بعد مرور الوقت، وإن كنتُ أتعجّبُ كيف يتحدّث عن النساء بوضاعة شديدة، فقد قال لي مرة تعقيبا على حكايتي مع نزهة:

– grand format ?

ومرّة كان يحدّثني عن الوفاء والخيانة متحمّسا لإحدى حكاياتي فقال:

– لا يوجد بهذه البلاد، سوى صنفين من النساء، إما متحجبات مغرقات في التطرّف، أو متفسّخات لا تَأمَنُ أن ينقلنَ إلى فراشك مرضا لا علاج له، والأفضل أن يظلّ الإنسان بعيدا عنهنّ ويحاول أن يستفيد من الفُرص..

وبدا لي أن هذا الحكم المتسرّع قاس جدا، ولا يمكن أن يصدر إلا عن شخص لم يعرف الحياة على حقيقتها، فلم أعلّق واكتفيتُ بأن أضفتُ وجهة نظره إلى أوراقي لأدرسه كحالة بعد أن كان فيلسوفا يقود خطواتي..لقد أصبح الأستاذ محطّ ملاحظة، وقريبا سأُسقط عرشه وأتمنى لو كان في مُكنتي أن أمنحه نصائحي حين أكشِفُ أمره، ولن أسخر منه أو ألومه..كانتْ أمامي الكثير من النماذج الرّاقية لنساء عرفنَ كيف ينتصرن على كلّ العوائق ويُحقّقنَ النجاحات، لذلك بدا لي كلامه مُتحاملا وغير مناسب..لكنني فضّلتُ الصّمت.

في ذلك اليوم البعيد، كنتُ رجلا عاريا ووحيدا يُمسك بحزمة أوراق في المطبخ. وفي مطبخ الحياة كذلك أصبحتُ عالقا مع فراغ لا قِبَل لي به. هذا ما كُنته في تلك اللحظة التي رأيتُ فيها أوراقي مبعثرة، وهو ما سأظلّه لوقت طويل، بعد أن تبعثرت أوراقي في الحياة واكتشفت أن دخول الحمام ليس كخروجه كما تقول الحكمة، وأن حياتي مع سهام قبل تلك اللحظة التي تخاصَمْنا فيها شكّلتْ فارقا مُهما لحياة لن أستطيع العودة إليها، كنتُ أعيش لوحدي وأكتفي بنزوات طارئة، لكنها كانت قد دخلت حياتي وغيّرتْها، ولن يعود في مكنتي العودة إلى سابق عهدي.

أثناء معرفتي بسهام، كُنتُ أخونها. وحين حاولتُ استعادتَها حكيتُ لها كل حكاياتي مثل ما قد يحدث لمسيحيّ يقف أمام القسّ للاعتراف. لكنّها رغم ذلك ظلّت على عِنادها ولم تردّد تلك العبارة التي يردّدها القساوسة، والتي تجعل المذنبَ يغادر المكان مرتاحا وهو متيقّن بأن ذنوبه قد مُسحتْ تماما. لم تقلْ لي اذهب، غفرنا لك. بل قالتْ كلاما مُبهما عن الخوف وكأنّ حكاياتي لا تعنيها. وبعد أن اختلفْنا، عرفتُ فتيات أخريات لم يبقَ في ذهني منهن الكثير، لكنني مع

ذلك لم أستطع نسيانها، ولا نسيان ذكرياتنا وأيامنا الجميلة الرتيبة التي تجعلني أحسُّ بالاطمئنان. وعندما طال غيابها، كنتُ أظلُّ في أوقات كثيرة على الكرسيّ أراجع يومياتنا القديمة وذكرياتنا، إلى أن لاح لي في يوم خاطر غريب أرعَبَني وكاد أن يجمّد الدم في العروق. فقد حاولتُ وأنا أقلّبُ في ذكرياتنا أن أتذكّر ملامحها بدقّة في لحظة حنين فلم أفلح. ألححتُ كثيرا على ذاكرتي فلم تُسعفني أبدا وكانت عَقِبَ كلّ حنين تظهر لي تفاصيل أحداث وأمكنة وكلمات دون أن أستطيع تمييز الملامح بين ركام الوجوه المعجونة بين ثنايا الذاكرة، عندها تملّكني الرعبُ وأحسستُ بأنني أحببتُ شبحا. ذلك أن ملامحها كانت قريبة من ذاكرتي ولا أستطيع رَسْمَها، وكلّ ما استطعتُ تذكّره فقط هو عيناها اللتان تغمزان حين تضحك وشفتاها اللتان تلومانني وتحكيّان خيانتي..

(7)

بـدأتْ صفحـةً للأسـرة ومشـاكلها ونصائح للعنايـة بالطفل، لجسّ النبض. وتحوّلتْ بعد مرور الوقت إلى معبر لرسـائل العشـاق، ومختبرا للنـزوات وزاويـة للطعـن والانتقـام والتشـكي..ولأنها كانت تَعِـدُ دائما بالغامض المفاجئ الذي يجعل القراء يتحفّزون وينتظرونها بفارغ الصبر، فـإنّ المهـدي لـم يـر مانعا من مضاعفـة الجرعة لتصيـر الحكايات أكثر غرابة؛ وصار قُرّاؤنا يُفاجأون بحكايات عمّن أحبّ نعجة وانتحر بسبب فراقـه عنهـا، ومـن اغتصب ديـكا، ومن حاورته جنّية في مسـاء وطلبت الـزواج منـه. وصـارت الحـوارات تحتدّ على الصفحة التـي غَدَتْ ثقيلة ولـم تعـد تكفـي لـكلّ الحكايات الأسـبوعية. كان خيالـي يجد لذّته في إضفاء مسحة من الغرابة على حكايات تصلني من الأحياء وبعض القرى المجـاورة، حتـى لتَـكاد تختفي الحكايات الحقيقيـة، ويبرز جبل الخيال صلفا نافذا. بل إنّني، حين يشـحّ المثير أكتُبُ من وحي الخيال ما يُفيد الاسـتمرار. مُسـتفيدا من لحظات خلوتي الصافية بالمطبخ، مسـتعيرا في كثيـر مـن الأحيان تجاربي أو تجارب شـخوص أقـرأ عنها في الروايات أو أراها في الأفلام أو تحكي لي عنها جارتي عَيشة، ليقيني بأنّ العالم واحد، وأنّ المسافة بين الخيال والواقع محض افتراء..

كانـتْ قـد نبّهتنـي سـهام، كأنّما تعـرف مهمتي، إلـى أهمية معرفة المحيط. فعندما تسـكُن حيّا شـعبيا، تكون غير معنيّ في البداية بتسـقّط أخبـار النـاس أو مراقبـة حركتهـم، ثم تبـدأ بالتدريج، فـي مراقبتهم كما يراقبونك لكي تعيش وتأْمَنَ شرّهم. المُراقبة أمر هام لتظلّ حيا وتَستقرّ أمورك في مكان لا تعرف عنه الكثير. قالت إن أهمّ الأشـياء أنْ أعرف

البشر. أن أعرف من هم جيراني وأُدرك تفاصيل حياتهم.. ثم أصبحَتِ القضية بالنسبة لي أكبر من ذلك؛ أن أتوغّل أعمق لأعرف كيف يعيشون داخل غرفهم المغلقة! إرضاء للمهدي أوّلا، ثم في سبيل إنهاء العمل، بعد أن تحمّستُ له وعوّضْتُ به قلق الوجود الذي ألمّ بي وملك عليّ زمام أمري. لكن ما انتبهتُ إليه وأنا أتتبّعُ الدوائر من جديد، مسرورا بقوة نظريتي الوهميّة، هو أن المراقبة أضحتْ في الزقاق والحي فلسفة؛ بل في المدينة والبلد بأكمله؛ يعتمد الجيران على مراقبتك ليأمنوا. وتتبّعتُ الأمر أعمقَ ففهمتُ أن الدولة كذلك تعتمد على مراقبة خصومها لتحكم، والناس يأمنون الشرور طالما عرفوا محيطهم، ويُحبطهم القلق الذي تُفَرّخُه ندرة المعلومات ولا ينامون مطمئنين إلا إذا عرَفوا. بل إنّ السائد في البلاد من أمثلة لا يخرج عن تِعداد فضائل الحيطة والحذر، وتعميق وصف حالات التجسّس الذي يكون الناس ضحيتها. وغالبا ما يكون موضوع الحوار في المقاهي وعلى نواصي الطرق سبُّ النمّامين، فترى الجميع يسير لاعنا جموع البشر التي لا همّ لهم سوى تسقّط الأخبار والنوايا وتتناسل الأمثال والأغاني الداعية إلى الحيطة والتكتّم ودرء أخطار الناس بتمويه الصورة..

أكون في الشقة عادة. نائما مسترخيا أو أعدّ شيئا آكله، الحبّ يطرق بابي على الدوام، ومن الأفضل أن أكون مهيّئا له بالراحة والسكينة وألا يوجد ما يُعكّر صفوَ الأيام. من الأفضل؛ مثلا، ألا أجد جثة في ركن من أركان المنزل تُقلق راحتي: جثة في المطبخ أو في الصالة أو غرفة النوم. قد أستيقظ صباحا فأجدها مركونة ولا أعرف ما يحصل.. تُفاجئني رائحتها قبل أن أكتشفها، ُ عندها أبحث عن حلّ لمداراتها، وهو ما لن يستقيم في هذا الحيّ الذي يكفيه درهم بُخور..ورغم أنني سلِمتُ من كلّ شيء إلا من خيالي، إلا أنّ التّهمة كانت جاهزة وفي

انتظـاري، فأحيانـا تفاجئنا الحياة دون مقدّمات فتقصمُ كلّ ترتيب، وهذا ما سيتّضح لي مع الأيام..

لا أحبّ في الصّباح روائح الأدخنة القادمة من معامل في ضواحي المدينة. المعامل ليسـت بعيدة، بل تكاد تعيش مع الناس، تلوّثُ البلاد وتُكسـبُ طعم الأكل مذاقا يشـبه الخراء. كثيرا ما يُغلق الناس نوافذهم هربـا مـن الرائحـة، وكثيـرا ما يُصابون بأمراض الصدر وتموت شـهيتهم لـلأكل والجنـس دون أن يعرفـوا لذلـك سـببا. وحين تأتـي الرائحة إلى نافذتي، تَحْملني معها محاطة بالحلم والذكرى فتهيّج مناطق خاصة في ذاكرتي العميقة فلا أعلم إن كانت ذاكرتي أم ذاكرة شخص كان يمتلك هذا الجسـد من قبل أن أولد..يحدثُ أن تجيء الرائحة إلى حلقي في أصبـاح مُضبّبَـة، خصوصـا عندمـا لا تنام سـهام جنبي فأحـسّ مرارة في الحلق...

حين كانت حبيبتي لا تزال حاضرة، كنتُ مُغرما بالصباح في هذا الحـي رغـم الرائحـة. فـي هذا المنـزل بالذات. علـى الخصوص، حين أسـتيقظُ وبجانبـي سـهام ويكـون جسـدها قد اتخذ علـى الفراش وضع جنيـن فـي رحـم الأم، أظلّ أنظر إليها لوقت ولا أوقظها بل أسـتلذ هذا الحضور الذي يجعلها لي ويجعل راحتها في النوم على سريري. أراقب تنفّسـها المنتظـم والنظرة البريئة علـى وجهها. وحين أنام وحدي، أكون هادئا ومسـتمتعا في الصباح بصمتي، مسـتمتعا برهافة غيابها وإمكانات حضورهـا فـي أي حيـن لتوقظنـي وأحيانـا أكـون بين الاحتماليـنْ: كأنْ أستيقظ في الصباح ممتلئا بالراحة ولا أفتحُ عيني وأدّعي أنّها موجودة. بـل إنّنـي لا أُعطـي لذهنـي فرصـةً للجـزم بحضورهـا أو غيابهـا فأرتاح للبرزخ. يمتلئ سَـمعي بصخب الشـارع البعيد العابر من شـقوق النافذة. يمرّ إلى داخل البيت ضجيج خفيف ومساومات وشجارات صغيرة تعدُ

بنهار عامر.لا أتعجّلُ الخروج لأرى الناس بل أسمعهم من بعيد كأنّما لا يعنيني أمرهم وأظلّ أشكّل وجوها وملامح تُناسبُ أصواتهم ونبراتهم. أحيانا أربط بين الأصوات التي أسمع وبين صوّر الذين يشكّلون فضاء الزقاق فتكونُ لُعبة..

في مساري، قادما من البحر أو من مقر الجريدة، عبر هذه الأزقة أتنسّم الأزقة والرطوبة وأحاذر الكرات التي يلعبها الأطفال..ألمح المدينة القديمة فأتذكّر سلا وذكرياتي فيها، أدخل منزلي فألمح الكراسي وأواني المطبخ والفوضى فأحنُّ إلى سهام وأفكّر في الاتصال بها من جديد.

في حضورها، نظّمتني فأصبحتُ أحبّ الكسل ولا أستيقظ باكرا وأُمعِنُ في مديح الكسل. أظلّ طوال اليوم نائما متحجّجا للمهدي بأنني متعب أو أعدّ مادة من مواد الجريدة. ثم وجدتُ مبرّرا أقوى حين حكيتُ له عن منزل صغير قريب من مَسكني، سمعْتُ عنه من وَشْوشات المارة، المُتأَفّفة المُدِينة، عن لياليه وأمسياته الماجنة وعن الفتيات اللواتي تمرقن عبر الباب يتبعهن رجالٌ يبحثون عن اللذة فتحمّس للموضوع. منحني وقتا إضافيا أترصّد فيه الحالة وأعرف ما يجري..قال لي إنّها مهمة ستزيد من دخلي إذا وُفّقتُ في دراسة حالات جديدة..

أحيانا، كانت تستيقظ سهام قبلي وتفتح النافذة فأغضب وأزمجر بصوت مُعتاد فتُغلقها دون أن تُظهر استياءها وتتكلّم بكلام مبهم.تتهمني بالكسل دون أن تُبين.تطرح مُقترحات لا تُفصح عنها. وحين أستيقظ أعتذر لها وأقول إنّ الرائحة تُفسد اليوم. أمشي خفيفا إلى قلق اليوم وحركته، دون تعجّل أحيانا، وبلهفة المغامر كثيرا. يحرّكني هوجُ الناس وكلامهم من تحت النافذة..أفكّر كيف أضيفُ إلى ما أسوّد من أوراق كل هذه الحركة، وكيف أبني نظريتي لتكون متماسكة.أَصْبَحَ إبهار القراء هدفا واضحا يحرّكني. أصبحتُ أرى في كلّ حركة أو كلام طريقة خاصة

فـي ممارسـة اللـذة والاحتفـاء بالحياة والخوف من المسـتقبل. كنتُ قد أضفتُ إلى خُلاصات البحث أن الناس يحاولون الاستمتاع قدر الإمكان بـكل وسـيلة لتغطيـة ما ينقصهم في البيـوت: في المقهى، وهم يدخّنون أو يشربون، حتى وهم يمارسون الرياضة أو يتناولون الطعام. رأيتُ في ذلـك انغماسـا فـي اللـذة التي لا يتغذّون منها كمـا ينبغي في أوضاعهم العاديـة، تلـك اللـذة التي قدّرتُ أنّها محاولـة للهروب من ضيق الوقت وقلّة الحيلة.

في الصباح أحبّ حضور الحبيبة. أحبّ نَفَسها حين يغمرني، ومن خلالها أرى نفَسَ الحياة التي عذّبت الكائن وصيّرته سِـقْطَ مَتاع. أحبّ أن أشـمّ رائحة عطرها ورائحة الليل العنيد في فراشـنا، فيكون رحِما لا أقوى على مغادرته لأنّ الشارع أحمق وصلف لا يرحم وقد علّمني في البيضاء أن أعرف حدودي..

حين أخرج إلى الشارع. أنزلقُ عبر دَرج السلّم الضيّق إلى الزقاق. تسقط قدماي على أرض الزقاق المصنوع من الحجر، فتدهم أنفي رائحة البحر كأني أسكن محارة. خلال الشتاء يتقوّى الفراغ وينمو كشجرة حتّى لنكاد نلمسـه، وخلال الصيف، يقف بثياب البحر شُـبّان يشْوُون السمك ويبيعونه للمارة من الغرباء في الدروب، تقف فتيات ونسـاء مُمسـكات بمفاتيـح معلّقـة بخيـوط مُلوّنة داعيّاتٍ الراغبين في الكراء إلى اسـتغلال الفرص. يتوزّع الزقاق الحجري الضيّق باعة الفواكه والسماسـرة وشـبّان السـمك المقلـي وأطفال كـرة القدم.في التواءاته كانـت قدماي تمرحان دون تشكٍّ، فقد ألفتُ المدينة وأصبحتْ امتدادا لجسدي..

بمجـرد مـا تُلقـي بي قدمي خارج المنـزل، أوّل وجه أراه كالعادة، قبل أن أرى بائع اللبن المقابل للبيت والبقال الذي يراقب الزقاق وبائع المكانس ومرمّم الأثاث، وجه الحاج صاحب المنزل. ألمحُه على كرسيّه

مُمْسكا مفاتيحه الكثيرة، يُحرّكها في كل اتجاه ويراقب المارة باطمئنان. يلبس جلبابا أنيقا كعادته مثل فقيه الجمعة. أمام باب الدار على كرسيّ صغير يجلس بهدوء. لا يفصِلُ بينه وبين المارة سوى خطوات خفيفة تتيح له ملامسة ما يشاء دون حرج. يجعلك حضوره تحسّ بأنّه يمتلك نصف الزقاق أو أغلبه. أحيانا أقفُ لأحيّيه فيحدّثني بأدب وعلى رأسه طاقية صفراء تُناسبُ الجلباب الأبيض المكوي بعناية عن كل أمور الدنيا، يُخاطبني بالأستاذ الصُّوحَافِي ويمنحني حِكَماً مجّانية قبل أن أمضي إلى الجريدة. يختتم حديثه بنكتة أو حكاية مُضحكة وهو يغمغم بصوته الضعيف الذي يعبر الحلق بصعوبة، ثم يَستعرض معارفه أمامي فيُحادث البقّال والخضار والاسكافي ويعلّقُ على كلام زبائن المحلات وشكاواهم داعيا للصبر وشُكر الله على نعمة الصحّة. عندما يدقّ جرس المدرسة القريبة، ويمتلئ الزقاق بالتلاميذ، يدعو الحاج بنات صغيرات إلى الاحتشام حين يبالغن في الضحك ويداعب بعضهن في الزقاق مستفيدا من هبة الشيخوخة ورحابتها..يبدو مرتاحا للعلاقة مع الناس ولفضاء يعرفه جيدا، يسلّم على هذا أو ذاك، يحيّي عجوزا أو شيخا محرّكا يده التي لا تُفارقها السّبحة.. حين يتعبُ من الجلوس أو الوقوف يتحرك للحظات في فضاء محسوب مديرا يديه وراء ظهره. يتقدّم ليزيح أزبالا سقطت من عربة النظافة، أو حجارة قد تعترض سبيل المارة ويضعها جانبا ثم يعود وسُبحته تتحرّك وراءه مثل جرس صامت. يبدو الحاج كحارس الزقاق، لا يفوته شيء، بل يُحسّ، كما قدّرتُ، بالإهانة إذا فاته شيء مما يروج.

لا يرغب الحاج في تغيير أمر أو التأثير على مسار. يريد أن يعرفَ فقط. يريد معرفة ما يحدث للناس لأنّ تلك هي المهمة التي ظلّت تسكنه بعد سنين من الحياة الحافلة. وبذلك قدّرتُ أنّنا نشترك في اللعبة. حتى

بالنسبة لي، كان حريصا على السؤال، وتقصّي كلّ أخباري ومعرفة دقائق الأمـور. ولقـد أرسـل في أثري مرارا أطفـالا ورجالا ليعرفوا مقر عملي وكيف أُقضّي وقتي، وكنتُ أحسّ وأنا أدفعُ خطوي باتجاه الجريدة، أن عيونا شرهة تجري في أثري يحرّكها نهم وافر للمعرفة.. اعتقدتُ بأنني أتحايلُ عليه وأتخلّصُ من مراقبته حين تزورني سهام، إلا أن وهمي كان كبيرا، فقد كانت لا تفوته أي شاردة.

على عكس جميع الناس، استطاع الحاج أن يخفيّ عني انشغالاته، كانـت لديـه حكايـات ينوء بها صـدره، ويتحيّنُ الفرصـة ليحكي ويبوح فيزيح الثقل عن كاهله، لكن ما كان ينقصه هو الثقة؛ أن يثق بي ليمنحني مـا يحملـه صدره.ولأنـي كنـتُ أحتاج تلك الحكايات، لـم أكن صبّارا، لذلك طالما بدأ الحديث ثم توقّف بعد أن يصيبه الشك بسبب إلحاحي فأُضيّع الفرصة. كانت تصلني وشوشات من الحيّ عن نساء يعبُرنَ إلى منزله في كل عشيّ بمشاكل مختلفة. وكان عمله يبدأ بعد العصر فتَنْتشر روائـح البخـور بمختلـف الأنواع حتى تضيق بهـا الدار ويصلني منها ما كان يجعل سهام تَخْتَنق وتُحوقل وتدعوني إلى تغيير المكان..

يمتلـك الحـاج منـازل كثيرة، وغرفاً مُتفرّقـة في كلّ زقاق من أزقة الحي القديم. يفتحها لمكترين تختلف أوضاعهم، بِمُقابِل يتغيّر حسـب الغرف والموقع. وفي المنزل الصغير، أسـفل الدار، اقتطع غرفة وجعل لهـا بابـا خاصـا ينفـذ منـه حيث يختلي بنفسـه وأغراضه فتدخل النسـاء مسـتترات كلّ مسـاء لقـراءة الطالـع وكتابـة الأحجبة واصطيـاد الأزواج وتكثر حول غرفته حكايات اللذة الممسوسـة بالخيال. للمنزل باب ثان في الجهة المقابلة التي تنفتح على زقاق آخر، فقد اقتطع شـقة أخرى، يدلفُ إليها الداخل من زقاق فرعي ضيّق بالكاد يمرّ منه شخص واحد. وفـي هـذا المنـزل الـذي له روائـح خاصّة، تجمّع كنـز الحكايات الذي

سيجعل عملي أكثر غنى؛ نساء كثيرات يأتمرن بأوامر امرأة اسمها عيْشة. في ذلك الزقاق، يسقط الضباب شتاء فتتغطى الملامح وتبدو الجدران تحت الضوء الشاحب لمصابيح قديمة مثل مخطوطات كُتبتْ بخط قديم.تنتشر بمدخل المنزل على أعواد القصب ملابس داخلية يحرّكها البرد فتكون وسيلة لمداراة ما يحدث في الداخل. وفي داخل المنزل، عرفتْ عيْشة كيف تصنع تاريخها الفريد..

اكتَرَتِ الدار منذ زمن، ثم أحضرتْ فتيات من أماكن مختلفة. بعضهن قديمات قدم عيْشة نفسها، وأخريات تتجدّد بهن الدار في كل حين..وحين يعبر رجل ما ذلك الزقاق الضيّق فإن العيون المراقبة لا شك ترى فيه زبونا جديدا.لذلك يتحرّك بعض المُجْبَرين على العبور دونما حاجة إلى زيارة منزلها بتثاقل مُفيدين عبر تلك الحركة المُمْتعضة بأنهم أبرياء. زبائنها المعتادون عمال يجيئون بعد نهار طويل من العمل في الميناء، أو ورشات البناء، أو السّوق. يُمارسون اللذة على عجل وينصرفون..أما البنات، فمنهن من تكتفي بانتظار زبون، بينما أخريات يخرجن بحثا عن ضحية يَقُدْنَهُ إلى الدار عبر التواء الأزقة لمراوغة الفضوليين.أحيانا، يُغادرن المكان في اتجاه ملاه وأماكن عديدة يصطدن فيها زبائن أكثر غنى ويَعُدنَ بحكايات مُغرية بعد سهرة مُختلفة..

في عبوري نحو الزقاق، بفضول دافق، وقبل أن أسمع موسيقى الشرق التي تنبعث إما من ماكينات الموسيقى، أو من قنوات الهزّ التي نشرَتْها الصّحون، أشمّ رائحة الشيشة قويّة طاغية. أحيانا تطغى رائحة "الجاوي" البلدي التي تُحاول أن تكْسِرَ الروائح فلا أعرفُ مصدرها هل هو بيتُ الحاج أم بيتُ عيشة. أجول في الدروب واقفا على منبع الحكايات فأتذكّر صاحبتي البيضاوية "الشّعِيبيّة" التي كانت تهوى "الشّيشة".تقفز صورتها إلى ذهني وهي تمجّ النارجيلة وتشرب وترقص

بدمَالجها المُتَحركة. تلك الرائحة تنفذ إلى الذهن قوية فوّاحة مسيطرة فتُعيد الدار البيضاء إلى ذهني..

في إطار عملي، اهتممتُ بعيْشة وبناتها، لأنّهن مصدر غزير للصوّر. عرفتُ أنني إذا صبرتُ سوف أحظى منهن بالكثير من الحكايات المثيرة عن عالم مخفيّ نصرُّ على إنكاره دون جدوى. وفي الجريدة، أعكفُ على كتابة المقالات وتصفيف حكايات الأسبوع واعدا نفسي بما سيأتي من صوّر.

بعد تجوالي في الأزقة وقفتُ على ظواهر وحكايات راقت للمهدي، فكان يُثني عليّ خلال اجتماعات العمل، كان فرحا وهو يتلقّف تحليلاتي وملاحظاتي وسعيدا بما أُنْتِجُ. أقف داخل مكتبه وأقول إنّ عمود هذا الأسبوع سيكون حول ظواهر جديدة تدخل حياة المغاربة دون أن تُقلق أحدا..أحكي له مثلا عن "الشّيشَة" التي أصبحتْ تقليدا عاديا في كلّ المطاعم والمقاهي، عن "عَبَاية" الشرق التي تتباهى بها البنات وتختلف عن جلابيب المغربيات. أحدّثه عن طريقة وضع الحجاب لدى بنات البلد، حيث أصبحْن شبيهات ببنات الشرق في وضع الكُحل والماكياج والحجاب، أحدّثه عن أغاني الشرق التي تملأ البيوت و"كْلِيبّاتِ" الشرق وكيف مسحت كلّ اهتمام بأغاني البلاد فينظر بانتباه ويدوّن..في ما بعد، حين حكيتُ ما حصل لسهام بمرارة، أغاظني أنّها لم تأخذ الأمر مأخذ الجدّ. كثيرا ما كانت تقف وسط الشارع مثل مجنونة فتقلّدني وتذكّرني بحماستي لما أكتب. كانت ترفع يديها وتخاطبني والمسافة قصيرة بيننا مثل زعيمة:

- تركنا الجلاّبة ولبسنا العِباية. تركنا لطيفة رأفت والإخوان ميكري وسمعنا تامر حسني. وتضحك..

لكنّ ما لم أقله للمهدي ولا لسهام، هو أنني كُنتُ أنام في

الظلمة مُغمض العينين، خلال ليالي المطر الباردة، في مطبخي على الكرسي الطويل فلا تُفارقني صوّر البنات وهنّ يرتدين تلك الملابس ويضعنَ الكُحلَ ويحاولن الحديث لهجات الشّرق في محطات عديدة رأيتُها وأنا أبحث أسباب الحياة، فكنتُ أرى مواهبهن في الحديث تتفتّقُ لاستمالة الجالس خلف زجاج الكمبيوتر في قارة بعيدة. كُنتُ أستعيد ملامحهن في مقاهي الأنترنت المنتشرة بالمدينة وهنّ يضعن سماعات الأذن ويتحدثن بطلاقة بلهجات متعدّدة مع شباب وكهول وشيوخ من جنسيات متنوعة، باحثات عن خيط أمل لتجربة زواج أو سفر إلى إحدى دول النفط. وكان الذي يجعل استغرابي يكبر ويَتَغَوّل هو أنّ أمهات كثيرات ترافقهن بناتهن للمقاهي لذات الغرض، فكنتُ أرى البنت بالعباية الشرقية والأم جنبها بجلباب مغربي قديم فأتعجّب لهذا التواطؤ المريب وأكتُبُ عن انتقال الثياب الذي يُرافقه انتقال القيّم..

كان لابد أيضا أن أنتبه إلى ما يهم مقالاتي وأعمدتي. فلاحظْتُ الكثير من الأمور التي ينوء الشباب تحت وطأتِها. لاحظتُ بعد ترصّد ومتابعة أنّ الكثير من الشباب يعانون المرارة، يسكنون غرفا صغيرة ويظلّون تحت وطأة الظروف حتى سن متأخرة. يُطلّون على العالم من ثقب صغير ولا يَنعمون أبدا بحياة حميمة سهلة وعادية فتكون عيْشة وبناتها ملاذا لهم. إنّهم مثل من يسكن فُندقا رخيصا طوال حياته ولا ينعم أبدا بدفء الدار. وكان صديقاي يجلسان على المكتب وأنا أحكي عن العَبَاية والغرف الصغيرة وأزمة الحبّ لدى الشباب الفقير فيستوي عثمان وتبرق عيناه مثل ذئب تحت ضوء القمر. ينظر إليّ عميقا كما لو كان قد عاش التجربة، يبدو حزينا وهو يُكمل كلامي وينظر باتجاه الرئيس. يقول إنني على حقّ، فهؤلاء الشباب لن ينعموا بالكثير من التجارب: بلذة الخروج عراة إلى الحمّام، بلذة القبلة جالسين قبل

الاقتحام، لأنهم غالبا يسكنون غرفا مشتركة ويضطرون لإطفاء المصابيح وكبح جماح صراختهم وهم يتوغّلون في بحر الشهوة، مادام أصدقاؤهم وجيرانهم يسكنون الغرف الأخرى، ومادام الحمام مشتركا بين جميع المكترين. وكنتُ خلال ذلك، أغترفُ بالفعل من زوادة الحياة التي عشتُها طالبا، ثم مقهورا بين الدروب حين سكنتُ بيوتا رطبة رفقة جيوش من الباعة المتجوّلين والبنائين وحين أمضيتُ وقتا طويلا في قبو قرب البحر في انتظار السفر إلى أوروبا. تذكّرتُ كذلك بيوت الطلبة المشتركة، واختلاف عادات المناطق وطُغيان الخجل القروي الذي لم يكن يتيح لنا سوى العبور المستعجل الذي لا يُشفي.. تذكرت حياة الطلبة وقت العبور الفريد. ننامُ مع نساء مُستعملات، نُطفئ المصابيح ونحلم بالطالبات اللواتي يَفْتَرِعُهُنّ رجال كبار في السن يملكون السيارات والأموال. غالبا ما يجيء الصيّادون كلّ سبت أمام باب الحي الجامعي لاصطياد زميلات لنا. عرفتُ خلال سنوات الجامعة أن القليل من الطلبة يَحْظَوْنَ بجنس هادئ وعلاقة متوازنة لأنّ الطالبة تحتاج المال لتصرف والطالب لا يمنحها غير الكلام الذي لا يُجدي..وفي ذلك المنزل الذي لا تنتهي تفاصيله، عرفتُ أن الكثير من زبائنه يُغامرون بحياتهم وهم ينعمون باحتمالات المرض الذي يُفني..

حين عرفتُ بأمر عيشَة، تذكّرتُ حديثي مع عثمان. كان يُصوّر لي ما يحدث بالفعل؛ شباب يجيئون من الدواوير المجاورة للدراسة أو العمل، يسكنون الحي الشعبي ويمارسون حياتهم وفق ما تمنحه تلك المرأة، يظلّون على تلك الحالة ولا يتزوجون ولا تمنحهم الحياة علاقات متوازنة، بل يتّجهون إلى مهن صغيرة لا تُغني، فيكبرون ويشيخون.منهم من يعود إلى القرية خائبا ومنهم من يهاجر بطريقة غير شرعية أو يظل متأرجحا بين المدن آمِلا أن تُسعفه الحياة يوما ويغادر

إلى الفردوس..أضفتُ كلامه إلى ما سبق أن خامَر قلبي من أفكار حول الخضرة والعاطفة، وبدا أن البحث يتوغّل ويتجاوزني..

في باب من أبواب البحث، كتبتُ عن المنزل. وفي الجريدة، كتبتُ عن حكاياته واتخذت لها مدينة أخرى، ولكنني عندما خلوت لنفسي، على كرسيّ الأثير الوثير، كتبتُ عن المرض الذي يتربّصُ بزوار المنزل لكنهم مع ذلك لا يعْبَؤون. ومع إدراك وضع مُستشفيات في البلد، قادني الأمر إلى التفكير في الخَطر وتقديره، فكتبتُ بأنْ ليس هناك إحساس بالخطر لدى المغاربة الذين يدخلون بيوت اللذة أبدا. وتوغّلتُ متتبعا نظرية الدوائر الفريدة فرأيت بأنّ الإحساس بالخطر عندنا يغيب في مناح كثيرة نأخذها بمغامرة.في السّياقة وصرف الأموال مثلا. وحاولت التعمّق في تفسير الحالة، فانتبهتُ إلى سلوك الناس الذين يغامرون في كل اتجاه ولا ينتبهون للمخاطر، تذكّرتُ الذين ماتوا في الطريق وهم يسوقون السيارات في اتجاه معاكس أو يتنافسون للوصول إلى مكان بفعل الزهو أو الخمر أو سخونة الدّم. تذكّرتُ الليلة التي أيقظتني فيها الجلبة، وعندما أطللتُ رأيتُ حربا حقيقية بين شابين مخمورين عند تقاطع زقاقين. في الصباح، عرفتُ أنّ أحدهما قَتل الثاني وكان الخلاف حول سيجارة..وتذكّرت حين قالت لي سهام وهي تجرني من ذراعي إن علينا تلافي الشباب الواقفين في آخر الزقاق، وكم كانت حكيمة لأنني رأيت في ما بعد أكياسهم البلاستيكية التي يستعملونها للتخدير وهي ترتفع وتنخفض بفعل تنفسهم بداخلها. رأيتُ الكثير منهم في ما بعد يقفون في آخر الزقاق لتدخين الحشيش وأنواع صلبة أخرى من المخدرات أصبحت شائعة ولا تثير الانتباه، وكانت أصوات شجاراتهم تصلني أحيانا وأنا في السرير أو المطبخ.كانت الحياة تتفتّحُ أمامي كزهرة وأنا أسمع وأرى وأتعلّم وأسجّل الخلاصات قبل أن أكتب عنها في

العمـود وأعـدّ مـا أراه مناسـبا لبحثي للمجلة الموعـودة، وكان المهدي يجمـع جذاذاتـي ويحتفـظ بها ليراجعها في منزله ثم لا تلبث أن تختفي وحين أسأله عنها يُرواغ ويصمت..

كتبـتُ عـن ذلـك كلّـه ملفات للجريدة أثارت الضجّـة وبدأتْ تثير السـخط لـدى بعـض النـاس الذين يفضّلون إخفاء كلّ شـيء وادعاء أنّ ذلـك غيـر موجـود ليرتاحـوا. لكن ما أحـرق أعصابي هـو الخفايا التي بـدأتْ تصلنـي مـن مصادر عديـدة، بعد أن اطمأنّ القـراء إلى صفحتي. فكنتُ أتلقّى حكايات حول اغتصاب الأطفال، وحول دعارة القاصرات وانتهاك الحقوق وزنا المحارم واستغلال الخادمات الصغيرات القادمات من القرى البعيدة ثم التستّر على قضاياهن بعد أن يتعرّضنَ للكيّ بالنار، وهو ما لم يستطع المهدي التصريح بنشره، وكان يكتفي بالاطلاع على ما يصلني ويحتفظ به.كنتُ أغضب منه كثيرا ويرتفع صوتانا ونحن نناقش حتى تكاد الأمور تخرج عن السـيطرة.وقتَها بدأ الشـرخ ينمو بيننا، ذلك أنني كنتُ مندفعا دون توقّف بعد أن اكتشـفتُ هول المسـار، بينما كان المهدي يقود ببوصلة خاصة. وسيتعمّق الشرخ بيننا حتى يستحيل رَأْبُهُ، وقتها سيحدث بيننا ما سيحدث من أمور..

في الجهة المقابلة للدار، حمّام وفرن وبائع خضر. وكثيرا ما يجول في الدرب باعة من كلّ لون. أحيانا يوقظني بائع مواد التنظيف أو بائع السـردين أو باعـة الملابـس القديمة والأثاث المسـتعمل الذين يَجولون للحصـول علـى الخبز اليابس وهم يكسـرون صمـت الصباح بصراخهم المبهم وكلماتهم التي لا تظهر حروفها، وقتها أكره الحيّ الشعبي وناسه وأتمنى الموت على أن توقظني تلك الحَشرجات المزعجة..

كثيرا ما يقول أحدهم أمامي جملة ويمضى كالهارب، تاركا أسئلتي معلّقة.كثيرا ما تكون رسـالة لا أعرفُ هل تجيء من هذا العالم أم من

العالم السّفلي الذي لم أختبر بعد خباياه. أحيانا يفاجئني بعض الناس بنصف معلومة، ويتلذّذون وهم يرون ملامحي تتقلّص وروحي تتحرّق لإتمامها..لكنني بالصبر والتأني أصبحتُ خبيرا في تقصّي المعلومة، لأنّ لديّ الكثير ممن يَمْتهنون مهنا بسيطة ويكفي أن أتعرّف على مواعيدهم لأستزيد من المعلومات التي أحصُلُ عليها مراوغا هدفي..

حاولتُ تقصّي الأخبار من الحاج، لكن عبر الالتفاف على الفكرة والمغزى، فلم يبحْ بأيّ شيء. كانت الكثير من العتْمات قد أضيئت أمامي في ذلك الحي والحاج يحاول إخفاءها. ولكن عيْشة، التي عرفتْ بأنّي صحفي، أعانتني كثيرا بعد أن سعيتُ إلى معرفتها لأستفيد منها خصوصا وأنّها خزّان معلومات ومطّلعة بانتباه على حياة الناس. وضّحتْ لي أمورا كنتُ أجهلها. وحين سألتُها إذا كان مسموحا لي أن أنشر كلامها أجابتني بلامبالاة من قَطَعَ الوادي:

– انشر ما تريد يا أستاذ. حْنا اللّي عْطَا الله عْطاهْ. مَا عَنْدْنا مَا نخَسْرو.

كنتُ أجلسُ ليلا على طاولتي الصغيرة، وأكتُبُ دون هوادة ما علق بذهني من كلام عيشة. طوال اللّيل، أسترجع الحكايات التي تُمدّني بها مثل خروف يجتر طعامه لكي يفرح المهدي ويهنأ.. قالت لي عَيْشَة الكثير من الكلام عن تجربتها القديمة، وحكتْ عن رجال يجيئون هربا من زوجاتهم وأعشاشهم. قالت إنّ الكثير منهم يفضّل امرأة مُستعملة على زوجته المصون فما السبب؟ قالت إنّ المُجتمع منافق. إنّ الناس يزورونها في السرّ ويلْعنونها في العلن. قالتْ إنّ الناس لا يُعارضون أن تكون لدى عازب مثلك علاقات، على أن يظلّ ذلك طيّ الكتمان. عليك أن تُمارس حياتك وتدّعي أنك لم تفعل وهم عليهم أن يدعوا أنهم لم يروك. قضيّ الأمر..

في ما بعد، وأنا أحلّل هذه المنطقة، انتبهتُ إلى الكثير من المظاهر التي تسود في المجتمع. الكثير من الأمور التي نبرَعُ في النفاق بخصوصها فنخفي وندّعي أننا لا نرى. كتبتُ أننا نرفضُ البغاء، رغم أنه موجود، ولا نستطيع الاعتراف به، وأعطيتُ المثال بعيْشة، التي يعرفها كلّ الناس ويحترمون مهنتها، يسلّمون عليها في كل مكان ويُفسحون لها الطريق بل ويزورونها، لكنهم يسبّونها حين يجتمعون ويدّعي كلّ واحد منهم الفضيلة. كتبتُ في هامش صغير، بأنّنا مجتمع يرفض الاعتراف بأمور كثيرة تفعل فيه. ثم أضفتُ، بأننا مجتمع النفاق والقبول المجاني لكلّ شيء، مجتمع ال"وَاخّا" وال"دّاكّور". بل عنْونتُ فصلا كاملا هكذا: "مُجتمع الوَاخّا". وفي هذا الفصل، من بحثي الذي سعدتُ كثيرا بأنه يتطوّر، قلتُ إننا قد أَلِفْنا قول نعم دون أن نعني ذلك..في كل مكان، نقول "وَاخّا" دون أن نعنيها، وبذلك نُنَافق، وفي كل مكان، ندّعي أننا لم نر أمورا، لكنّها تحدث بالفعل..بارعون في الموافقة على الكثير من الأمور، لكننا سنجد ألف عذر لكي نُنَفّذ عكسَ ما نقول.من منّا يثق في الباعة ولا يحتاط؟ من منّا لم يكن يوما موضوع خيانة أو ضحيّة حيلة؟ من منا يثق أو يحضر في المواعيد المضبوطة؟ بل إنّ الصّدق والدّقة أصبحا مثارا للشكّ والتنذّر فترى من يسألكَ ساخرا حين تضربُ له موعدا:

- دْيَالْنا ولاّ دْيَالْ الآخرين؟

تذكّرتُ المهدي حين اقتربتْ مرة منه امرأة عجوز يبدو أنّها تعرفه، كنّا قريبين من الجريدة..اتكأ على الزجاج الأسود للبناية الأنيقة ليُشعل سيجارة، اقتربتْ منه العجوز وفهمتُ من كلامها أنها تطلب عملا لابنتها ولو كمنظّفة، قال لها "وَاخّا". وحين غادرتْ فرحة، أعطاني درسا مهما في النفاق المطلوب، قبل أن يصعد إلى الطابق الثالث حيث مكتبه، قال لي:

- ماتْخَسّر خَاطَرْ، مَاتَقْضِي غَرَضْ.

في طريقي إلى الجريدة، أقطع طريقا متعرجا. ثم بعد مسافة، تبدو الجريدة بطوابقها الثلاثة مثل مزهرية داخل مزبلة. بنى المهدي جريدته وسط شارع عامر مُفعم بالحركة، لكن حركة الشارع واختلاجاته تُفصح عن وجه المدينة وحياة أبنائها الذين يعيشون اليومي بِرِضًى يكسرون من خلالـه الحـزن العميم.زجـاج الجريدة الكبير الأسـود يُغطي المكان فلا يَظهر ما بداخل البناية التي تبدو مثل قصر وسط خرائب الشارع وعربات الباعة المتجوّلين والمتسوّلين وأطفال الشارع. ومن داخل البناية الكبيرة كنا نرى بيُسر حركة الناس واختلاج الحياة ونظلّ نتفرج بعيدين عن الهمّ أو يُخيّل إلينا..

يهتمّ العديد من الزملاء بصفحات السياسـة وقضايا المجتمع التي غالبا ما تتوزّع بين القتل والسرقة، وأكتفي بصفحات المنوعات والأسرة والثقافة.أمـا عثمـان، زميلـي، فقـد كانت له وضعية خاصة، فهو مسـاعد المدير، ويتابع عمل الآخرين، وعملي على الخصوص.

يشتغل بالجريدة طاقم من الصحفيين والمتدربين لم أهتم له كثيرا. أعـدّ لـي المهدي مكتبا تُوضع عليه رسـائل القـراء. بالإضافة إلى ذلك، تُوضع أمامي بانتظام بعض الرسـائل الأخرى المرسـلة لصفحة الإبداع، والتـي تختلـط حيـن أتأخّـر فلا أميّـز بينها وبين رسـائل القـراء العادية، وكنت كثيرا ما أبعث قصصا حقيقية للنشر باعتبارها إبداعات من وحي الخيـال، أو أحـوّر نصوصـا يرى أصحابها على أنّها قصص، مُقتنعا بأنّها مجرّد بوح وشـكوى فأردّ على أصحابها وأنصحهم، وحين يتصل أحد ليحْتَـج، أتحجّـج بضغـط العمل..فـي المكتـب الضيّـق المقابل، تجلس فتاتـان غضّتـان صغيرتان في السّـن. مهمّتهمـا رَقنُ المقالات. بمجرد ما أكتبُ شيئا أضعه أمامهما فتُقبلان على العمل بهمة وتقدير، كان المهدي

قد أوصى بي خيرا وانصرف...

كانت سميرة تحبّ هذا العمل بعد حصولها على دبلوم في الرّقن، أما حنان، فضجرة متمردة قلقة يصعب التكهّن بما يحويه داخلها الذي يبدو مثل بئر بلا قرار..

يغطي الجريدة من الخارج زجاج نظيف أسود يُخفي معالم الداخل، سرعان ما اتسخ بفعل الريح والأطفال الذين يعبرون أمامنا بعد المدرسة فتُغريهم نظافة المكان ويحاولونَ الكتابة على الزجاج الأسود ونحن نراهم من الداخل دون أن نتكلم.كان العالم يبدو لنا من الداخل كما لو كنا نتفرّج على تلفاز. كنا نرى الدنيا فعلا، على حقيقتها.كان بإمكاننا أن نرى الحمير والبغال التي تحمل البضائع وهي تسير في الطريق، ونرى روثها الأخضر يسقط على الطوار، نرى المركبات تسير دون أن يعبأ الشبّان بالإشارات الحمراء، خصوصا ركّاب الدراجات الكبيرة التي يُسمَعُ لها صوت يخرق الآذان وهي تتجاوز الإشارة. نرى خصومات الصغار وشتائم الكبار لأتفه سبب.وأنا المهووس ببحثي كنت أطلّ على الشارع وأرى نساء من كل لون، أتتبّعهن بنظري.أرى الحيوات تمضي أمامي وتعود راضية بما قُدِّرَ لها.أرى نساء جميلات وبشعات، مطلقات، عازبات، متزوجات.أرى رجالا يعاكسون النساء ويكادون يمسكون أياديهن في الشارع دون خوف، وسيارات تقف بمحاذاة الطوار لتطلب من نساء الصعود دون مناسبة، مثل حفلة صيد في غابة. أرى تلميذات تَخرجن من المدارس وتنزعن ثياب الدراسة وتخبّئنَها في المحافظ ثم تنْغَرسن في سيارات أنيقة باتجاه شقق وفيلات مُحترمة، والناس يراقبون دون أن يرفّ لهم جفن.سألتُ نفسي ما السبب الذي يجعل الرجال يميلون إلى تنويع علاقاتهم واستعمال المرأة بهذه الغزارة مثل أيّ شيء؟ هل يتعلّق الأمر بالفرص المتاحة؟ باحتقار النساء؟ بالسّهولة التي يُتيحها

الفقر وقلّة الحيلة؟

لم أخطّط أن يُصبح بحثي كبيرا هكذا، وغزيرا، وكنت قد وضعت جذاذات لمعرفة أحوال الناس وسميتها جذاذات الحب والعشق حين نما بحثي وتَغَوّلَ حتى أصبحتُ أخاف أن يقودني إلى أمور أخرى لا أريد الخوض فيها. ثم كان لابدّ أن أجِد اسما لما أفعل بعد كلّ هذه الصفحات، إذ لا يكفي أن أعلّق كلّ اهتمامي على مشجب الجريدة، فتذكّرت زيارة عثمان لبيتي، والإشراقة التي انتابَته وهوّ يصف مطبخي، فاستعرتُ كلامه وسميتُ بحثي "مطبخ الحب".

مع الوقت، اكتشفتُ أننا في الجريدة، لا نستطيع الكتابة إلا وفق ما تسمح به الظروف. لم أكن أعيش هذا الضغط من قبل وقد صوّر لي المهدي الأمر مثل نُزهة. قال إنّ البلد قد تغيّر فعلا، وغابت الخطوط الحمراء، ولم يعد من داع للحذر لأنّ العالم بأكمله تغيّر وضرب مثلا بالحقائق التي كَشفَتْها الجرائد والمجلات والكتب طوال العقد الأول من الألفية الجديدة، قال إنّ علينا استغلال المناخ والكتابة بقوة لكسب القراء. لكن الذين يشتغلون في صفحات السياسة والمجتمع، يعرفون الحقيقة أكثر مني لأنهم يقتربون من مناطق وعرة. فعلاوة على تحرشات السلطة، ودعوات التحقيق التي تصل الصحفيين بأسمائهم فيظلّون لساعات وأيام يُسألون عن مصادرهم ثم يعودون إلى العمل شاحبين مُتعبين، بينما يغيب المهدي عن الجريدة بشكل غامض خلال أوقات التحقيق دون أن يطاله شيء، كان أشخاص عاديون كَتَبْنا عنهم أو ارتكبوا مخالفات صغيرة كشفَتْها الجريدة يتّصلون خلال الليل بالصحفيين ويُشبعونهم سبّا، وأحيانا يهددونهم بالقتل أو الضرب. والمهدي لم يكن أبدا يهتم لذلك حين يسمع الحكاية، كان يرى أنّ الأمر لا يعدو كونه حشرجاتِ الموتى ودليلا على قوة الجريدة.أما أنا

فكنتُ بعيدا عن السياسة والسخونة، وكانت صفحاتي غير مؤثرة ولا تشكّل تهديدا إلى أن اصطدمتُ بالحقيقة..مع ذلك، لم يكن ما يحدثُ لطاقم الجريدة غريبا، فقد كان صورة لما تُعانيه الصّحف في عموم الوطن، وهو ما جرّ نقاشات طويلة حول نفاذ صبر الدّولة وانتهاء أيام الودّ بينها وبين الصّحافة..

عرفتُ أيضا بأنّ الأمر مُختلف حين بدأت المدينة تتغيّر والمشاريع النائمة لسنوات تتحرك، والطرقات تُرمّم بهمة، وقتها تساءلتُ عن الأمر فقال لي عُثمان بأنّها الانتخابات، فقريبا سيتغيّر المجلس..

كنا نائمين دون تفاصيل، وكنتُ أهتم لموضوعي، ثم استيقظتُ فوجدتُ العالم قد تحوّل إلى رموز وألوان وشعارات.

حين حصل الأمر أحسسنا بالرعب والرهبة لكلّ هذه الحركة التي طالت العالم. لكننا سرعان ما أدركنا أنه موسم مثل باقي المواسم. الانتخابات زمن إضافي يَعْتاش منه البسطاء والسماسرة.ينتظر الناس هذا الموسم بصبر لتحقيق أهداف صغيرة. يبدأ سكان الأحياء البعيدة في بناء طوابق جديدة لتزويج الأبناء وتحقيق رحابة المساكن، ويعوّل الفقراء على هِبات الكبار واعدين إياهم بالتصويت..

انضَافت إلى المدينة أورام جديدة ومساكن عشوائية دون رقيب ينحشِرُ الناس فيها دون ماء ولا كهرباء وتكون أزقّتها ملاذا للصوص وبائعي المخدرات، وتوقفت المصالح عن معاقبة المخالفين، وانتعشَت مهن أخرى مثل التوسّط لبيع الأصوات وتجميع الناخبين. وتحرّك رجال السّلطة، المقدم والشيخ والقائد، بحذر وتواطؤ، مُعِينين مُرشّحين ومُضيّقين على آخرين وكانت فتنة وفَنتازيا تأمّلتُها بصبر وحاولتُ فهمها ولكن عثمان نصحني بألاّ أكتبُ عن أيّ شيء لأنّني بعيد عن صفحة السياسة. وقد صُدمت تماما عندما منعني المهدي من الكتابة عن مركّب

ثقافي لم ينته بناءه وأثيرت أسئلة حول أموال مخصصة له.جاءني أعضاء جمعيات كثيرة وشربوا الشاي في مكتبي وأمدّوني بالوثائق اللازمة لكن المهـدي رفـض. كنـتُ أعتقد واهما أن أمري بعيد تماما عن الاحتكاك، فإذا بي جزء منه. قال لي المهدي جازما:

– فـي فتـرة الانتخابـات، يتم تأويل أي مقال تكتبه إما مع أو ضد مرشّح.ثم لماذا انتظر هؤلاء كل هذه الوقت؟ لماذا لم يزورونا من قبل؟

وبعـد نقـاش سـاخن بيننـا أظهَـرتُ خلاله تَمسّـكي بأمـر المُركّب وكشـف ألاعيب المسـؤول عن الأمر، طلب مني أن أحصلَ على إجازة من العمل ريثما تنتهي الأمور. قلتُ له إنني أحسّ بالحقارة لكوني أُخفي عن الناس أمرا يهمّهم. ذكّرتُه بالخطب التي كان يُلقي على مسمعي حول الحرية وضرورة كشـف المفسـدين حين كلّفني منذ البداية بالعمل معه. ظلّ يستمع لوقت طويل لكلامي دون تعليق ثم ابتسم، وقتها عرفتُ أنّ المهدي لا يختلف عن الرجل البيروقراطي الذي ابتسم في وجهي وسلّمَ علـيّ فـي الربـاط لكي يدفعني إلى خارج مكتبه. كانت ابتسـامة المهدي تدفعني إلى الخارج أكثر من يد المسـؤول الغبي هناك، وأحسسـتُ بأنّ الفـرق لـن يكـون كبيرا بين من أمسـكوا بزمام الأمـور وهم كهول وبين فئـة مـن الشـباب يتحدثـون عن التغيير لكن الماكنة تتّسـع وتطحنهم مع القدامـى ليصيـروا مثلهـم. خرجتُ غاضبا لا أعرف أين أتّجه، بعد أيام، فهمتُ أنّ المسـؤول عن تلك الفضيحة يدعم الجريدة بإعلانات شـركة الاسمنت التي يمتلك فاحتقرتُ المهدي وتعمّق الشرخ بيننا..

ابتعـدتُ خـلال فتـرة الانتخابـات عـن كلّ مـا يتصـل بالجريـدة، وعكفـتُ علـى ملاحظاتي دون تنسـيق مـع المهدي. بدا أنّ العمل الذي أقوم به قَدَرٌ أكثر منه اسـتجابة لأيّ نزعة من نزعات الشّـغل، وأحسسـتُ في لحظة أنني أتوازن بعملي وانشغالي بمواضيع الناس.قرّرتُ أن أهتمّ

للسياسة نكاية بما حصل لي. كان ردّ فعل أكثر منه حاجة. كان نوعا من الانتقام من رجل لم يترك لي هامش انتقاد مسؤول تافهاً وسألتُ نفسي ماذا لو انتقدتُ شخصا أعلى في الدولة، هل كان المهدي سيشنقني؟

بدأت أخرج إلى الشارع وأتأمّل سلوك الناس والمرشّحين الذين كانوا يسوقون سياراتهم ويرمون الأوراق مثل من يُعدّ لعرس أو حفلة. أتأمّل كيف تتحوّل فجأة كل الأحزاب وتمتلك مقرات جميلة أثناء الحملة، وحين تنتهي من حَصْدِ ما تريد لا تترك سوى أوراقٍ وأزبالٍ لا تُنظَّفُ منها المدينة سوى بعد وقت طويل. في النهاية، يتمّ تحويل المقرات من جديد وتتم إعادة صباغتها لتغدوّ مَحلاتٍ تباع فيها الأطعمة الجاهزة. حملتُ أوراقي من جديد وكان همّي كبيرا وأنا أتعمّقُ في الضيق الذي يُصيب البلد.رأيتُ فقراء يتحلّقون حول منازل المرشحين للظفر بكيس من الطحين أو سلّة خضر. ثم أعياني التجوال فجلستُ في المقهى لأشرب قهوة مع عثمان وحكيتُ له. قال لي ساخرا بعد أن شكوتُ همي:

- خَلّيكْ يَا صَديقِي في الهَوى والعشق.الجميع يعرف هذه الحقائق.الانتخابات والمال والفساد أسياد الموقف..ثم واصل سخريته مني حتى كدتُ أغضب وهو لا يغيّر الموضوع.كان ينظرُ إليّ ويضحك باطمئنان من لا تحرّكه كلّ هذه الأهوال..

غادر عثمان المقهى وجلستُ في المقهى أكتُبُ وأراجع الأوراق. كان الشارع أمامي مليئا بمزق الأوراق التي تُخلّفها سيارات مليئة بأناس يهتفون لبعض المرشّحين ويرموننا بصورهم وأوراق التصويت يتبعهم رجال شداد غلاظ للحماية وتحصين الحملة من أيّ طارئ. كان المقهى مليئا بأناس لا يعبأون بما يحصل كمن جاء من كوكب بعيد. جاء كهل نحيف وجلس بجانبي فلم أمانع، حياني ثم وضع قهوته على طاولتي.

صمتَ قليلا ثم بدأ الحديث معي دون أن أهتم كثيرا لأني كنتُ مُنشغلا بأوراقي. لكنه ذكر اسمي فجأة وسألني:

- سّي عبد الحق؟

سألتُه إن كان يعرفُني فلم يُجبْ مُباشرة لكنّه استرسل في حديث عن الصحافة وقيّمها وضرورة احترام الآخرين.اعتقدتُ للحظة أنّ شخصا كتبَ مقالة عنه دون علمي أو أنّه مرشّح هاجمه الزملاء وكدتُ أنفي علمي بالأمر وأردتُ القول إنني لم أعد أعملُ مع تلك الجريدة كي لا يُتعبني باللّوم، لكنه زاد من توضيح المسألة وكان يتحدّث بأدب. فهمتُ أنّ الأمر يعنيني، فقد كتب قصيدة وبعث بها إلى الجريدة ولم تُنشر. ثم وقف وبدأ يقرأ جزءا من قصيدته عن اللّصوص الذين يسرقون من خزائن الشعب ويكذبون على الناس حتى مللتُ الشعر وأحسستُ بالحرج وسط مقهى عامر. وعدتُه قبل أن أغادر بأن أبحث عن القصيدة وأنشرها. مضت أيام وزارني عثمان في المنزل فسألتُه عن الرسالة فراوغ. قال بعد إلحاحي إنّ القصيدة تُهاجم هيئة سياسية، وعلينا توخي الحذر والاكتفاء بقصائد المراهقين الذين تصل من أحياء وقرى بعيدة. قال إنّ صاحب القصيدة- الذي لم أكن أعرفه - سياسي قديم، غادر حزبه ويريد تصفية الحسابات عبر الشعر.

- ومَالُو يا أخي. خَلّيه. هو حُر!!

قلتُ لعثمان إنّ الرجل لطيف وناضج ويتحمّل مسؤولية اختياراته لكنه رفض مدّي بالرسالة قائلا إنّها أوامر المهدي. وقتها عرفتُ أنّ الرسائل لا تصلني كاملة وقد زاد ذلك من حزني. مرّتْ أسابيع ولم تُنشر القصيدة ونسيتُ الأمر. جاء صاحبُ القصيدة إلى الجريدة في صباح عكر لم يكن مزاجي فيه رائقا، صعد الدرج إلى مكتبي وأرغى وأزبد. اتّهمني بالمصادرة. قال إن زمن القمع قد ولّى، وإن على الشباب الذين

يشرفون على الصحف أن يكونوا أكثر ديمقراطية وانفتاحا..سبّني وسبّ أهلي وجدودي. قال لي إنه يعرف السياسة دْيَالْ وْلَادْ لَقْحَابْ. هؤلاء الشّباب الجُدد الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف.يسترزقون بالعهر على صفحات الجريدة ليأكلوا.قال إنني مجرّد عبد مأمور ولا حرية لي في نشر النصوص وإنّه يعرف رئيسي جيدا وما يُخفي ويعرف انتماءاته وميولاته ولأيّ شيء بنى هذه البناية وأفرَدَ كلّ هذا الطاقم لجريدة تافهة تنشر كلاما تافها عن النّيك والمراهقين...ثم سبّ حزبه الذي خان وباع، دُون مناسبة، وسبّ الانتهازيين وأذيال السلطة. وأنا طوال الوقت صامت أسمعه. بعدها بزق على الأرض ومضى راكلا باب الجريدة..مرّ صمتٌ قوي.ظلّ الباب يتحرّك لفترة بفعل قوة الرّكلة.رأيتُ البنات في المكتب المجاور ينتظرنَ ردّة فعلي لكنني أحنَيتُ رأسي وشرعتُ أحرّك يدي كمن يكتبُ شيئا دون أن تنزاح الأبصار عني وكان داخلي عاصفا..

بعد أسبوع، التقيتُه في المقهى. جلسْتُ بعيدا عنه محاولا الالتزام بهدوئي، بدا من نظرته كما لو كان يرغب في الاعتذار. جلسنا مقابل بعضنا مثل مُقاتِلي كَاوبُوي على أهبة النّزال دون كلام. اقترب من طاولتي ووضع قهوته واعتذر قبل أن أقوم بأيّ حركة. صمتَ لفترة قصيرة ودخّن سجائر عديدة ثم بدأ خُطبَته من جديد فحدثني عن البلد. قال بأنّه كان غاضبا من الرقابة رغم الأنترنت وديمقراطيته واتساع هامش حرية الصّحف خلال الوقت الرّاهن. فكّرتُ أن أدعوه للنشر في أماكن منابر أخرى مستفيدا من هذه الرحابة لكنّه كان يتحدّث بسرعة دون أن يُتيح لي فرصة الرّد. تداخل كلامه وكان يقفز بين مواضيع عديدة. قال إنّ هذه المرحلة حرجة، غابت فيها القيّم. مرحلة يطبعها الارتجال. لا تعرف من هو الصديق ومن هو العدو. الجميع يُشبه الجميع. الكلّ يدّعي الديمقراطية والصلاح. كثرت الطفيليات والمطامح والأهواء..قال

إن السماسـرة كثر ورأيتهم خلال الانتخابات.لكن أين الماء والكهرباء؟ أين السكن والتعليم والصحة التي يتحدث الجميع عنها؟ الجميع يدّعي ولا شـيء يتحقّق..قال لي أنت تكتب عن العشـق والحب والعلاقات، هـل كتبـتَ يومـا عن غياب الماء عـن القرى؟ هل كتبتَ يوما عن أناس يتغوّطون في البرد والعراء؟ قلتُ له إن زملائي في الصفحات الأخرى يكتبون عن ذلك فنظر إليّ وكم كنتُ مكشوفا وهو يعالجني بهذا السؤال:

– هل تقرأ فعلا ما يصدر بجريدتك؟ يبدو أنك مغفل كبير يا بني. هل تعرف أي خط سيّاسي تتبعه الجريدة ولمصلحة من؟ هل تعرفُ من يحرّك مدير الجريدة؟

ثم نصحني بزيارة الأحياء الفقيرة والقرى لأعرف حال البلد. مضى زمن وهو يتكلّم وأنا أسمع. انتبَه بعد وقت طويل إلى أنّ قهوته قد بردتْ فرشَفَ منها وودّعني معتذرا من جديد. كان يُسرع المشي كمن يفرّ من وحش يتعقّبه، عندما وصل إلى زاوية الشارع التفتَ إلى المقهى ليتأكّد ربما من أنني لا زلتُ في مكاني..

بقيتُ في المقهى لسـاعات. لم تكن لديّ الرغبة في المشـي ولا القراءة. قلّبتُ الأمور على جميع أوجهها وأسـقط في يدي. ففي ظني، الجريدة مُستقلة، حسب ما قال المهدي، خصوصا وأنه لم يعد من داع لجرائد السياسة المباشرة، فقد تغيرت الأحوال في البلد.وحتى لو امتنع عـن نشـر مـادة ما في ظلّ ظـروف الانتخابات يبقى الأمر مقبولا كي لا يُحسـبَ دعايـة لجهـة ما...ولكـن، هاهو هـذا الرجل يُنبّهنـي إلى ما لم أر.فما الذي يجعله متحمّسا هكذا لانتقاد تجربة المهدي

حين كلّمتُ عثمان عن كلّ هذه المشاكل، ضحك طويلا وقال لي:

– أنت تريد حلّ جميع الأمور. تريد أن تُصبح دولة. طبعا لا شئ مجانـي. كيـف يصلـك مرتّبك الجيّد في رأيـك؟ من مبيعات الجريدة؟.

ولمّـا صمتـتُ لأنّنـي لم أفهم الموضوع، واصل ضحكه الهسـتيري دون رحمة.ولم يخبرني أيّ شيء ولا أضاء أمامي عتمة..

عـدتُ صبـاح اليـوم الموالـي للجريـدة، بعد أن حاولـتُ الاتصال بسهام دون جدوى فقد كان هاتفها مُغلقا، كنتُ أحتاجها في هذا الوقت أكثر مما مضى..تائها تجولتُ في الأزقة محاولا استعادة الهدوء. دخلتُ المكتـب واطّلعـتُ علـى رسـائلي.جاءتني رسـالة تتضمن فكرة أساسـية أثـارت انتباهـي، فقـد تكلّمـت فتـاة قروية اسـمها خديجة في رسـالتها، عن مشـاكلها الأسـريّة، قالت إنّها تحتاج للاهتمام والعناق وإنها بسـبب حاجتهـا للحضـن والعاطفـة مرضت بمرض خبيث فـي الصدر..انتبهتُ للأمـر وبقيـتُ طويـلا في المكتب أكتبُ لها رسـالة لعـلّ الانغماس في العمل يُنسيني همّي ثم برقَ في ذهني حديث السّياسي في المقهى عن القرى..

جلسـتُ ليالي طويلة أقلّبُ في حديث الرّجل. لم أكن يوما قريبا مـن السّياسـة، لكننـي رفضـتُ دائما أن أكون مغفّـلا. دار بيّ العالم وأنا أكتشفُ كيف يستعملني المهدي مثل أيّ شي مهمل. ثم قرّرتُ أن أتخذ خطـوات خاصـة بعيـدا عنه. لقد قـررتُ أن أتوجّه إلى بادية من البوادي كمـا نصحنـي لأعـرف بعـض الحقائـق. أردتُ أن أعـرف عـن البـوادي وواقعهـا لأزيـد مـن تعميق بحثي.أردتُ أن أسـتزيد من الصور والأفكار وأرى ما تغيّر منذ تركتُ قريتي باتجاه الجامعة..

ركبـتُ حافلـة عتيقـة وصعـد إلى جانبي قرويـون تظهر الفاقة على وجوههمْ يجيئون المدينة عادة لبيع ما تيسّر من أمتعة ثم يعودون مساء للاحتماء بالقرى القريبة.سرح بصري وأنا في الحافلة في امتداد الأراضي الجرداء التي لا حياة فيها، وظهر كما لو أن الجفاف أتى على كلّ شيء. فهمـتُ وقتهـا لِـمَ يهـرب الناس من القرى باتجـاه المدن، فهو ليس حبا

ولكنها ضرورة العيش التي لا تترك سبيلا. ثم تذكرت قريتي في نواحي مراكش. تذكّرت ما تقوله النساء هناك:

– إذا جاء الصيف يغلبنا وإذا جاء الشتاء يغلبنا.وتذكّرتُ ما قاله السياسي في المقهى وهو يسبّ ساسة البلد:

– ماذا أعطوا للقرى؟ الكذب والنفاق. انظر إلى حال القرى والهوامش وستَفْهَم الوطن..

زرتُ قرية قريبة مرات عديدة دون أن أُخبر أحدا. في المرة الأولى، وصلت مساء، فاجأني منذ البداية السكون الذي يلف المكان. التقيتُ الناس وكان حديثي معهم عامّا وعُدت بوجه شاحب وألم في الكليتين بفعل الركض في الدروب والتعب والماء الملوّث..وصلتُ إلى خلاصات مَانَعَ المهدي من جديد في نشرها. ثم اتّهمني بالخروج عن الموضوع وافتعال الشجار، ولأوّل مرة أراه صارما وهو يحدثني.. كانت مقالاتي المرفوضة قد بدأت تخرج من الخاص إلى العام فنصحني بالاكتفاء بفرز الأشعار والقصص وتصحيحها.

عكفتُ على القصص والأشعار التي يَبعث بها إلى الجريدة شبّان وشَابّات من القرى القريبة فكنتُ أصحّح بعضها للنشر في باب الإبداعات. وأحيانا أستقي من بعضها حكايات تنفعُني لإغناء الملف الذي أُعِدُّ بعد تحويرها وإخفاء أسماء أصحابها. أقرأُ أحيانا نصوصا وخواطر يبعثها شباب يقتحمون الحياة بتأنّ، يشكون فيها ما يعيشون من آلام وأحزان تغطّي بجلالها حياتهم. أجدُ الكثير من هذه النصوص شهادات حقيقية على واقع الحب بالقرى والضواحي، حيث خرج المارد من قمقمه بفعل التكنولوجيا، لقد وصل الأنترنت إلى قرى لا يجد سكّانها الماء وغمرتهم حوارات المسلسلات المدبلجة من كلّ الخلفيات الثقافية بينما شؤون حياتهم متعسّرة وتربيتهم بسيطة. لم

تَبْنِ المدرسة شخصيتهم بفعل تخبّط البرامج الحكومية وغياب المعلم واهتراء الوضع فأصبحوا عرضة للخواء ونزق المسلسل.ورغم أن هؤلاء المراهقين يجنّسون ما يبعثون قصصا وأشعارا، إلا أن تجاربهم البسيطة لا تعطيهم القدرة على تجاوز حكاياتهم عن الذات فأكشفهم بيُسر وأبتسم مثل شرطي مبتدئ توصّل إلى حلّ أولى قضاياه. كتبت في إحدى الصفحات بأنّ القرى تتحرك بعد انفتاح العالم وأخطر ما تُواجهه المدن هو القرى لأن شهوتها للحياة نائمة إلى حين. ستوقظها الفضائيات وحبّ الحياة فيهجم الأقوام على المدن ولا سبيل..حين عرضتُ ذلك على المهدي رفض تماما ما أقول واتّهمني بالتحامل من جديد فركلتُ باب مكتبه وخرجت..

لم أعد أفهم الكثير من الأمور، فقد ظلّ حال الجريدة عاديا لشهور ولم نعد نتقدّم. لم يعد المهدي يزورنا كثيرا وتقلّصت صفحتي، بتُّ أعتمد على ما جاءني من رسائل قديمة لأنّ الرسائل الجديدة لم تعد تصلني. كنتُ أحسُّ شيئا غريبا يحوم حولي في جوّ الجريدة دون أن يُخبرني أحد..أجيء صباحا وأظلّ أجول في المكاتب دون هدف. كثيرا ما أدخل مكتب حنان وسميرة فتقفا احتراما لي ثم أجلس فتعودا إلى شُغلهما البسيط. أسمع تَكْتَكَات الكمبيوتر تحت الأصابع الرقيقة، وبين الحين والآخر تسألانني عن مضمون كلمة بسيطة، أو تفسير جملة ملغزة..

تشتغل سميرة بهمة ونشاط. وكنت أُحِبّ قوامها القصير دون أن أبوح. أزورها كثيرا في الصباح لأسمع حديثها المرح، ثم انفتحتُ على تجربتها وتحادثْنا طويلا عن حياتها فباحتْ بالقليل. كانت تبحث عن عريس عبر الأنترنت مثل العديد من شابات البلد.أسرّتْ لي أنها تفتح حسابها وتشتغل في ذات الوقت فتُزاوج بين العملين. ثم مرّت الأيام

فاكتشفت دون رغبة، حين زرتُ مكتبها وكانت قد غادرت لتتغذى عند منتصف النهار، أنها تخبرني نصف الحقيقة، فقد كانت تُراسل العديد من الناس من جنسيات مختلفة دون أن تُفصِح عن هدفها الذي كان مُخزيا. فتحتُ جهازها لأطلّ على مقالة تركتُها قبل ساعات أمام بصرها، وحين وجدتُ حسابها مفتوحا، تحرّكتْ حاسّة المخبر من جديد في داخلي، فقرأتُ العديد من حواراتها مع شبان وشيوخ، أسوياء ومرضى، رجال لا يرغبون في الزواج، لكنهم يعرضون أموالا مقابل أن تُظهر لهم سميرة ملامح جسدها وثغراته عبر الكاميرا..بقيتُ مهموما بما يحصل للصغيرة، ولم أستطع أن أكلّمها.ظللتُ لأسابيع أفكّر كيف تضع الكاميرا وفي أيّ وقت، وتساءلتُ إذا كانت حنان متواطئة معها: هل يُغلقان الباب وقت العمل؟ وإذا دخل أحد وهي منهمكة ماذا تفعل؟ هل تتظاهر بالهدوء؟

واجَهتُها في النهاية. أنكرتْ ثم اعترفتْ وخافتْ أن أخبر المهدي. قالت إنّها فقيرة وتحتاج للمال. وكما لو أنّ الأمر عاديّ ولا يستحق الانتباه طمأنَتني بأنّ وجهها لا يظهر بالكاميرا كي لا يضعَها الواقف خلف الزجاج البعيد على موقع وتكون فضيحة. تعجّبتُ لموقفها، وأدركتُ أنّها لا تخرج عن حال البلد، فما دامت الأمور تحت السيطرة ولا تظهر للغرباء فإنّ كلّ شيء على ما يرام..

وسألتُ يوما عثمان، دون أن أعطيه رأس الخيط، لماذا يُقبل الناس بشراهة على الأنترنت ويسعون للتعارف بهذا الشكل مع أناس غرباء؟ لماذا يكثر الرجال في مدينة ما، ومع ذلك، تبحث النساء عن رجال من خارجها؟ والأمر ذاته بالنسبة للرجال؛ ما الذي يجعلهم يبحثون عن نساء من خارج الأمكنة التي ينتمون إليها؛ بحثا عن بناء صورة جديدة؟ بحثا عن الغامض؟ قال إن السر في ذلك هو الصورة. هو أن الذي لا يعرف الفتاة يُمكن أن ترسم له الصورة التي تريد ويرسم لها الصورة التي يريد

ويستطيعان إيهام بعضيهما.ثم حدثني عن بنات الدّربِ اللواتي يُحضرن أزواجا من أماكن بعيدة، لأنهم لا يعرفون ماضيهن، والماضي أكبر إدانة في هذا البلد، قال إنّ السياسي يخاف الماضي، والمرأة تخاف الماضي وتُخفيه، وإذا أراد شخص تدميرك يعود إلى ماضيك..

استمعتُ له بانتباه دون تعليق، واحترتُ لفترة، إذ لم أدر هل أضيف الفكرة إلى فصل الإخفاء، أم إلى فصل جديد، واكتفيتُ بأن كَتَبْتُ ما أسمع سريعا، دون أن يحس بي عثمان.وكتبت تحت الجُمل على هامش صغير بخط غير مقروء مثلا سائرا قاله المهدي وهو يصعدُ درج الجريدة يوما:

- عَينْ ما شافتْ قلب ما وجَعْ...

(8)

تطَـوّعَ بعـض الأطبـاء، وهـم أعضاء في جمعية تنشَـط بمجال حماية حقوق المرأة والصحّة الجنسـية والوقوف ضد اسـتغلال الأطفال، لتنظيم أيام صحيّة للتّوعية بمخاطر الجنس المفتوح على الأهواء وتعدّد الشركاء الـذي أصبـح مُقلقـا فـي البلـد وجَالبا لأمراض امتلأت بسـببها المشَـافِي وعيادات الأطباء. تجوّلوا في الأحياء لمساعدة الناس على الفهم وتوزيع المنشـورات والدعـوة للحـذر. ونظرا لما تحويـه مقالاتي من انفتاح على مسـارات الحياة العميقة ومن تدقيق في تفاصيلها وقلق على المسـتقبل، فقد استَدعوني للمشاركة في ندوة لذات الغرض. قال لي رئيس الجمعية، باحتـرام بالـغ، إنّ أوّل خطـوة لتجاوز الأمراض هـي الاعتراف بوجودها. قـال إنّ التصالـح مـع الجسـد مهما كانت أعطابه ضرورة، وعلى وسـائل الإعلام أن تُعين الناس على وضع الأصبع على الجرح دون خجل. فلعلّنا نقف يوما على أعطابِ جسـد الوطن بأكمله مُعترفين بما يُؤلمنا دون أن نُحاول إخفاء الثقوب والابتسام مُدّعين أنّ كلّ شيء على ما يُرام..

تجوّلنـا بعـد الندوة في الأحيـاء الفقيرة لننبّه لقوة المخاطر وأهميّة الكشـف عـن الأمـراض مبكّرا.كُنـتُ مُتحمّسـا وأنا أسـردُ قصص الذين تصلنـي رسـائلهم لأدلّـل علـى ضرورة الحـذر وإعمال العقـل والإيمان بأهمية الجسـد واحترامه لأنّه هبة. كنتُ قد حصلتُ على إجازة جديدة من الجريدة بعد أن وصلتُ مع المهدي إلى الطريق المسدود، ولم يعد بإمكاني المضيّ معه في عمل لا يُسمحُ لي فيه بالتصرّف وفقَ ما أرى، كمـا أن شـكوكا كثيـرة بـدأتْ تُراودني حول كلّ مـا يتّصل بعملي لذلك قررتُ أن آخذ مسافة وأفكّر في مصيري..وبعد يوم عمل طويل شعرتُ

فيه أنني استنفذتُ كلّ ما أملك من كلام، عدتُ مساء وبي تَعب شديد لكنني كنتُ سعيدا بابتعادي عن برجي العاجي ونزولي إلى واقع الناس.

مُرهقا عبرتُ الأزقة الملتوية باتجاه الشقة وعيناي شبه مُغمضتين، كنتُ أفكّر في الاستلقاء على السرير والنوم حتى ظُهر الغد. لم أُسلّم على أيّ أحد من الزقاق بل عبرتُ على غير عادتي خفيفا. عند باب الدار رأيتُ جمعا من الناس، ثم لمحتُ سيارة للشرطة واقفة على أهبة. اقتربتُ فسمعتُ رجالا يتحدثون عن فضيحة ويبالغون في هزّ رؤوسهم مثل من يمشي في جنازة، ومن شرفات النوافذ كانت نساء كثيرات تراقبن بانتباه محاولات إخفاء ملامحهن. لم أفهم في البداية ما حصل، لكن وَشْوشات الحديث جعلت ذهني ينساق نحو منزل عيْشة وبناتها ففهمتُ ما يحصل. لم أفتح باب منزلي لأنّ الفضول أحرقني. انحرفتُ عبر زقاق ملتو لأصل إلى دارهن. وقفتُ أمام الباب مُستطلعا وكان يعلو الصياح والنحيب ورأيتُ الفتيات يَهربن مولولات في كل اتجاه. تقدّمتُ من شرطي يرتدي بزّة مُختلفة بدا من خلالها بأنّه مسؤول لأستفسِره عن الأمر. وقبل أن أقدّم نفسي قال لي دون أن يلتفت:

- بعّد يا أستاذ.خلّيناَ نخَدْموا..

استغرَبتُ كيف يعرفني.عندما لم أبتعد، تقدّم احد أعوانه ودفعني بعنف دون أن يترك لي فسحة لأحرّك الكاميرا.

بدا منظر الفتيات نصفَ عاريات وهنّ يَصعدن إلى سيارة الشرطة مثل قطيع يُساقُ إلى مذبح، وبدتْ عيشة داخل السيارة صامتة هادئة لأنّها مجرّبة وتعرف التفاصيل فقد عركتْها السنين وهي لا شك تعرفُ ما سيحدث. كانت تجلسُ مُرتدية جلبابها الأسود الغامق وترمقني من عتمة السيارة بما خُيّلَ إليّ أنّه نظرة عتاب قبل أن تحني رأسَها وتنطلق بها السيارة نحو مصيرها.

صعدتُ الدرج. دخلتُ الشقة فَزَالَ تعبي فجأة.أحسستُ بالجوع الشديد ولم تعد جفوني مُثقلة.وضعتُ متاعي القليل واتجهتُ نحو المطبخ وذهني يمور بالصوّر والأسئلة. بدأتُ أُعدُّ عشاء خفيفا وأفكّر في عيشة وبناتها؛ سوف يُسقن إلى المخفر ويُسَمْنَ سوء العذاب، بعدها تتمّ محاكمتهن بتهمة الفجور..تساءلتُ ما الذي يجعل الشرطة تصمتُ طوال هذا الوقت ثم تلجأ فجأة إلى اقتحام الدار؛ هل هي وشاية أم شكاية من الجيران؟ ثم كيف سيكون وضع الحاج الذي سمح لهن بالإقامة في منزله؟ هل سيُساقُ بدوره بتهمة ما؟ ولماذا كانت تنظر لي عيْشة بتلك الطريقة؟

حاولتُ أن أنسى الأمر وأطردَ نظرة المرأة وهي مكوّرة داخل سيارة الشرطة فلم أفلح. حاولتُ أن أنصرفَ إلى مطبخي وأُكمل إعداد العشاء لعلي أنسى.غالبا ما أَعِدُ نفسي بأمر ما لأستدْرج النسيان، لهذا وعدتُ نفسي بطاجين الكفتة الذي أعشق. حاولتُ التفكير في النوم لعلّي أرتاح فلم أجد بي رغبة فقررتُ الخروج بعد أن أتعشى. سأخرج لأشرب شيئا في المحل الذي أشتغل به. لن أعمل الليلة بل سأتصرّف كزبون مُحترم، أطلبُ قائمة المشروبات وأكونُ في أبهى حلّة وأنا أكلّم النادل.قد أقفُ لأرقصَ عندما تملأ الموسيقى المكان.سأسهر حتى وقت مُتأخّر. ثم راودتني فجأة الرغبة في مكالمة سهام. قلتُ إنّ عليّ أن أجرّب شيئا مُختلفا دون شكّ..ماذا لو دعوتُها للعشاء في المطعم؟ أقول لها سنتعشّى في الخارج ما دُمت ترفضين المجيء إلى الشقة. فكّرتُ أنني لم أناضل بما يكفي لاستعادتها، وأنّ عليّ استعادة حبي الذي أثبتَ الزّمنُ بأنّه حقيقي، وشعرتُ لبرهة بالفخر والسعادة وأنا أفكّر في الحب، وفي ياء النّسبة التي تجعلني أمتلكه دون شريك.شعرتُ بالزهو لأنّ شيئا ما بداخلي يظلّ مُصرّا على التشبث بسهام دون السعي إلى خيارات

أخرى في مدينة لا تتوقّفُ عن إنجاب النساء وتجميلهن وتنويع القُدود والملامح والابتسامات. وفكّرتُ للحظة أنّ سهام قدري، وأنني لو خُيّرتُ بينها وبين نساء الدنيا لاختَرْتُها. ثم راودني خاطر قوّى سعادتي بأنّها لا شك تنتظر اتصالي، في هذه اللحظة بالذات، وتخيّلتها تنظرُ إلى هاتفها أو تُداعبه وتطلبُ منه أن يرنّ.. مهما كانت درجة غضب سهام هناك لا شك خيط لا زال يربط بيننا. ثم إنّ غضبها قد طال ولم يعد له من معنى، وإذا زاد أكثر لن يُجدي لأنّ هناك لحظة في كلّ حرب يكون على الطرفين فيها أن يتوقفا. حين يصلان إلى جوهر الأشياء عليهما الاكتفاء. هناك لحظة لا يمكن للمنتصر أن يتجاوزها، لأن خراب المنهزم لن يفيده في شيء. عليه أن يترك للمنهزم القليل من الكرامة والجسد لكي يكون للنّصر معنى. أن يترك له ما يمكن أن يفيد ليقتصّ منه ولا يتركه خرابا تاما. إذا أصَرَّ المنتصر بعد هزيمة المنهزم على التوغل أكثر تضيع اللذة..

وقفتُ في المطبخ أقشّرُ البصل والطماطم وأغنّي وأفكّر في طاجين الكفتة الذي وعدتُ نفسي به وأبحث عن الكلمات المناسبة للحديث مع سهام حين رأيتُ فجأة ملاك الموت. كانت طاقة قوية قد تحرّكتْ ورائي فتوقّفتُ عن تقشير البصل وصمتتُ عن الغناء في لحظة.أحسستْ كائنا يقفُ خلفي ولم ألتَفِتْ. عرَفتُهُ وبقيتُ لبرهة أفكّرُ فيه وفي الاحتمالات وكان ذلك في جزء صغير من الثانية. ثم انتَبَهتُ لجسدي وحاولتُ أن أتنفّسَ فلم أستطِعْ لأنَّ الهواء لا يُريد أن يُسعف رئتيَّ. للحظة صغيرة أحسستُ أنني أنحدر في النفق الأسود ثم جاء الألم..ربما لم يكن ملك الموت من يقفُ ورائي، بل مخاوفي في الحياة ومصاعبُ الدنيا وأهوالها التي عاشرتُ وأنا لا أزال صغيرا. وبدا أنّ شريط حياتي يُستعاد أمام ناظري في تلك اللحظة كما يحصل للمقبلين على الموت واشتد الألم. أمسكَني من يسار البطن في البداية ثم تحوّلَ إلى السُّرّة، وتضاعف حتى

التويتُ على شكل عجلة ممسكا ببطني ولم أملك نفسي فخرج الهواء المحبوس بأكمله صيحة واحدة انكسر لها صمتُ الشقة. زحفتُ باتجاه الدرج ونزلتُ مقوّسا لِعِلمي أنني إذا ظللتُ بالشقة سأموت ولن يكتشفَ أحد جثتي حتى تصل الرائحة. فتحتُ الباب السفليّ بصعوبة وارتميتُ في الزقاق وكانت مهمة الشرطة قد انتهت وغادر الناس إلى منازلهم، ثم غَام كل شيء أمام بصري ولم أشمّ سوى رائحة البحر البعيدة..

استيقظتُ في المستشفى..

في المستشفى حركة وبشر وأروقة فارغة عند الليل.يشتد البرد كثيرا لأنّ الأغطية قليلة ولا يُسمَعُ في الممرات سوى وَشْوشَات صغيرة لزوار يحاولون العبور مثل عصافير ليزوروا أحبّتهم وأنا وحيد على سريري. ميّزتُ الغرفة الصغيرة التي تنتشر رائحة خاصة بين جَنَباتها. كان بصري مُثقلا بفعل التخدير. رأيتُ رجلا ينام في السرير المجاور يقول لي حمدا لله على سلامتك فأحرّك رأسي بامتنان دون أن أتكلّم. تجوّل بصري في الغرفة وأحسستُ نفسي وحيدا. وحيدا تماما، دون نقاش، ولا مبالغة. وحيدا حتى آخر حرف في الكلمة..على سرير المستشفى كنتُ نائما وحلمتُ بكابوس كان يراودني منذ مدة واختفى وهاهو يعود: امرأة تأتي وتتبعني وتقول إنها راغبة بطاجين الكفتة. أكتَشِفُ أنّ لديّ أجنحة فأطير وتتبعني جماعة من النساء ورغم أنني أرمي لهن الكفتة إلا أنهن ظلَلن يتبعنني ويطلبن المزيد.

جاءتْ ممرضة لطيفة وقالت إنّ عُمرا جديدا كُتب لي، فقد تمزّقت الزائدة الدودية ولوثّت أمكنة عديدة بداخلي. وسألَتني باستغراب إذا كُنتُ قد أحسستُ ألما قبل يوم سقوطي فنَفيْتُ.قالتْ إنّ الإنسان عندما يكون مهموما أو مُنشغلا، لا تشتغل وظائف جسده كما ينبغي ولا يتلقى التحذير في الوقت المناسب. ثم نصحتْني بالهدوء والراحة.

مرّتْ ساعات وجاء عُثمان يزورني، ظللنا نتكلّم عن أمور كثيرة وتلافينا الحديث عن الجريدة ثم استأذنَ في الانصراف..

لـم يكـن فـي مُكنتـي أن أتحرّك، كان الإحسـاس بالعجـز يطالني، وأحسسـتُ للمرة الأولى بالحاجة القصوى لسـهام. سـألتُ نفسـي وأنا أسمع شخير رفيقي في الغرفة عن الحب والحاجة والجرح فقلتُ: هل يضمن الحب ألا يجرح أحدنا الآخر؟ هل يضمن الحب مناطق الحاجة ويغطيهـا؟ ثـم وجـدت الجـواب: الحب يقوّي إمكانيـة الجُرح أكثر مما يُضعفها.الحب يقوي احتمالات الجرح لأنّنا نعيش في مهب الاحتكاك. ثم استسلمتُ للنوم من جديد..

أعـرف أننـي منحـوس. هـذا أمر لا جدال فيه لكن أن تأتي سـهام ومعها امرأة غريبة إلى المستشـفى لتلعنني وتُعدّد أخطائي فذاك أمر لم أقدّره أبدا ولم أفهمه ولعلّهُ لم يكن حُلما أبدا.

فـي اليـوم التالي اسـتيقظتُ باكـرا على غير عادتي وبقيتُ سـاهما أنظـر إلـى السـقف عندمـا دخلتْ عليّ سـهام رُفقة عجـوز. نظرتُ إليها مليّـا كمـا لـو أنـي أراها لأوّل مـرة. نظرتْ إلى وجهـي وحاولتْ إخفاءَ دموعها.جلسـتْ بجنبـي وأطعمتنـي، ثمّ قدّمت عجوزا قالتْ إنّ اسـمها حليمة. لم تبتسـم المرأة. أمسـكتْ يدي وتفحّصتها جيدا وسـألَتْني عن اسم أمي ثم قالت::

- نْتَا يَا وْلِيدِي عَنْدَكْ التَّابْعَه.

وعندما لم أعلّق ولم أحتجّ استرسلتْ في الكلام فقالت إنّ الذي يملـك شـهادة ويَتَكَرْفَصُ هكذا في شـطآن الحياة لاشـك عنـده التّابعة. الـذي يُسـافر إلـى أوروبـا ويعـود دون سـيارة ودون مال لا شـك عنده التّابْعة.الذي يعمل صُوحَافِي ولا يجد قوت يومه ولا يسـتقر على حال عنده التابعة.

قالتْ سهام إنّ عليّ أن أسمع دون احتجاج ففعلتُ. لم أردّ عليها. كُنتُ مُكتفيا بحضورها فلم أزعج المرأة وهي تغوصُ في أوجاعي وتنبش دهاليزي المظلمة. سمعتُها تحكي عن تفاصيل صغيرة عِشتها مع سهام دون أن ألـقِ لهـا بـالا لكنّها كما لو سـجّلَتْها بالتدقيـق ذاته الذي أحمي بـه مقالاتـي وبالإصـرار ذاته الذي أنبشُ بـه في حياة الآخرين كي تصير مواد تُبهر قراء الجريدة. حدّثتني عن جسـدي وعن سـلوكي مع سـهام وعن مشاعري المرتبكة.

خرجَتْ سـهام لتشـيّع العجوز حتى باب المستشـفى وتعود. بقيتُ أفكّـرُ فـي كلام المـرأة عـن التابعة وتذكّرتُ حديث "الشّـعيبية" عن ذات الأمـر فـي الدار البيضاء.فكّرتُ فـي التابعة وما تحمله في أذهان المغاربة من معان تحتمل الحسد والعين وتحكّم القوى الخفيّة في المصير لكنّها تبقى مبررات مناسبة للفشل. تعبتُ من النوم فغادرتُ الغرفة مُتثاقلا دائخا. فتحتُ باب المرحاض ثم أغلقتُهُ خلفي. فتحت ياقة القميص لأرى جُرح البطـن الـذي لا يـزال طريّا.تنشّـقْتُ الهواء المشـبع بالرطوبة وأطلَلت من النافذة فبدا الشاطئ قريبا ورأيتُ أطفالا يلعبون الكرة ويصيحون بابتهاج..

عادتْ سـهام وجلسـتْ بجانبي وظلّتْ تمسحُ جبيني بأصابعها، لم أشـأ أن أفتح موضوع خصامنا، كنتُ أحتاج الهدوء أكثر من أيّ شـيء جلسـتْ معـي وعاملَتْنـي بحنـان ثم غادرتْ.قالتْ إنّها سـتعود في الغد، فليسَ عليّ أن أظلّ طويلا في المستشفى..

يتوقّفُ بنا الطاكسي قريبا من الدار، أتكئُ على ذراع عثمان وأحسّ حريقـا ودوخـة. أجـدُ الحـاج يقف أمام الباب. لا يُسـلّم ولا يسـأل عن حالتـي. يطلـب مفاتيـح المنـزل وكل الغرف.يطلـبُ منـي مفاتيح غرف لـم يُسـلّمها لـي حيـن دخلتُ الدار أوّل مرة. لم أناقش لأنّ جسـدي لا يحتمل. طلبتُ منه مُهلة أسـبوعين لأدبّر أموري فوافقَ مُرغما وقال إنّه

وقت طويل. لم أكن أعرف سبب غضبه مني ولم أسأله، لأنّ علاقتي به كانت آخر همي..

صعدتُ الدرج متثاقلا، وعندما دخلتُ الشقّة، أحسستُ بأنّ غريبا دخلها وأنّ يدا ما جالتْ بالبخور في أنحائها. على الكرسي، فكّرتُ أن علاقتي بعملي ساءتْ وسهام عادتْ على الأرجح بفعل الواجب لا بفعل الحبّ وها إني أفقد المأوى فما الذي سيبقى؟...

تحت الباب، على الدرج، وجدتُ رسالة مُغلقة يبدو أن ساعيّ البريد قد دسّها في غيابي. من عادتي أن أتسلّم الرسائل عبر بريد الجريدة، فما الذي جعل شخصا يبعثها لمنزلي؟ ومن يعرف محل سكنايَ غير سهام وعثمان؟

وضعتُها على طاولة، ثم بقيتُ أفكّر طوال الليل في ظروفي حتى أخذتني سنة الكرى وأطلّ الصباح..

أحسستُ بتحسّن، دخلتُ مطبخي لأعدّ الفطور، فوقع بصري على الرسالة.فَتَحتُها وكانتْ مكتوبة بخطّ دقيق عجول وقرأتُ:

(السيد عبد الحق النصوري.

السلام على من اتّبعَ الهُدى.

بعد الحمد لله والصلاة على نبيه المصطفى نُعلمكم أنكم بنشر الرذيلة على صفحات الجريدة ورعاية الموبقات تكونون قد فتحتم بابا للاطلاع على عورات المؤمنات والمؤمنين. ونعلمكم أنّ الذين يسعَوْنَ بالفاحشة بين الناس لهم عذاب أليم. وهذا تحذيرنا لكم بالعودة إلى ما تفعلون. وإن عدتم عدنا)

وضعتُ يدي داخل الرسالة فوجدتُ شريطا لم أنتظر طويلا كي أسمعه يحكي عن عذاب المتبرجات والذين يُشعن الفاحشة..

(9)

أمـام البحـر، لـم أكن حزينا ولا مهموما وأنـا أتذكّر الأيام الأخيرة التـي تلـتْ خروجـي من المستشـفى وقطعِ علاقتي بالجريدة. تسـارعت الأحـداث بيـن يـدي مثـل رمـل رقيق. غـادرتُ الجريدة بعـد أن اختفى المهـدي وسـمعتُ أنّ مـن يُمـوّل جريدته غير راض عن آدائه، خصوصا بعد نتائج الانتخابات السّيئة. غادرتُ منزل الحاج دون رجعة. اكتشفتُ الحالـة المريعـة لصديقـي الفيلسـوف عثمـان. وكم كانت دهشـتي حين عرفـتُ سـبب تحوّطـه وإعراضـه عن الحديث معي في شـؤون النسـاء. لقد خشـيّ أن أجعله نموذجا سـلبيا عمّن يصطاد الفرص الرخوة. كان عثمـان يَعتـاش طـوال صداقتنا من العلاقة مـع العجائز لكي يزيد دخله، وقد اكتشفتُ ذلك بمحض الصدفة وأنا أتمشى في شارع مُثقل بأشجار الأوكالبتـوس، بعـد أيـام من خروجي من المستشـفى. رأيته يُسـاوم قبل صعـود سـيارة فصُعقـتُ، ثـم تتبّعـتُ خطوه في مـا بعدُ فبانـت الحقيقة وفهمتُ سرّه.

بعـتُ أثاثـي القليل وحصلتُ على غرفة صغيرة في فندق رخيص. قلتُ لنفسي سوف أستقرّ لأيام ريثما أجد شقة جديدة أو أرى ما أرى.

قـال لـي الحـاج إنّـه يريدنـي أن أغـادر، دون نقـاش، فقـد انتهت المهلة. ألححتُ في طلب تفسير لما يحصلُ، لكنّه رفض، وعندما رأى إصراري جلس على الكرسـي ورفع عينيه محاولا رفعَ صوته الخفيض وقال إنّ عملي بالجريدة وما أكتبه عن النساء وحديثي الواضح عن بيت عيشـة، ومسـاهمتي مع تلك الجمعية ومدي إياها بمعلومات سـبّب له ضـررا كبيـرا، فقـد اتُّهِمَ بإعداد أوكار البغاء. ثم قطع إمكانية النقاش بأن

أعطاني يوميـن إضافيين..قـال إنّـه لا يحتاج صحافيين فـي منزله. بَرَاكَا عْلِيّ البَرْكَاكَا دْيَالْ الزَّنْقا..

أخـرجُ مـن الـدار، وأتوجّهُ إلى الجامعة لألتقي الأسـتاذ الذي كان يعينني علـى تلمّـسِ ظواهـر أكتبُ عنها ويمدّنـي بالمراجع وأناقش معه بعـض القضايـا طوال انشـغالي بصفحتي فـي الجريدة.أجدهُ في المدرّج فانتظـر انتهاء درسـه. نخرج مـن الجامعة ونجلس في المقهى ونتحادث طويلا فتضاءُ أمامي العتْمات..

قـال لـي وهـو يُحاورنـي إنّ مـا أسـميه منهجـا في البحـث وربط علاقـات النـاس بتطـوّر البلـد فيـه الكثير من الصدق لكنـه لا يرقى إلى المنهج. قال إنني في فورة اندفاعي اعتقدتُ بأنني اكتشفت وضعَ البلد وكتَبْـتُ عـن أمـور ما كان ينبغي الاقتراب منها.البلد مكشـوف والجميع يعـرفُ أعطابَـه جيـدا لكـن الناس لا يرغبون فـي حلها ولا في الحديث عنها. ما فعلتَهُ يا عبد الحق هو أنّكَ تكلّمتَ عن رائحة فم الأسد النتنة، فاستحققتَ غضب المهدي ومن يُحرّكه.

- من يحرّكه؟!!!

أسـألهُ محاولا إخفاء دهشـتي وخيبة أملي.لا يُجيبني مباشرة، لكنّه يسترسـل في الحديث عن رؤى سياسـية تتشـكّل في البلد، وعن جرائد تُصنع مثل بالونات اختبار وعن أخرى يتمّ بها تصفية الحسابات وتُبعثُ عبرها رسائل مشفّرة، وعن الاتجاه نحو الاهتمام بمشاكل الشباب خلال الفترة الأخيرة لفضّ اشـتباكات عديدة خلقتْها البطالة وضيق الأفق. ثم حدثنـي عـن تحركات يقوم بها شـباب كثيرون فـي مدن وقرى للمطالبة بتغيير الأوضاع وسألني باهتمام إذا كنتُ على علم بالأمر أم إنني مهتم بالحبّ وشجونه؟ ثم ابتسَم. وعندما لم أتواطأ معه على الابتسام عادتْ إلى ملامحه الجدّية وحدّثني عن حركة الشباب في البلد، قال إنّ الجميع

يتحدث الآن عن التغيير فأينَ أنت من كلّ هذا؟ وهل لديك فكرة عمّا يحصل؟..

أعطيته الرسالة التي وصَلتني فنصحني بتسليمها للشرطة ولم يهوّل الأمر.قال لي على الأرجح هي رسالة من طالب مُتحمّس أو شاب لا يرى جوهر عملك لكن عليك أن تحذر رغم ذلك من متحمّس يريد تغيير المنكر. صمتْنا قليلا وأحسستُ أنّ الكلام قد انتهى. بعد برهة، كما لو كان يخبئ في جرابه قُنبلة، أخرجَ من محفظته أوراقا عديدة ودعاني لتصفّحها، وكم كانت دهشتي وأنا أرى خلاصاتي وأفكاري على الورق، ولم أكن محتاجا للكثير من الذكاء لأكتشف خطّ المهدي. لم ينتظر سؤالي ولا دهشتي بل قال مباشرة دون مواربة:

– كان المهدي يسرقُ أفكارك ويدوّنها في مشروع بحثه للدكتوراه المسجّل بجامعتنا.ولأنني تابعتُ معك كلّ محطات أبحاثك، فقد اكتشفتُ أمره. لقد استغلّك بشكل مزدوج.لكن لا تهتم فقد أوقفتُ مشروعه وكتبتُ تقريرا عن المسألة.

يحدثُ أحيانا أن تخرج من محل تُداوم على زيارته، أو تَنْزِلَ درجا تعرفه جيدا دون انتباه، لكنك في لحظة الخروج، وبعد أن تتنشّقَ الهواء، تحسُّ غشاوة على عينيك فلا تعرفُ أين أنت! تحاول أن تعرفَ في أيّ مكان أنت فلا تَستطيع. فجأة يتسطَّحُ دماغُك فلا يُسعفك على التفكير فتخرج لبرهة من عالم الناس وتدخل خندقا مُظلما. تحتاج إلى التفكير لوقت كي تضع أبعادَ الدّنيا وتُموقِعَ ذاتك.و لعلّ هذا ما حدث لي. بدأت الدنيا تضيق وتسودُّ أمام بصري، وأحسستُ بأنّ العالم غريب عني وإنني لا أعرفُ أين أقف. وقفتُ وغادرتُ دون أن أسلّم عليه وكانت نظراته المتعاطفة تشيّعني وقبل أن أختفي سألني وهو ينظرُ إليّ بإشفاق، وما كان له أن يسألني:

- ما الذي جعلك تعود إلى هذا البلد ؟ هل عدتَ لتُمتهن كرامتك من جديد؟ هل أنت محتاج للمزيد من الأحذية لتدوس على روحك؟ هل شبعتَ من أوروبا؟ ألم تر جيوش المعطّلين التي تتزايد يوما بعد يوم؟ ماذا ستربح من هذا البلد؟ مضيتُ وكلامه يتردّدُ في ذهني مثل صدى بعيد لهُتاف أو صراخ..

في غرفتي بالفندق، قرأْتُ الرسالة المجهولة التي وصلتني من جديد، حملتُها بين يدي واستلقيتُ على السرير وطالعتها.سرح بصري في السقف وأنا أتأمّلها. فتحتُ النافذة ورأيتُ حركة الشارع مستمرة دون توقف وكلام المرسِل يدور في رأسي..

أمام البحر، ظللتُ أفكّر في حديثي الأخير مع سهام في المستشفى عندما زارتني من جديد. راعَني كيف تتغيّر امرأة بهذه السرعة وهذه الطريقة، كيف تهدم علاقة بهذه القوة بسهولة ودون سبب مُقنع. واقتنعتُ دون مواربة بأنّها تعرف شخصا آخر، وأنّ الحديث عن جثة في مطبخي كان مجرد وهم. أما كلامها عن كوني لا أُنصتُ لها فلا يعدو كونه مجرّد تبرير..

لقد قرّرتْ سهام تركي في ذلك اليوم حين خرجت لتغلق الباب. ولم يكن أمامها من باب لتغلقه غير باب علاقتنا الذي ظلّ مواربا لوقت ومفتوحا على مصائر ملوّنة..ثم وصلتُ إلى فكرة وكنتُ أجهد في إخفاء جسدي وجرحي الطريّ عن برد البحر فقلتُ لنفسي إنني أيضا مُخطئ من نواحي عديدة، فقد سعيتُ لامتلاك سهام في البداية على طريقتي، وهذا ما ضيّعها، وبذلك أكون قد كرّرتُ خطئي معها في الدار البيضاء. أعرفُ الآن أن الحبّ الذي يُناسبنا موجود في خلف ما، وأنه كان علي اكتشافه وصُنعه لأنّ الحبّ يُخترع، انطلاقا من تواطؤ مبهم لطيف بين كائنين.ننطلق من تواطئنا لنصل إلى الصورة التي تتغذى بالذكريات

والإحساس بالأمان.إنها ومضة تكبر بوقود الذكريات. لكن سهام تعبتْ من مُحاولتي تكييفها مع ظروفي وقلقي وتعبتْ من محاولة فتح كوة عالمها أمامي. وفي لحظة، فكّرتُ أنّ الوطن كذلك يشبه سهام، علينا أن نُحبّه وأن نسعى لتغييره لنكون مناسبين له، لا أن ننتظِر قدرنا لكي يتغير لوحده أو ننتظره ليتغيّر كما نُريد.تمشّيتُ قربَ البحر وفي ذهني صوت الموج الذي لم يعد يصيبني بالغثيان..

في لقائنا الأخير بالمستشفى، قالتْ سهام إنّها لا تزال تحبني. جلستْ على حافة سريري وكانت حنونا وهي تمسّد شعري برفق. تكلّمنا عن الفراق وآلامه وكيف عشتُ كلّ هذه الأيام بدونها وكيف عاشتْ بدوني. قالت إنّها وجدتْ وظيفة مُحترمة في فُندق. صمتتُ وغضبتُ حتى آلمني الجرح فأنا أخاف الفنادق، لكنني لم أشأ إظهار ذلك كي لا أُفسد اللحظة. قالت إنّها تحبّني وإنّ خروجها يومذاك من منزلي ليس بسبب أوراقي التي تتالتْ اعترافاتي بمضمونها عبر الهاتف، فهي لم تقرأها. بل إنّ اعترافاتي التي سُقتُ خلال اتصالي بها تستطيع أن تتفهّمها فأنا لستُ نبيّا وهي تعلم أنّ كلّ الرجال يُكثرون من العلاقات..

– وما الذي شَرَخَ علاقتنا ياسهام؟ ما الذي أبعدَكِ كلّ هذا الوقت؟

كان سؤالا كبيرا ظلّ يطول وينمو حتى غطّاني وسيّج العالم من حولي وخلق الارتباك في دروب روحي.أي خطأ ارتكَبتُه غير الكذب والخيانة عجّل بغرق مراكب حُبّنا التي أنجَتْني من لجّة البطالة والحرمان والتيه والغربة؟

صمتَتْ ثم قالت إن السبب كان جثتي. لقد وجدَتْ في المطبخ جثّة، وعندما دقّقَت النظر، اكتشَفَتْ أنّها جثتي.

توقّفتْ عن لمس جسدي وبدا أنّها تبحثُ عن مسافة بيننا لتقول

كلاما مُهّما، أو لعلّها خشيتْ أن أحسَّ ارتجاف أصابعها على جبهتي. اعتدلتْ في جلستها وقالت:

- خرجتُ لأُغلق الباب ودخلتُ لأشرب في المطبخ، وعلى كرسيك الكبير وجدتُ جثة.وكانتْ جثتك بكلّ تفصيل..

كُنتُ مصعوقا وأنا أراها تنحرف بالنقاش في اتجاه ما لم أره.قُلتُ لها بأنْ لا جثث في مطبخي، وإنني كنتُ طوال الوقت في الصالة، وإنّني اعتقَدتُها قد غضبت مني لأسباب أخرى فأشاحتْ بوجهها وقالتْ:

- هل تسمعُ كلامي؟ هل تُنصتُ لي أصلا؟

ثم اتّهمتني بالغرور وذكّرتْني بأنني أستخفّ دائما بما تقول ولم أسمع يوما كلامها.قالت إنني لا أسمع سوى صوت نفسي. لقد حاولتْ مرارا أن تُنبّهني إلى أنّها لا ترتاح في تلك الدار دون جدوى. وكان يؤلمها أن أسخر منها. ومما أسميه أوهامها حتى جاء ذلك اليوم..

تذكّرتُ وأنا أسمعها يوم قالت ونحن نتمشى:

- لا فائدة فيك.

قالت إنَّها كانت تشعر قبل أسبوعين من تلك الحادثة بأنّ شيئا ما سيحصل. والحكاية بدأتْ بحلُم مُخيف ظلّ يجيئها؛ ترى امرأة بعينين كبيرتين مخيفتين في حُلمها تأمرها بأن تُفارقني. تهدّد بقتلي إن أصرّتْ على البقاء معي. رغم ذلك كافحتْ لتحمي علاقتنا. ثم استمرّ الحلم لوقت طويل حتى جاء ذلك اليوم الذي اكتشَفتْ فيه تلك الجثة.قالتْ إنّ السّبب على الأرجح تلك الكائنات التي تعيش مع الحاج أسفلَ الدّار. لعلَّ إحداها رغبتْ فيّ. ثم ختمتْ كلامها بالقولِ بأنّها لن تتصارع مع كائنات خفيّة وسمّتْ جهرا وقرأتْ بعض الآيات.

حاولتُ أن أناقشها وأبيّنَ لها أنّ الكوابيس مهما كانت مُخيفة لا يجدر بها أن تتحكّمَ في حياتنا. غضبتْ وقالتْ إنّني تماما مثل سياسي

الوطن، يدّعون حبّ الشعب لكنهم لا يسمعون كلامه أبدا بل يُريدون الوصول إلى أهدافهم فقط. إنهم كائنات صماء تسمع صوتها ولا شيء غيره.أنت ياعبد الحق كائن أصمّ لا يسمع سوى صوت نفسه..إذا كنتَ تحبّني فعليكَ أن تسمع كلامي مهما بدا لك عجيبا.لقد رأيتُ فعلا جثة في مطبخك. جثة عارية على الكرسي الطويل وكدتُ أصرخ لكن الصوت تجمّد في حلقي فخرجتُ هاربة دون كلام.هل تعرف كم من الوقت ظللتُ أعالج نفسي من الصدمة ؟ هل تعرف أنّ هذه السيّدة التي رافَقَتْني، جزاها الله خيرا، هي الوحيدة التي استطاعتْ طرد الكوابيس عن أحلامي؟ لقد نصحَتْني هذه الشوّافة بالابتعاد عنك ففي ذلك خير لنا جميعا. ولكي أقطع الشكّ باليقين أحضرتُها معي إلى المستشفى لتراك فعرفَتْ مصيرك. ألم تقل لك إنك مَتْبوع؟..

حاولتُ مجاراتها وسؤالها إن كان ثمة من سبيل لنَلْحَمَ الشرخ ونعود أحبّة كما كنّا. قلتُ لها سأغيّر الشقة وسأضع كلّ الأحجبة التي تأمر بها العرافة، سأبحثُ عن مكان آخر يؤوينا فازداد غضبها واتّهمتني بالخروج عن الموضوع فلم أعرف كيف أتصرّف أمام هذه الفَرس الحرون التي تتلذّذ بتأنيبي ولا تريد الحل. قلتُ إذا أخافتك الشقة أغيّرها، فما الذي يمنعك من العودة يا حبيبتي ؟

ازداد غضبها على غير العادة وقالتْ إنّ الجثة ليستْ سوى إشارة. إنّها الآن تشكو من الخوف وعدم الثقة في علاقتنا وعليها أن تبتعد. قالتْ إنّ حياتي معها في خطر وعليها الاختيار بين التواجد معي وبين موتي، لهذا اختارتْ أن تبتَعِدَ وأظلّ حيّا..قُلتُ إنّني أقبلُ المخاطرة فلم تَرْضَ..

بدا أن المعادلة انقلبتْ. إنّني الآن في موقع المدافع الذي يُحاول أن يحفظ العلاقة من الانكسار. وتذكّرتُ اللحظات التي كُنتُ أضغط

عليها فيها فتصمتُ ويطول عنقُها مثل الزرافة. تذكّرتُ كيف كانت تحرص بانتباه على ترميم علاقتنا مهما كانت الشروخ فأحسستُ بالخزي. ثم جاءني خاطر مفاجئ بأنّها تتلاعبُ بمشاعري وتكذب. فجأة صفا الذهن واتّضحت الأمور في شمس الحديث ففهمتُ أنّها قطعت واديا جديدا وأنّها تعرفُ غيري وأنّ كلّ تنازل جديد أقدّمه أو رجاء أُلقيه في وجهها لن يزيدها سوى تصميم على هجراني. تذكّرتُ ما قاله عثمان عن الضعف الذي ينتابنا أمام النساء فيكون مدعاة لاحتقارنا فصعدتْ سخونة الغضب إلى رأسي وقررتُ أن أصمت. صمتتُ كي لا أعمّق خطأ لا أعرفُ سببه وقررتُ أن أترك الأمور لأقدارها. مرّ الصمت بيننا مثل سيف صقيل ونظرتْ سهام إلى ساعتها فجأة ثم خرجت بعد أن قبّلَتني في جبهتي.عندها أيقنتُ أنّها آخر قبلة سأحظى بها من الفتاة التي أحببتُ طوال الوقت..

أمام البحر سرحتُ في هذا الترتيب الخرافي الذي مزّق حياتي. وتساءلتُ هل كان ما بيني وبين سهام حُبّا ؟ هل كان حاجة؟ كان اختباء من الحاجة؟ سألتُ نفسي مثل من فوجئ بطعنة:هل تستحق الحياة اهتماما وهي التي تُدير شؤوننا بهذه السخافة؟ هل كان مُقنعا أن تَصْرِمَ الحبيبة حبلي بمجرّد أن راودتها أحلام ووهم جثة في بيتي؟ ثم سألتُ نفسي إذا كانت الجثة حقيقة أم هي مجرّد حكاية قرأتْ عنها في مكان ما وربّما شاهَدَتْها على التلفاز. ثم بدا لي في لحظة، بعد تفكير، أنّ الجثة حقيقية وأنها فعلا جثتي لطول جلوسي على ذلك الكرسي أُنظّر وأبني النوايا والأفكار مثل من يدير دفة العالم. لقد أصبح الكرسي جزءا مني وأصبحتُ جزءا منه بعد كلّ هذه المدة. ألم يتحدث العلماء عن طاقة جانبية تحوم حول الجسد؟ فلعلّها طاقة جسدي انحشرتْ في الكرسي وبانت لسهام بفعل الظلمة الخفيفة. فكّرتُ أنّها قد تكون على حقّ في ما

تقول. ربّما كانت الجثة فعلا موجودة، ربّما كانت جثةَ الصراحة والصّدق المفقودين في حياتنا المشتركة.و رّبما كانتْ جُثتي بمعنى آخر مختلف! هـل يكـون الرجـل المعطّـل غير جثـة عطنة لا يرغبُ فيهـا أحد ؟ ربّما كانـت مخاوفهـا تجاه علاقتنا كبيـرة، وكان يُمزّقُها الالتباسُ الذي نعيش ولم تجد له حلا فجاءتْها المخاوف مراوغة على شكل حلم، عبّرتْ من خلالـه ذاتهـا العميقـة، عن رغبة التحرّر مـن رجل يقف في مهبّ الريح ولا يضمـن عمـلا قـارا يحميها. ولعلّ العينين الكبيرتين اللتين نظرتا لها فـي الحلـم همـا عينا مُجتمع لا يحترم الحبّ إلا وفق طقوسـه وتقاليده القديمـة. مُجتمـع يؤمـن أنّ عاطلا لا يمكنه بناء حياة مُشـتركة. أعجَبَني هذا التفسـير ووجدتُهُ مبررا مناسـبا لكلينا. فهو يمنحها سـببا للهجران، لكنـه بالمقابـل لا يُدينني، ما دام الوضع أعلى من تدبيري.. ثمّ تذكّرتُ كلامها عن الإنصات فعرفتُ بأنّها على حق حتى آخر السطر. وحاولتُ التخفيف من الأمر عندما امتد اليأس بي وقلتُ لنفسـي: من هو الرجل الشـرقي الـذي يُنصـتُ أصلا لامرأة؟ ألسـنا جميعا نرغـب في الحديث دون توقّف ونفتعلُ الإنصات كما كنتُ دائما أفعل معها؟ ألسـتُ جزءا من هذه الثقافة وهذا الكيان؟ فلماذا تُحاسبني سهام على ذنوب الرجال جميعا...؟ ألسنا في النهاية مجرد جثث ذكورية ترفض الإنصات لكلام أيّ امرأة؟

كانت الصوّر تتتالى وتتحرّك في خاطري، وفجأة، قفز إلى ذهني، دون مُناسبة، فيلم التِيتَانِيكْ الذي كنتُ أراه كثيرا رفقة سهام.شردتُ وأنا أستعيد لقطة واحدة قبل نهاية الفيلم. يُنقذ البطل حبيبته ويموت، تتقدّم نحوهما المراكب ولا تراهما، البطلة تصيح ولا من يسمعها ثم تتشجَّع وتجـذب صافـرة مـن فم رجـل ميت وتنفخ بقـوة لأنّ صوتها ضعيف.. تنفـخ مزيـدا إلى أن يسـمعها المُنقِـذون وتغيم الصورة وهي تنفُخُ فتظهر

ملامحها العجوز وهيّ تحكي. بفضل تلك الصّافرة تمكنت المرأة من النّجاة. ولعلّ كلّ ما حدث لي صافرة تدعوني إلى الانتباه وتغيير وضعي..

أستيقظُ من شرودي. اكتشفُ أنّ الوقتَ قد تأخّر بي على الشاطيء. يمتدّ بصري للبحر فأرى طفلا وطفلة يلعبان وسط الماء ويعودان إلى الرمل لبناء قصور جميلة ولم يمنعهما الظلام الذي بدأ يسقط على المدينة من اللعب بحرية. أرى عاشقين يُقبّلان بعضيْهما دون وجل. أرى شبانا يلعبون الكرة بحماس. أرى جماعة منهم يتقدّمون نحو الشاطئ بانتظام ويبدؤون في تنظيف المكان بعد يوم حافل. أرى شبابا آخرين يُغنّون ويرقصون.أرى فتاة تجلس على كرسي من كراسي الكورنيش وهيّ تُمسك كتابا وتحاول أن تقرّبَ بصرها لترى الحروف تحت الضوء الشاحب للمصابيح القديمة. أشعرُ بألفة. يُخَالجني شعور بالراحة والأمان مثل من وصل إلى مُستقرّ له فأواصلُ المشي قربَ البحر وأنا أغطي جرحي الطريّ بأصابعي.

أكادير(المغرب)

فرجينيا (الولايات المتحدة الأمريكية)

بين 2009 و2011

عبد العزيز الراشدي

كاتب من جنوب المغرب من مواليد 1978.

حاصل على الإجازة في الأدب العربي ودبلوم الدراسات العليا في تحليل الخطاب من جامعة ابن زهر بأكادير.

شارك في ملتقيات أدبية بالمغرب والأردن ومصر ولبنان والإمارات والبحرين وفرنسا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية..

نشر قصصا في "أنطولوجيات" عربية وعالمية بلغات متعددة.

عضو اتحاد كتاب المغرب ورئيس رابطة أدباء الجنوب ومدير مجلة الثقافة الجنوبية..

أصدر:

- زقاق الموتى، قصص، مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب، البيضاء، 2004.
- طفولة ضفدع، قصص، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2005.
- بدو على الحافة، رواية،

  الطبعة الأولى، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الامارات العربية المتحدة، 2006.

  الطبعة الثانية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2008.

  الطبعة الثالثة، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الثقافة الجنوبية، بيروت، المغرب، 2010
- وجع الرمال، قصص، دار وجوه للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2007.
- غرباء على طاولتي، نصوص، منشورات وزارة الثقافة المغربية، الرباط، 2009.

وحصل على العديد من الجوائز والمنح الأدبية:

جائزة اتحاد كتاب المغرب لسنة 2004 عن مجموعته الثانية "طفولة ضفدع".

جائزة الشارقة العربية في مجال الرواية 2006 عن رواية "بدو على الحافة".

جائزة ساقية الصاوي للقصة القصيرة بمصر 2006

منحة المورد الثقافي للكتابة الأدبية 2007.

منحة الصندوق العربي للثقافة والفنون لسنة 2009.

منحة للإقامة في الدار العالمية للكُتّاب(le châteaux de lavigny) بسويسرا 2008.

منحة اليونسكو للفنانين الشباب Unesco aschberg 2009.

منحة للإقامة بمدينة الفنونCité des arts بفرنسا، تحت إشراف وزارة الثقافة المغربية والحكومة الفرنسية، (2010).

منحة للإقامة في مركز الفنون لانابولي آرت فونداسيون بفرنسا 2011.

منحة للإقامة في مركز فرجينيا للفنون vccaبالولايات المتحدة الأمريكية 2011

تم اختياره مؤخرا ضمن لائحة بيروت 39 لأهم الكتاب العرب الشباب، بلبنان، في إطار مشروع هاي فستفال.